مارُون عبّود



مجدِّدون ومجترّون

دار مارُون عبّود

دار الثقافة

مجددون ومجترون

مارُون عبّود

مجدِّدونَ ومجترّونَ

دارُ مارُون عبّود

بيروت

ص.ب ٥٤٣

دارُ الثّقافة

الطبعة الخامسة

١٩٧٩

جميع الحقوق محفوظة

مؤلفات مارون عبود

المجموعة الكاملة

الأول : في المبراسة

أدب العرب — الرؤوس

الثاني : رواد النهضة الحديثة — الشعر العامي — جدد وقدماء

الثالث : النقد الاجتماعي

سبل ومناهج — حبر على ورق — آخر حجر

الرابع : النقد الأدبي

على المحك — مجددون ومجترون — في المختبر

الخامس : دمقس وأرجوان — نقدات عابر — على الطائر

السادس : في القصة

فارس آغا — الأمير الأحمر

السابع : في الأقصوصة

أحاديث القرية — وجوه وحكايات — أقزام جبابرة

الثامن : في النقد السياسي

من الجراب — قبل انفجار البركان — أشباح ورموز — مناوشات

التاسع : التراجم

أحمد فارس الشدياق (صقر لبنان)

أبو العلاء المعري (زوبعة الدهور)

بديع الزمان الهمذاني

أمين الريحاني

العاشر : رسائل وأحاديث صحفية

تحت الطبع

الحادي عشر :

مقدمة

القديم والجديد نضال الأبد ، بل صراع الحياة . في عشّ العصفور الدوري كما في عرين الأسد ، بين الآباء والأبناء ، والأخوة والأخوات والكنّة وحماتها ، وهنا التنّور المسجور والفرن الحامي ...

تكون الحماة أرجح عقلاً وأوفر علماً وتراها الكنّة اختاً للغوريلّا وأنثى الكهوف . أمّا الحماة فتقف بالمرصاد كعدّاد التكسي ... إن مشت الكنّة رأت خطواتها أوسع من المعتاد ، وأشارت بتعديلها لتكون على التمام ، كما رسمها السلف الصالح ... وإذا تبسّمت صفّقت على فخذيها وصاحت بابنها : قل لبنت عمّك لا تفتح بوزها على مصراعيه ثاني مرة ، هذا عيب ! وإذا حكت فهي ثرثارة ، لسانها أطول من اذنيها ،وإن سكتت فالمسكينة حمارة ، الدجاجة تأكل عشاءها ، وإن رفعت صوتها كانت وحشة مقطوعة من الحرج ، وإن خفَتَ صوتها فهي حيّة رقطاء تحكي في عبّها . وإن قصّرت ثوبها فهي من سلالة حاتم في الفتنة والاغراء ، وما هكذا تعمل بنت الأوادم . وإن عملت بوصايا الله والكنيسة فكل قماش بيروت لا يكفينا ، والله يساعدك يا ابني ! وإن كبّرت لقمتها فهي غولة ، لعنة الله على من ربّوها ، وان بيّنت سنّها ، فالبنت عينها شاردة ...

وتروز الكنّة حماتها فتراها أقل من خرقة بالية ، أولى لها ان تلقى في المطبخ ، لا ان تتقدّم عليها في المحضر ، وتسوّد وجه البيت . فلتنقبر !

ابن عزرائيل كنّاس البيوت ؟ ألا يرى هذا الوجه المتكرّش كأنه آخر البندورة ؟ ...

والحماة تخاف على ولدها من هذا الطاعون . البيت يخرب إذا تخلّت هي عنه لهذه البنت الطائشة ، وإذا زارتها جارتها تُسر النجوى قائلة : غضب من ربّنا ، يا جارة ، حلّ علينا . يا قلة الحظّ ! ثم تقرصها في جنبها قرصات لاذعة لها الف معنى ومعنى ، بينا الكنة المسكينة تقرأ أو تطرّز ، او تترنّم كذباب عنترة ... وتختم الحماة رسالتها هذه بصريف الاسنان مقروناً بأحرّ العواطف : يخرب بيتها ، لا يهمّها شيء ، سواء عندها خَربَ البيت أم عَمِرَ ، فتجيب الجارة الحكيمة : السكوت أحسن يا جارة ، ما في اليد حيلة !

أجل ما في اليد حيلة ، وهذه مصيبتنا بعينها في الأدب . الأدب يريد أن يمشي ، والحماة قرم عنيد واقف بالدرب ، لا تفتح الطريق إلا إذا مشينا على جثتها . فلنمشِ !

كان من الازياء الأدبية ، منذ نصف قرن خلا ، أن يقدّم الكاتب لإسمه بسجعة فيقول : ألّفَه الفقير الى عفو ربه الرزّاق فارس بن يوسف الشدياق ، أو صنّفه العبد الفقير الجاني ، سعيد الخوري الشرتوني اللبناني . وقد ادركتُ ، تلميذاً ، آخر هذه السوق ، فكتبت على دفتر لي مدرسي سيبقى بعدي وقف ذريّة : المحتاج إلى عفو ربه المعبود ، مارون حنا الخوري عبود . وكان هنالك زي آخر اعظم خطراً وهو أن يصدّر المؤلف كتابه ببيتين من الشعر ، كما فعل المعلم بطرس البستاني ، فكتب على قاموسه الشهير :

قل لمن لا يرى الأواخر شيئاً ويرى للاوائل التقديما
ان ذاك القديم كان حديثاً وسيمسي هذا الحديث قديما

فتعظيم القديم من طبيعة الناس ، ولذلك عبدوا جدودهم ... فكل رجل ،

ولو خاملا ، يستحيل يوم يموت شيئاً عظيماً ، تنهال عليه الرحمات ، ويرون انه كان من المفارد ، لا تعصى عليه مشكلة ، مع ان المرحوم كان لا يهشّ ولا ينشّ ، ولكنه دخل الأبواب الدهرية فصار ملك المجد ...

وقبالة جيل القديم يرتفع توأم آخر يساميه ويطاوله ، هو جيل الجديد ، والتوأمان لا يلتقيان . فزعيم الشعر العربي واحـــد لا غير ، هو الذي ضيّع ملك أبيه ، ولكن عرش ذلك الوالد المحترم لا يساوي بيتــاً من قصائد ابنه . طاح تاج ابن حجر فداء رأس دارة جلجل . ونودي بامرىء القيس ملكاً على الادب العربي ، وثبت عرشه مــدة ستة عشر قرناً ، لا يثور عليه إلا عصابات تذوب جهودها في الخنادق التي تحيط بالقديم .

وقرأ شبابنا آداب الأمم فأغرتهم بالخلق ، فتجهّم لهم المحاربون القــدماء . يريدون أن تظل الجبهة في البيداء فقالوا : ليس هذا من كلام العرب .

إن الشعر معمل تصنع فيه التعابير ، ولهذا يحق لنا أن نقول للشاعر : كن كيف شئت ، إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً : النحو واللغة .

فتنت العرب التعابير الراقصة فصرخوا بصاحبها : أنت أشعر العرب . وأدركوا ان الشعر موسيقى أولاً فقدّموا البحتري وأخّروا ابن الرومي . واهتزّ ابن الأثير « لوطن النهى » في شعر أبي تمام ، وأعجب « بقلب يطل على افكاره » عند أبي عبادة ، كما نعجب نحن « بضيوف الله » عند شوقي ، لا بقريع الشهباء وكبش النطاح ...

يصلّح الشباب أوتارهم فنشوّشها لهم ، وبدلاً من أن ننثر الزهر على الموكب العابر نرجمه بالحجارة . ما قتل الادب العربي الا توسّله الى الفن بلغة « رسميّة » لا يحيد عنها . ولو كان في ذلك الاسلوب « الرسمي » خيرٌ ، ما نزل القرآن الكريم بلغة الناس الفاتنة ، الطرية ، الناعمة ، المصقولة .

يحاول الشباب خلق الشعر المصفّى ، فنغضب تلك الغضبة المضريّة ليظل

أكثر شعرنا نثراً . وكما كانوا يحتكمون في البصرة والكوفة الى وافـــد من البادية ، نحتكم نحن اليوم الى الكتب القديمة ، حتى في الفن ... إن باب القياس أوسع من الهاوية ، فدعوا السماع ، واضربوا في مناكب الارض ، ولا تكونوا من ذوات المعدتين .

فلندع المجترّين يتبلغون بما في بطونهم ، ولنخلق طعاماً جديداً . إن في الأدب أزياء تتجدّد . إن البساتين تحتاج ، دائماً ، الى التطعيم ، والآداب بساتين الشعوب ، فلنطعّم أدبنا فقد أصبح برّياً . قد حان لهذه الوثنية الأدبية ان تتوارى ، فالفن لا يعرف الا إلهاً واحداً هو الجمال . ان افلح الشباب ففلاحهم مجد لنا ولهم ، وان اخفقوا فالتبعة عليهم . ان اللواء معقود لهم ، وسيظل في يدهم حتى تعقده العبقرية لجيل آخر . ان الذرّية محبوبة إلاّ في الأدب ، ففلان وفلان وغيرهما لا يريدون ان يتواروا . إن الحماة لا تدع ثرثرتها حتى يغلق عزرائيل ذلك الفم الذهبي ...

ملّ العرب القديم في كل عصر ففضّل الاصمعي ابن بُرد على مروان ابن ابي حفصة ، وابن الأثير نادى : إن باب الجديد مفتوح حتى يوم القيامة .

منذ دهور وأعيننا في ظهورنا ، وأكثرنا يعارض الذي عيناه في وجهه . فهذا الشعر الذي يقوله شعراء اليوم هو الشعر حقاً ، ولكنه في حاجة الى خلق مستمر ، فقد كاد ان يصير ادب عصائب طير تهتدي بعصائب .

كان الاعرابي يؤثر — كالأب بريمون اليوم — شعراً موسيقيـــاً خفّ معناه ، على شعر بلا موسيقى ، وان رجحت كفّة معانيه . فلنسر على هذه الطريق نُفلحْ . اما المتوغّلون في الوثنية الادبية فلهم اقول : اذا كان يستطاع تبديل حياة النبات بتبديل الضوء ، أفلا يستطاع الشعر على ضوء مصباح اديسون بدلاً من ذبال امرىء القيس المفتّل ؟!

نيسان ١٩٤٨

مارون عبود

المجترّون

١

لمّا ظهر كتاب « الألفاظ الكتابيّة » لعبد الرحمن بن عيسى الهمذاني ، قال رجل لا أذكر اسمه ولا كلمته بعينها : لو غدا حكمه إليّ لقطعت يده .

يا ليته قطع تلك اليد ، وأحرق ذلك الكتاب ! فكتاب « الفاظ » عبد الرحمن و « صبح » القلقشندي ، و « نجـــدة » الشرتوني ، و « نجعـــة » اليازجي ، مراع لسوائم التقليد ، وزرائب لشويهات النقل ، ومستودعات لعاديات اللغة ، لا مثل لها الا تلك المخازن التي تكترى منها الثياب للسهرات والطقوس المحدّد لها طراز خاص من أزياء تواضع عليها الناس . فما قتل أدبنا وأفقده الحس والشعور غير هذه الرواسم « الكليشيهات » التي نجترّها ونحشرها بين كلمات مرصوفة ونشكّها شكّ الخرز في فساطين النوريات ، ثم نتباهى بها كالقرعاء ...

الادب ، كغيره من الفنون الرفيعة ، صورة من صور مشاهد الحياة التقطتها العين ، ورسمها القلم على الورق صورة حيّة ، فلابست العقول ، ووعتها الآذان . كانت رائعة يوم ابتكرت ، فهي لم تنشأ ليلوكها ضيفن الادب ويتقيأها على القرطاس دهوراً وعصوراً ، ولا لتؤدى لها ضروب العبادة

والتقديس ، وغسي ترجمان كل من حمل قلماً يستوحيها دون تفكير بما تحتها ، ولا نظر الى ما فوقها ، كأنها فرضت على الانشاء فرضاً ، فلا يجمل ان يتزيّا إلا بها ، ومن لم يحسن التأدية بها فذاك غير فصيح ، فهبّ بعض المتمشرقين يَصِمُون أدبنا بكثرة رواسمه ، ومستحاثاته ومومياءاته ...

إن هذه العناصر من التعبير تفسد البناية الشخصية الادبية . ونحن أفقر أهل الارض في أدبنا إلى كل ما هو شخصي . خـذ قطعة أو قصيدة ، وضعْ ديباجتها تحت المكبّرة ، كما يفعـل الحائكون ، فتبدو لك فيهـا هذه التعابير كرقعة نابية لوناً وديباجة ، وهكذا يظهر منظومنا ومنثورنا كالمسرح المزيّن بما يدنيه من المكان المقصود ، وان شئت كلمة أوضح ، فقل أنهـا كالقديد في مأدبة طعامها طازج .

لو رصدنا الكون لرأينا حركة راعبة تدهش المتأمل وقلنا مع القرآن الكريم « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب » . فلا جامد جمدة الموت الاّ عقول البشر ، فالذين يفكرون بعقولهم هم أنـدر من الراديوم . هنـاك فئة قليلة جداً تفكر اتفاقاً ، والذين يفكرون بعقول جيرانهم لا تحصيهم الارقام ، أمّا أكثر الناس فلا يفكرون . عقول صغار في جثث ضخام . مثلما يأكلون ويشربون وينامون ، هكـذا يقرأون ويتكلمون ويكتبون . ومثلـما يمشون ولا يعنون أين يضعون أقدامهم ، هكذا تقذف أفواههم تعابير رأوها نائمة في بطون الكتب فأيقظوهـا ليستخدموها في الافصاح عن خلجات نفوسهم وبدواتها ، والتنفيس عن عواطف مكبوتة ، كأنما التعبير علك يُمضغ .

مسكين الانسان ! مـا أشبهه بحصان العربة يتبع الطريق وسوط العرف ينهره ويلذع قفاه، فلا يتعوّج، ولا يتعرّج ، الا ليستريح ريثما يستأنف السير...
ما أكثر الذين يقومون بعملهم الانساني ولا يفكرون انهم ناس !.. وما

أبعدنا عن تمحيص ما نقرأ ، ومـــا نكتب ، وما نسمع ، وما نعتقد ، فكأننا أبواق تنفخ العادة فينا ما شاءت من اصوات قد تكون هي أنكر الاصوات لا غيرها ... فنضم ما ألفناه وتعوّدناه إلى مجموعـــة الميراث الاقدس . فكم من ألفاظ طنّانة ، وتعابير غامضة حائرة تطربنا ، ومـا ندري لـماذا ، وتهيمن وتسيطر علينا كأنها نواميس طبيعية لا بد من تفاعلها ، ثم لا نفكـّر لماذا .

قد يعتب عليك أحدهم إذا لم تقـــل : « ان شاء الله » كما فعـــل أبو نصر بالمتنبي ، ليلة غدوته في طلب منيته . وهذا اللائم يتلفظ بهـــا ولا يدري لماذا ، وقد يقولها ويجهل أنه قالها . ومثل هؤلاء إذا ناقشتهم أخفى الامور والقضايا عن الادراك ، وجدت عندهم لكلّ سؤال جواباً ممـا لقنوهم إياه ، وأملوه عليهم ، كأنما نفسيتهم أحد كتب الرسائل القديمة : المكتوب وجوابه قبالته ، او كالذي أَلِفْناه في التخاطب فنقول : « مشتاقون » لمن نكره محضره ، و « داعٍ لك » لمن نتمنى قصف عمره ...

كم من كاتب يحدثك عن المـــلأ الاعلى ، وهو ينكت مزابل المادة كالشقبان في ليـــالي كانون المظلمة ، ليزدرد ديدانها ويلتهم حشراتها !

ان المفكرين الحقيقيين قليل في هذا الورى ، والمشككين الحقيقيين أقل منهم . أمـا المطمئنون إلى كل شيء فملء الارض ، أكثر من الذباب والبرغش حول المستنقعات . وهـــل من مستنقعات أنتن من رواكد العقل البشري ؟ ما أشبه هؤلاء بصبيان يحسبون منتهى الدنيا وراء الجبل القاعدة في حضنه قريتهم ، وكم كانت دهشتنا عظيمة حين تسلـّقنا الجبل ورأينا وراءه أشياء أخرى ...

وأفتك أوبئة الانسانية ، ذلك الاطمئنان الداخلي ، مرض الدهماء الذين يعومون دائماً في زبد أنفسهم ، ولا يغوصون في لجتها ، تلهيهم ثرثرة الساقية عن صمت النهر الهادىء حيث الحيتان الضخمة التي تبتلـــع حوت يونان ...

إن هؤلاء يخافون المعرفة فيتجنّبونها ويؤثرون الجهل عليها ، وهذه الحياة المخدّرة ، التي يلذ بها كل رجل ، مشترك العقل ، تدفعهم إلى تقديس القديم ، فيرون في الثورة عليه خروجاً على المجتمع ، ومروقاً من عرفه وتقاليده ، فيسمّون فاعله في الدين زنديقاً ، وفي الأدب شعوبياً ، وفي العادات والتقاليد معتوهاً أبله .

وهذا الذي يسمّونه « الرأي العام » يحفظ لنا انماطاً من الحقائق المائتة ، كالسردين في علبه ، فنحترم ونقدّس كل ما تواطأ السلف على احترامه وتقديسه بلا نظر ولا تأمل ، ويتبع بعضنا بعضاً كقطيع غنم قائلين : قالوا ... فعلوا ... حكموا ... فلنحكم !

الرأي العام غوغاء يتراكضون خلف عدو أفلت منهم يستطيع ان يحوّلهم معتوه واحد عن وجهتهم – وهم مئات – فيمضون حيث أشار ، ولا يسألون ولا يفكرون . والعرف الذي يقدسه الناس اشبه بالكظيمة « الترموس » التي تحفظ لي القهوة فاترة حتى الضحى ، أو كالخزانة المثلوجة تصون الطعام حيناً فلا يفسد ولا يعفّن ، فنأكله ولا نبالي بما بقي فيه من غذاء .

لقد عمّمنا ، فلنخصص . فأنا لا يعنيني الآن إلّا الادب ، ولكن ما الحيلة والأدب جذر كل عدد من مسألة الكون العظمى ، او كالمنارة التي يراها المسافر في عرض البحر فيحلُّ على ضوئها شيئاً من لغز ظلمته ؟

التعبير جسد الفكرة ، وقليلاً ما يمثّل هذا الجسد الكلامي محاسن الروح كلها . واحياناً تكون تلك الروح – الفكرة – دميمة ، والالفاظ حسنة كبلهاء جميلة الوجه والجسد . تراها فترثي لجمال بلا عقل ، يعجبك ولا يستهويك . اما نحن فعرضنا الفكرة الجيدة ، او الصورة الرائعة التي لا يدل الكلام عليها الّا كما تدل الصيغ الرمزية على الاجسام الكيماوية . فهذه لا

يفهمها الا من مارس الكيمياء وعرف مصطلحاتها . وتلك لا يدركها إلّا من فهم نفس قائلها ، وأحيا الزمان الذي قيلت فيه ، وأعدّ لها المكان كما يهيّىء المخرج الحاذق ما يقتضي مسرحه من آلة .

أمّا التعابير التي تستعمل بلا كيل ولا ميزان ، ولا تشكيل ولا تغيير ، فما هي الاّ مقاييس تخمينية لافكارنا لا تقوّمها تماماً . انها كتلك القوارير الجاهزة تعالج بها كل الادواء ، ولا تشفي من داء . فهيهات أن تؤدي الجمل كل ما يحسّه الشاعر — لا نعني الوزّانين — وهذا سبب الغموض في بيان عباقرة الشعراء ، عرباً وعجماً ، حتى عدُّوا اللغات عاجزة لأنها لم تلن لأغراضهم . ولولا هذا الضيق لم يكن التشبيه والاستعارة والكناية .

وكثيراً ما يتعدّى كلامنا الطفاف فنقول عن شيء : تافه . غريب . مدهش ! ولو فكرنا لرأينا اننا اكرم من روكفلر حين يهتز للإحسان فيَهِب الملايين . وهذا الاسراف والتبذير في التعابير والالفاظ برهان على اننا نفكر بعقول جيراننا ، ولا نعتقد ما نقول . فكم من مرة نكرر صلاة تعلمناها ، وفكرنا هائم ، فتموج الالفاظ على شفاهنا ولا تلج قرارة انفسنا . فاذا شئنا خلق ادب جديد ، فلنخلعن أنفسنا التي البستنا اياها الاجيال ، ونفكر بعقل جديد وتعبير حديث .

ان في ذاتنا حقائق مخفيّة عنا ولا نحاول كشف غطائها ، ولو فعلنا لكانت هي وحدها الادب المنشود . فمعظم تقاويمنا ومقاييسنا الحاضرة ستنزل عن منصبها وتبدو لنا انها من خداع النظر . ولا خوف على الامم من الذين يفكرون تفكيراً شخصياً ، بل الخوف كله من الذين بهم صمم المتعصبين لكل قديم ، يتبعهم جمهور من العميان المجاذيب ، ولا يقولون ولا يفكرون الى اين ...

ان المتمسكين بالقديم على علاّته ، هم كأولئك الشيوخ الذين يتناسون عيوب زمانهم ورذائل جيلهم ، ويتأسفون على اخلاقه الفاضلة ذامين الزمن

الحاضر . ألم تتأملهم – تأمّلهم اذا شئت – كيف ينقرون الارض بعصيّهم متأوهين قائلين : دنيا زائلة ؟..

رويداً رويداً يا عم ، انت الزائل وحدك . لماذا لم تقرر هذا قبلما ابتليت بهذا الرعَشان ؟ !

ان الجحود ، والايمان ، والتمرد على القديم النخر ، من خواص القلب المخلص والروح النقية . والتجديد في كل شيء لا يرتجى الا من هذه الفئة النادرة . ولولا « المنفعة » التي تهاجم الفنون تحت راية الرأي العام لسار الادب وكل فن بخطى واسعـــة الى القمة ، ولكن حب الاشتهار بين « الجماهير » – شهرة تسبق صاحبها الى القبر – يحمل الكاتب ، والشاعر ، والمصوّر ، وكل فنّان على محاباة الناس والتملق لهم ... وهكذا يظل المجدّد مدّثراً بأكفان المتقدمين ، وان غسلها وكواها ليخفي مـــا علق بها من صديد .

الناس بلاء الناس ، يقـــلد بعضهم بعضاً كالقرود وتعجبهم حركاتهم « السعدانية » فـلا يملّون تكرارها . خذ الفكر العربي منذ ترعرع ونشأ حتى اليوم ، وأرني عناصر التجديد فيه ، ثم قل لي ماذا قال « العلماء » في كل جديد عند ظهوره ؟ ألم يسمّوا الشعراء العباسيين مولّدين ومحدَثين ، ولم يحتجوا بكلامهم ؟ وأخيراً أذكّرك بما فعله بشّار بابن عمه سيبويه ... وابن الرومي بالاخفش ...

يا حبّذا هؤلاء المولدون ، يا ليتهم نموا وكثروا وملأوا الارض ، كما قال رب التوراة لمخلوق اليوم السادس ... حقاً انهم مولدون غير معقّمين ، ولو فكر كل عربي بعدهم واعمل رأيه مثلهم لابتدع واستنبط تعابير ومعاني ، الا ان اكثرنا لا يعقلون . نرى وكأننا لا نرى ، يسيطر علينا عقلنـــا الباطن ثم لا نتذكر شيئاً لا من احلام اليقظة ولا من احلام الليل ،

فندوّنه للعالمين .

مـاذا يقول أدباؤنا في شعراء الاندلس ؟ ألا يرون فيهم شعراء طراز خاص ؟ بل ماذا يقولون في موشح لسان الدين بن الخطيب ؟ ألم يقيموه نموذجاً للشعر الاندلسي ؟ هلمَّ نناقش ، على عجل ، مطلع هذا القصيد الرائع الذي يرويه كل من ألمّ ولو قليلاً بالادب العربي وشعره :

جادك الغيث اذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالاندلس

ماذا ترى ؟ أفكـّر لسان الدين بعقل ومحيط اندلسيين ؟ لماذا يتمنى الغيث ؟ انه لو افتكر لم يقل هكذا ، لقد شغل عقله تصوّر شاعر الصحراء المتقدة احشاؤه ، فانساه تواليَ المطر وغزارته في الاندلس ، فنظم كأنه بيثرب او منى وقد التصق لسانه بحنكه ، ولا يقع على نقطة ماء يبل بها طرف لسانه .

اتبعني يا اخي ولا تقف ، فسأعرض عليك شريطاً ادبياً تراه كل يوم في سياحتك العقلية ، واعذرني ، اذا قلت لك ، انك قلما فكرت به تفكيراً عميقاً . انني ادعوك الى التفكير العميق ، فخفـّف سيرك . المفرق خطر ، خطر الموت !.

٢

وبعد فلا بدّ لهذا الانسان العاقل المجنون من أوهام يرتع بها . ان خلص من وهم تعلـّق بآخر ، كالحرباء في الشجرة الغضة الاشبة ، فالانسان يبني دائماً دنيا جديدة يعيش فيها ، وكلما ظن انه أفلت من وهم ارتمى في حضن آخر ، كمن يضل في مفازة يهماء تكذب فيها العين والاذن ،

فكيفما اتجه يستقبل افقاً جديداً ، مدّ العين والبصر .

خذ مثلاً من يسمّون انفسهم أحرار التفكير (Libres penseurs) . أحقاً ما يدّعون ؟ لا ، وحياتك يا اخي ، قد لا يفكرون مرة واحدة ، بحرّية مطلقة ، في حياتهم كلها . انهم يتابعون من استنبط هـــذا الاسم بـــلا تفكير . وكما في الدين كذلك في الادب ، فالذين يعدون أنفسهم مجددين يقلدون ولا يدرون . وتلك مصيبة ...

من يخلُ بنفسه ساعة ليناقش الادب العربي كيف صرف عشرة أجيال تدهشه دعوى شعرائنا الصارخـــة وتبجحهم الأجش في كل حقبة حتى الساعة ، ويستفظع تختـّر العقول وجمودها كالجليد . اذا فتح أذنه جيـداً سمع قعقعة سلاسل التقليد التي يسحبها شعراؤنا وكتـّابنا على بلاط الكهوف المظلمة كالحصان المقيّد ، ولا يستحي أن يقول : هل كان هؤلاء بلا عقول ، ما خلا نفراً منهم ؟ وهذا النفر أن حاول التجديد ساعة في شبابه وأبدع بعض صور وخواطر — لا اقول اوحتها اليه ربة الشعر ، فهذا تعبـــير مضغه العالم عشرات الاجيال وقد حان أن يلفظه بعد يقظة وجدانه — عاد في شيخوخته الى صيرة المتقدّمين ، كأنما انحطاط قواه أعدّ لبذور التقليد تلك التربة الفاترة فطرّت والتفـّت ، وأخذت الوراثة تعمل عملها .

فالتقليد ، داء أدبنا الوبيل ، هو تصلـّب شرايين قلب الادب العربي . والعتيق هيهات أن يلين بعدما يبس . فلنفتـّش اذن عن القلوب الفتية . اننا لهؤلاء نكتب هذه الحِمية ، نكتبها للشباب قبل ان تدركهم السن ، فالحمية رأس كل دواء .

ألا ترى كيف ُندعى الى حفلات الرثاء فنبكي على الموتى بعد الف عام ؟ ما أرق قلوبنا وأسخى عيوننا ! لقد صار الشعراء في هذه الايام كالنادبين والنادبات ، وكثيراً ما يمزجونهم في مأتم واحـــد . والغريب

العجيب أن تسمع هؤلاء الشعراء يسألون الشمس ألّا تطلع حزناً على الفقيد الغالي ...

اتفق أن كسفت الشمس يوم موت ابن محمد الرسول العظيم ، فأراد أحدهم ان يعدّها اعجوبة ، فقال النبي الكريم : ما كان للشمس ان تنكسف لموت احد !

فهلّا قرأ هذا شعراؤنا وكفّوا عن تشييع الشمس وتكفينها وتحنيطها ... وهي الأم المحيية ، وهلا انثنوا عن تشبيه احبابهم بها ؟ فمن يستطيع أن ينظر الى محبوبة كالشمس او يقربها ؟ افلا يحتاج الى نظارتين سوداوين ؟ ثم من يحب وجهاً بضخامة القمر لا يضارعه الا وجه جدنا الفرزدق رحمه الله ؟ هذا تشبيه لذّ للناس طريئاً ، اما اليوم فصرنا نقرأه ولا نحس .

قلنا في ما سبق ان اكثر الناس يفكرون بعقول جيرانهم ، والآن نقرّر ان معظم شعراء العرب فكّروا بعقول نفر قليل ممن تقدموهم ، وبأذهان من قلدوهم من العرب والعجم . فمن لم يفكر بعقل عمر والمتنبي والبهاء ، فكّر بعقل موسه وبودلر ومالرمه وبيرون وغوته وغيرهم .

قال الشاعر العربي : وسقى ضريحك صيّبُ القطرِ .

والله ما ادري لماذا هذه السقيا ؟ أليفرخ وينبت ويصير دمنة ترعاها الابل والشاء ؟ ام لترتوي كبده الباردة ؟ امّا نحن فأعدنا كلامهم بلا تفكير ، ورددنا ما قالوه اجيالاً ، ولم نتساءل لماذا .

وقال الناثر : سقى الله قبره ، وبرّد ضريحه ، وطيّب ثراه .

تلك صورة انتزعها الجاهلي من معتقده ومحيطه ، فهو وليد أرض ملتهبة وربيب خرافات ، فأشفق على من يهوى من الحر والعطش حتى قال طرفة ابن العبد :

فدعني اروّي هامتي قبل موتها ستعلم ان متنا غداً أيّنا الصدي

اما نحن فما يجعلنا نقول مثلهم ؟ أديننــــا ، وعندنا الجنّة وفيها كل بكر نضير ؟ أبلادنا ، وهي غزيرة المياه لا يزورها الحر الا لماماً ، واذا مرت ريح الخمسين صرنا بحاجة الى الدفء .

ألسنا نقول هذا لأننا نفكر بعقول غيرنا ؟

وقف امرؤ القيس على الاطلال وبكى واستبكى ، فأعجب العرب بهذه الصورة الجديدة ، وفتنهم تعبيره الطريف « قيد الاوابد » ثم اخرج صوراً جديدة لم يسبق اليها ، فخلع عليه الادباء من ثنائهم حللاً ومطارف لم يلبس سليمان يوم عرسه اجمــل منها ، فاقتفى اثره الشعراء ووقفوا جميعاً حيث وقف ، حتى أدرك المتنبي ذلك بعد أجيال فقال :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم   أكل فصيح قال شعراً متيمُ ؟

اما الناس فلم يقفوا مطيهم على هؤلاء الواقفين على الطلول بعد امرىء القيس ، ولا جبروا خاطرهم بكلمـة . بيد ان ذلك الازدراء لم يردعهم ، فظلوا يقفون ويبكون ويملأون الليالي نواحاً وعويلا ، ولا يزالون يلوكون هذه التعابير ويمطّونها كما يفعل الصبي بعلكته .

فيا عجباً لمن يفكر بالوقوف على الطلول ، وعنده فنادق الاصطياف التي يجري فيها ما لم يحلم به امرؤ القيس وعمر ... فأين اصحابنا يقفون امامها ، وهي العامرة اليوم بحسن العرب والعجم ، والخالية بعد شهرين من ذلك الجمال الفاتن العابث بالاحلام التي تزن الجبال رزانة ...

وكان الاسلام ، فانفرد الاخطل بوصف الخمرة وفــاق من تقدّموه وعاصروه ، ومدح الملوك مدحاً يهزّهم ، لأنه نجيّهم وجليسهم وحليفهم ، فما بالنا نسمع حتى اليوم من هم كيوحنا لا يشربون خمراً ولا مسكراً ، يحدثوننا بلسان الاخطل وأبي نواس وغيرهمـــا ممن لم يصحوا ساعة في حياتهم حتى قالوا : وما العيش الا سكرة اثر سكرة ... ثم لا يخجلون

ان يمدحوا او يرثوا من لم يروا لهم صورة وجه ...

وفكر عمر بن ابي ربيعة بذاته فوصفها وصفاً واقعياً دقيقاً فأعجب الناس بقوله ، وشاقهم تعبيره : حيَّر الدمع ، وماء الشباب ، فقلّده من أتوا بعده ولا يزالون . ولو درى المقلِد انه دون المقلَد مهما سما خياله ، واتسع فكره ، وطاوعه الكلام ، لعدل عن التقليد ، ولم يصبه ما اصاب بسمرك داهية الالمان بعد خطاب انكليزي القاه في لندن ، فاستحق ثناء مفكري الانكليز الا واحداً منهم ، فإنه هزّ يد المستشار قائــــلاً له : صُنع في جرمانيا . فعرق بسمرك وضحك السامعون متألمين .

واعجب العجب ان يقول شاعر قصيدة مطلعها : بانت سعاد ، فيلبس اشرف جبة ، ثم يأتي بعده زهاء مائة شاعر يقولون قصائد اولها « بانت سعاد » ولا يلبسون قميصاً مرقعاً ، حتى يقوم في آخر الزمان شاعر طريد — احمــد فارس الشدياق — ويقول قصيدة استهلها ببانت سعاد فيحمل على بارجة ويكرم ايما اكرام ، ولا ادري بل لا اضمن اننا انتهينا من بانت سعاد ...

قال امرؤ القيس : ألا ايها الليل الطويل الا انجــــل ، فرددوا قوله اجيالاً ، حتى ادرك ذلك بشار الاعمى فقال :

لم يطل ليلي ولكن لم انم ونفى عنّي الكرى طيف ألمّ

إن في هـــذا البيت حقيقة لا يعلمها إلا المغرمون ، فهم ، وحدهم ، يعرفون ماذا يفعل الطيف اذا طرق ، وعرض بين الاهداب والاحداق ... وكأن هذه الفكرة لم ترق لابن الفارض بعد أجيال ، فأخذ يتأوّه ويتململ على فراشه هاتفاً :

يا ليل مـــا لك أولٌ يرجى ولا للشوق آخِرْ

وقال الأخطل : ما زال في ماردين الزيت يعتصر ، فتابعه الكتّاب

والشعراء وقالوا : ما غرَّد القمريّ ، وما كرَّ الجديدان ، وما اختلف الملوان ، وما ذر شارق ولاح بارق حتى وما بلَّ بحر صوفة ... وهكذا دواليك ، وان طلبت التتمة وجدتها عند الهمذاني صاحب كتاب الالفاظ .

وانتشر القرصان في بحور الشعر ، وكثر صعاليك الادب كثرة راعبة ، فغزا المتأخرون المتقدمين حتى تناولوا الفكرة الواحدة وصبّوها بألف قالب وقالب ، كأن الغزو سنّة عربيّة لا محيد عنها حتى في الادب . وهذا دليل على ان الاحفاد لا يفكرون ، فقالوا الشعر في غرض واحد ، ولم يختلفوا في التعبير الا قليلاً . ان هذه القوالب لا تزال مصفوفة في دواوينهم كالتي يصنعها الفاخوري لجراره وأباريقه واكوازه وصحونه ، فإذا لم يقم من يحطّمها ويبتدع انماطاً جديدة تأخذها العين ، فالادب العربي لا يتجه اتجاهاً مستقيماً الى التجديد .

٣

وصم متمشرق العربَ بضؤولة خيالهم ، فنحا نحوه كل متمشرق ومستعرب ، ولم يفكروا ان العربي البدوي رحالة لا يقر له قرار ، فهو لا يثبت في مكان ليطيل التأمل ، أنعامُه سائرة وهو سائر وراءها ، لا يستسلم لعقله الباطن لتتجلى له الرؤى ، فهو حسّي واقعي . واذا استمرأ المرعى واستقرّ بمكان الى حين ، فهو كأخيه الذئب ينام باحدى مقلتيه ويتقي بأخرى المنايا ...

ويعيبون عليه ضحل مباحثه كأنهم يجهلون ان الراعي لا يحلق الارض حلقاً ، ولا يقتلع الأنبتة من جذورها ، فشأن العربي في بيانه شأنه مع قطعانه ، وهو كالنحلة تلثم الزهرة ولا تعضها .

ذاك شأن القدماء ، اما الجدد فترسموا خطى الاولين قائلين : انـّا وجدنا

آباءنا على أمة ، وانا على آثارهم مقتدون . لم يخرجوا عن دائرة رسمها لهم الغابرون لاعتدادهم بأنفسهم وتقديسهم السلف . اراحهم الاسلام من تأليه اللات والعزّى ، ولم يرحهم من تقديس شعرائهم وتنزيههم حتى العصمة .

قال بول كلوديل في معرض كلامـــه عن هيغو : لا شيء يميت الامم كالاستنقاع في بؤرة التعفّن والفساد ، وكالاطمئنان الى الراحـــة والارتضاء بالدون ، وكترك الواجب والتردد في التضحية . وهذا مـــا اصاب العرب في الادب فقصروا في مضاميره .

اما هؤلاء المتمشرقون ، فـــلا أراهم يفهمون لباب الأدب العربي فهماً صحيحاً ، بل يفهمون تاريخه . وتفهّم تاريخ الادب غير تمحيص نصوصه ، فترجموا الشعر العربي الى لغتهم كما فهموه ، ونظروا الى ما قال الشاعر لا الى كيف قال ، ففاتهم جمال التعبير ولم يأبهوا للموسيقى ، كأنما الشعر يقوّم بمعناه دون مبناه ، فجاءت تراجمهم متشابهة الصور متماثلة لأنهم فهموهـــا فهماً سطحياً .

لا يذكرني بهـــؤلاء المتمشرقين غير اخوانهم المرسلين الاجانب الذين يعظون في كنائسنا برطانة تضحك الثكلى فوق النعش ، وتفقد الهيكل مهـابته والشعب خشوعه . يظنون ان الوعظ ما يفعلون فتجيء عظتهم ملهاة ومسلاة ...

فما قولك في الذين يزعمون ان الشعر الرفيـع يقوّم بالترجمة ، ويجاريهم في زعمهم فريق منا ؟ فالريحاني ادلّ بهـــذا المذهب في كتيّبه « انتم الشعراء » وتمثل الامثال .

لا أرى الشعر يقاس بالترجمـــة — نعني الشعر لا النظم — وكل قطعة فنيّة في كل ادب تذهب بروعتها ترجمتها . خذ الشعر الجاهلي وترجم منه ما شئت ، ثم قل لي ماذا ابقت منه الترجمة ؟ وهذه التوراة ألم تفقدها الترجمة

شيئاً بل اشياء من روعتها الشعرية ؟..

فلأتولَّ عنك الامر . هاك ، مثلاً ، ترجمة كليمان هيار لشعر عنترة ، فهو يقول ان عنترة هو القائل « اننا ندور كما تدور الرحى على قطبها ، بينما سيوفنا تتفتت على رؤوس محاربينا » .

اعرفت اي بيت ترجم من شعر عنترة ؟ وهل بقي شيء يقال له شعر ؟

خذ مثلاً آخر ، ترجمة نجيب الحداد لقطعة هيغو « واترلو » . راجعها في منتخباته ، وقل لي اين الشعر فيها ؟

قال شلي : كل شعر سامٍ لا يحدَّد ، قد نزيح ستاراً إثر ستار ولا نَصِل الى جماله الحقيقي ، فماذا يبقى من الجمال الذي يعنيه الشاعر اذا ترجم هذا الشعر ؟ وقال ايضاً : الشعر في رائحة الوردة ولونها ، لا في نسيج العناصر التي تتألف منها . فلغة الشعراء تظهر دائماً بلون خاص ، وموسيقى لها صداها ، وبدونها لا تكوّن شعراً ، فترجمة الشعر ضرب من العبث ، ومن يحاول ترجمة شاعر الى غير لغته كان كمن يلقي بنفسجة في بوتقة ليكشف اسرار لونها ورائحتها » .

قال فالري : الناثر يمشي مشياً ، والشاعر يرقص رقصاً ، وهل يكون الرقص بلا وزن ؟ واين الايقاع الذي ينفق الشاعر ساعات وشهوراً لإحداثه إذا ترجمتَ شعره إلى غير لغته ؟

يذكرني هـذا القول بـ « ولز » عندما كتب كتاباً يعارض فيه سفر أيّوب ، فقال بلسان بطل روايته — وهو أب مات ولده ، فعزّاه الناس بخلود روحه في السماء — فاجابهم : انا احببت جسده لا روحه ...

فاذا كان الشعر يقاس بالترجمة فما هو الذي نسمّيه فنـاً ؟ الفكرة التي يرمي اليها التمثال هي الفن ، ام مـا في التمثال من حياة ؟ ان تكن الفكرة فلنقم نصباً كما كان يفعل العرب ونسميه هُبَل والعزّى ، أو فلنحفر

فكرتنا في حجر وندعو الناس إلى الاعجاب بها كفنّ . واذا كان هــــذا ، فأي فرق بين تمثال يحفره رودين ، وبين ما يركمه الصبيان من الثلج في شباط ليخلقوا منه تمثالاً ؟..

وقياساً على هذا تغني زجاجة من ماء الورد عن جنينة ضاحكة ، وقارورة من ماء الزهر خير من مشهد بستان منوّر في صيداء ، فلا تعود تشتاق ايار نفوس الورى .. ولكن هكذا قال بعض المتمشرقين فلنقل مثلهم ، فلنجترّ ما قالوا . هكذا حكموا فلنحكم !

قلنا ان المعنى روح والتعبير جسد ، وهذه الكلمة قالها العتابي منذ الف عام وازيد ، ولكن الهمذاني وغيره من مصنّفي كتب الالفاظ يريدون ان تكون الاجساد كلها متماثلة ، ولو كان ذلك لملّ الناس بعضهم وذهب ما نسمّيه « جمالاً » ، فما قولك ، اراحك الله ممن يفكـّرون بعقول جيرانهم ، بوجوه متشابهة تروح وتجيء في مكان واحد ؟

إن هذا ما أصاب أدبنا المسكين فكثرت الجِرّة فيه وصار كزّاً . تعابير كـَكِسَر يابسة في جراب متكرّش ، وانشاء متورّم كلحم نفخه الجزّار ، وتقليد طويل العمر فلم يستنبط بعد المتقدمين ، تعبيراً جديداً سوى شعراء قليلين جداً واقل منهم استنباطهم . وما اشبههم بالنحاة الذين يصنفون كتب النحو ولا يزالون يمثلون بـ « عندي رطل زيتاً » ، والزيت ملء الارض في هذه الديار .

فلو قرأت احمد شوقي ، مثلا ، رأيت عنده تعابير جديدة ولكن اكثرها منبوش من اضرحة القدماء فهو كالذي يعثر عليـــه الأثريون في مدافن جبيل والأقصر ، وما احدث شوقي بضعة تعابير حتى تناقلها عنه شعراء اليوم مثل : رفرف الخلد ، وجارة الوادي الخ .

الشعر موسيقى قبل اي شيء آخر ، ولهذه الموسيقى معنى ، واذا فقدَتـه

فهي ألحان مشوّشة لا تطرب ولا تهز . وكما تتجدد الموسيقى وتتنوع هكذا يجب ان يتطوّر الشعر ، ولن يدرك هذا الا بخلق تعابير جديدة ، لها رنّة وصدى ووقـع طيّب في النفس ، فقد مللنا تعابير الاقدمين كما مللنا ونملّ كل لحن يكرر ويعاد كل يوم ، فالالتجاء الى هـــذه التعابير الهرمة يقتل المعاني في ادبنا ويلهينا عن التفكير .

فالشاعر كيماوي ألفاظه الأجسام ، يؤلف منها مخلوقات جديدة ، وهو كالنباتي الذي يخرج من نباتين نباتاً ثالثاً له خواصها ولكنه غيرهما .

وكما يطعـّم النباتي شجرة برّية فتصير بستانية ، هكذا يفعل الشاعر في الألفاظ حين يركـّبها تركيباً فنياً . أريد ان لا يُفهم من هـذا أننا ندعو الى نبذ القديم وتركه بجملته . اننا ندعو الى ترك تعابير عمّت حتى خمّت . ندعو الى ادب جديد ليس كما تخرجه لنا الطباعة من رسوم رافائيـــل وميـكالنج ، وليس كالخطوط التي يرسمها الصبيان على الحيطان ، فمثل هذا الادب يجب ان يموت لأنه لا يكون من مواليد الحياة والسعادة . إننـا ندعو الى أدب له جمال الروح والجسد ، فالمعاني هي الخطوط ، امّا التعابير فهي الألوان .

لم ينبذ القدماء ابن الرومي الا لجهومة الفاظه وابتذال تركيبه وتعبيره ، وهذا خير معبّر لنا عن ذوقهم الفني . أما بعض ادباء اليوم فلم يكرموا ابن الرومي هذا التكريم الضخم الا لابتلائهم بدائه .

ولم تكن الجرأة في التعابير فقط ، بل اجترّ العرب المعاني فما زالت الحكمة تتناقل من ابي العتاهية الى الزهاوي ، وما زالت الاغراض هي هي ، والتعبير هو هو ، فلو تصفـّحت ما قيل في حفلة الفردوسي وحفلة المتنبي وما قيل في وديـع عقل يوم موته ، وقابلته بما قاله هيغو في تيوفيل غوتيه ، ظهر لك أن تصيُّدنا تعابير الاقدمين ومعانيهم يقتل شعرنا الحديث .

وأقوى مشجع على هذا الشعر الخبيض كيلُ الصحف الثناء لهؤلاء المجترين .

فكل حفلة عند الصحف شائقة ، وكل قصيدة عصماء رنانة أو قطعة من الخلود ، وكل خطبة حجاجية طارقية . لا اكتم أنني سررت جداً بما قرأت من فصول نقد لحفلة المتنبي ، وأعجبتني مقابلة الصحافة كلاً بما يستاهل ، فليت الكتّاب الذين يعنيهم هذا الأمر يدقّقون أكثر ، ولا يرحمون هؤلاء الذين يركبون المنابر ليسمعوا الناس مبتذل القول .

وما زال الشاعر العربي يفكـّر بالتعبير الذي تقضّى شبابُه وذهب وقته ، فهيهات أن يبدع ، وما زال يتخيَّل اننا نقيسه بالمتقدمين لا يخرج من اقبيتهم السوداء .

قـال الدكتور غرمانيوس المتمشرق المجري : ان الشعر العربي في أدواره كافةً يتجه اتجاهاً واحداً نحو الافراط في العناية بالألفاظ اذ يتعمد الشاعر الغوص في محيط اللغة حتى ينتقي الالفاظ المختارة ، وفي سبيل هذه الغاية تضيـع من بين يديه الغايات العاطفية والفكرية التي من اجلها نظم القصيدة ، فكأن الشاعر يرى ان القصيدة ليست سوى طاقة من الالفاظ البارزة الجميلة . »

لا يا دكتور ، إننا نشكو قـلّة الإبداع والتفتيش في محيط اللغة ، إننا نشتكي ادبنا من تعابير بعينها يجترها الشعراء ، فلو قرأت شعرنا قراءة متأنٍّ لرأيت ان شعراءنا لا يغوصون في محيط اللغة كما توهمت ، بـل يغوص المتأخر في بحر المتقدم حتى جـاءت التعابير والألفاظ هي هي ، وهذا الذي جعل الشعر العربي كريهاً مقيتاً ، ما أشبه شعراءنا وكتابنا بولد ياخذ عن أبيه تعابيره ونبراته ومعانيه فلا ترى الانسانية في هذا المخلوق إنساناً جـديداً . إن تزمّت نقاد العرب حصر الأدباء في نطاق ضيق من التعبير فصار الادب إلى ما صار اليه .

والجمهور ، أو الرأي العام ، اضخم حجر عثرة في سبيل تقدم الفنون كلها ، فهو الذي يخلق الجمـــود في كل شيء وخصوصاً في الادب والدين . فاللغويون يقفلون الباب بوجه اللسان ، واللاهوتيون يسدُونه بوجه العقل ، ويحرمون التفكير ويتهجّمون على أصحابه ، كما فعل احـد الآباء في رده علينا بالبشير . ولا باس عليهم ان لا يفـــتروا مدافعين عن الله ، كأن الله من حزبهم ، كما قال غوبلز ، أما الراي العام فهو عبد الفريقين .

قال جورج سورل : قد كان غضب باغي Péguy شديداً عندمـــا ظهر كتاب روستان Rostand وتناولته الصحافة بالاطراء وقامت الضجة حوله، وتغاضت عن كتاب باغي « جان درك » الذي ظهر في تلك الفترة عينهـــا .

اعتقد باغي انه مُضام مظلوم ، فافهمته أن الفن الحقيقي لا يمكن ان يدركه الناس كما يدركون الانتاج العادي ، وانه يجب ان تنقضي عدّة سنين على الفنّان ليعرف قدره ، فدقة الفن لا تفهم فوراً ، وكل غرابة تدهش وتنبـــذ بادىء بدء .

ثم يعقب سورل على هذا الكلام قائلاً : اما باغي فـــلم يجب ، والسكوت دليل الامتعاض . ويقول سورل انّ « جان درك » باغي طرفة فنية الخ .

فاذا كان التجديد يسبب لصاحبه غضباً وسخطاً في أمـــة كادت تبلغ الاوج الفني الادبي ، افلا نعذر العربي اذا خشي التجديد ولم يجرؤ عليه ، وارضى الجمهور كروستان ؟

وهل اكثرَ خصومَ المتنبي غير جنوحه الى التجديد ، فشقّه طريقاً جديداً اكثر من المعجبين به – اللهم من الذين لا يقدسون القديم ، ومـــا اقلهم – ولا يرون في الشعر الجاهلي ما نراه نحن في قداسة سيدنا البابا من عصمة وتنزيه .

٤

والآن قد حان ان نمر مرة عجلى بما يمضغه الكتّاب والشعراء من تعابير ، وما يجترّونه من جمل ، وما تتلقفه اقلامهم من الفاظ كأنها كرة وضعت لصوالجة ...

يقولون : بُعد الثريا عن الثرى . قالها عربي مولع بالجناس فحلَت يوم مولدها . ويقولون : مزجر الكلب ، قالوها يوم لم تكن الكلاب تجلس على مقاعد الرجال وفي احضان السيدات وتنام بين اذرعهن . . . وقالوا : لله دره ، ولفظ كالدر ، وقصيدة عصماء ، ونفثة مصدور ، وكأن على رؤوسهم الطير ، وكمن افواه القرب ، وكلفني عرق القربة ، وشاعر فحل ، وافتض ابكار المعاني ، وتقليم الاظافر ، وذر قرن الغزالة ، وارخت حبالها الذهبية الخ ...

اهكذا يكون البحث في محيط اللغة يا دكتور غرمانيوس ! لا والله ، فلو كانوا يبحثون لما حلّت اللفظة الواحدة عندهم محل عشرين ، ولو كان التنقيب الذي زعمت لما كانت هذه الرخاوة في منثورنا ومنظومنا . ان الفاظ العربي اليوم كعباءته ، فهي لا تصلح لواحد ، وتصلح لكل منا على وجه الأرض ، هي ثوب يشمله وان لم تفصّل لتلبسه .

فلنسأل الدكتور المتمشرق — ان هذه الالقاب الضخمة ترعب — ما يقول في تقليم الاظافر ، وقد صار موضة يَدين بها حتى بعض الكهنة العصريّين ... وعندنا ، بعد ، من يستعمل هذا التعبير كأننا في قلب الصحراء ، زمن تأبط شراً ، والشنفرى ، وكل صعاليك العرب .

وما رأيه بعرق القربة ، والمياه توزّع على البيوت وتـكاد تخرّ في كل غرفة ؟ بل ما رأي جنابه بافتضاض أبـكار المعاني ؟ أليست من ملائمـات الشاعر الفحل ؟ كم واحداً يفكر بما يكتب عندما يخطها على الورق ؟ ..

بل ما رأي القراء بالزمخشري القائل : فلان فقيه عـالم بذوات الضبـع وذوات الحمل ؟ انني أعجب كيف لم يهتد اليها الكتّاب ليستعملوها في وصف الشعراء والفحول الذين يفتضون ابـكار المعاني .

ولله دره ، اي درّ نعني ساعة نقولها متعجبين ولا نياق عندنا ؟

وما تقول بنفثة مصدور ، وكثيراً ما يستعملونها ! اترتاح النفس كثيراً الى رؤية البصاق مصوراً على الورق ؟ اشهد ان نفسي كادت تجيش عنـدما قرأت مثل هذه العبارة لوليّ الدين يكن : « عينان كأنهما بصقتان » واسفت ان يستعمل اديب متأنق مثل هذا التعبير .

وافواه القرب ما يذكرنا بها وعندنا الميازيب والشلالات ؟

وطلوع الشمس ، أنظل نعبّر عنه بذرّ قرن الغزالة ، وارخت حبالهـا الذهبية ؟ فاين الذهب لنذكره بعد ؟ اما غرق مع ذكاء الشاعر فياض ؟

وما رأيك بشاعر كالبارودي يصرخ :

هل من فتى ينشد قلبي معي بـين خدور العين فالاجرع

وعنده مدينة تضيـع فيها الجمال المحملة هشيم برسيم وأرز ، ومدنيـة تستغوي الحبيس . وما تقول بماء وجرة يذكرهما ابن عاصي حماه — الفارض — القاعد على ضفاف النيل ؟

حقاً يا كلوديل ان التعفن آفة الفكر البشري ، وما اكثر المجترين .

٥

اما الصور التي اجترّوهـا في قيلولة الفكر العربي ، وقيلولة الفكر اجيـال واعقاب ، فنظرة الى أي ديوان شئت تريكها متكئة على الارائك والصفـُف . شبّه بدويّ النظرة بالسهم ، والحاجب بالقوس ، فاجترّ تشبيهه كل من قال شعراً من المتبدّين والمتحضّرين . لقد شبه ذاك البدوي بمـا لديه من آلة خَبـَرَ آلام وقعها ونزعها ، فما للحضري يردّدها حتى اليوم ولا قوس عنده ولا سهم ؟

وشبّه آخر القد بالغصن ، والاصابع بالعنـّاب ، والعين بالنرجس ، والخد بالورد الخ ، فصارت قدود الحسان جنـات تجري من تحتها الانهار .
وشبّه أحدهم صدغ الحبيب بالعقرب ، فصرنا لا نرى الا عقارب يصورها المتاخرون والمتقدمون تارة شائلة أذنابها وطوراً مرتخية .

ان زعم المتقدمين « من سرق واسترق فقد استحق » مهّد لهذا الاجترار ووطأ له ، فقلّ التفكير وابتذل التعبير . واذا شئت ان ترى فاستعرض كتب الادب كالمثل السائر ، والصناعتين ، والوساطة ، وغيرها . لسنا ننكر على بشـّار اجادته حين قال :

وكنا اذا الجبار صعـّر خده   مشينا اليـه بالسيوف نعاتبه

فقد بزّ الفرزدق بصورة فيها كل الفن واللباقة والتنوّق ، ولكننا نلوم ابا نواس في تضمينه بيت بشار وافساده إياه . قال بشار :

يا رحمة الله حلي في مساكننا   حسبي برائحة الفردوس من فيك

وقال ابو نواس :

يا رحمة الله حلي في مساكننا وجاورينا ، فدتك النفس من جار

ماذا قال أبو نواس ؟ الا ترى انه لم يفكر ، بـــل خطر على باله مثل النحاة : يا جارتا ما انت جـــارة ، وعنت له التفدية ، وما اشيع هذه الكذبة عند العرب ، فقال : فدتك النفس من جار ، وكمّل بيته . وابو نواس شاعر إمام . قال الجاحظ في شعره : هـذا شعر لو نقر لطن . ارأيت عمل الرواسم في الأدب العربي ؟

قال النقّاد : ان بشاراً شاعر لا صبر له ولا جلد . ما صدقوا فيما زعموا ، فبشار جليد في الشعر الخالد ، ولكنه كان مهزالا ماجنـــاً فترك كل شيء في شعره على عـــلاته ، اللهم في الشعر الذي نسميه شعر الساعة ، يقوله الشاعر ارضاء لمن ُيبرمونه ، اما فيما عدا هذا فلبشار شخصية أبرز من الشمس وانمّ من الريح ولا تجدها في شعر شاعر عربي .

قال طرفة الجاهلي : فدعني أروي هامتي الخ ، فقام شاعر بعد اجيـــال يقول :

فيا رب ان اهلك ولم ترو هامتي ببليلى امتْ لا قبر اعطش من قبري

كأنما فتنت هذه الصورة شاعرنا فنسي دينـــه الحنيف مهدّم خرافات الجاهلية وعقائدها .

وقال ديك الجن الحمصي يجتر في احدى قيلولاته :

وعقدتُ بين قضيب بان اهيف وكثيب رمـــل عقدة الزنار

فصرنا نرى في قدود الاحبـــاب اغصاناً ، وفي الاكفال كثبانا . شكل غريب مدهش تصوره ديك الجن فمثـــل لنا حبيبه كالنملة او الزنبور . ان كثيب هـــذا الشاعر المأفون يغلي ثمنه اليوم الاستعمار الصهيوني ، ولا يحيي مواته الا خبير بزراعة الليمون والموز .

وبعد فما أصرح الاخطل القائل : نحن معاشر الشعراء اسرق من الصاغة

لقد صدق التغلبي ، وان يسرق فقد سرق اخ له من قبل ، هو الاعشى ، كلاهما سرق صورة النابغة ، ولكن الاخطل اخذها بشحمها ولحمها فقال :
وما الفرات اذا جاشت حواليه الخ

ان هذا التقليد عاق الفكر العربي عن اتجاهه ، فلم يتّجه شعراؤنا في تفكيرهم الى سمت معيّن ، ولم ينشدوا مثلاً أعلى ولا افتتحوا آفاقاً جديدة في تفكيرهم وتعبيرهم . تقرأ شعر متأخريهم فلا يصح لك منه شيء يقال له شعر لم يقل مثله ، وترى التضاد في شعرهم جميعاً . واليك مثلاً اكبرهم شيخ المعرة ، فبينا هو يقررنا على قضية ، اذا هو يضادها حين تراءت له أخرى احبّ ان يتبناها ، فكأنما هو ينظم أرجوزة في النحو والصرف كابن مالك ، ولذلك تظهر شخصية شعرائنا كتنين رؤيا يوحنا بسبعة رؤوس ، ولا يفهم من هذا ان المعري إمّعة بل انه كالراديو تتغلب طفيليات احياناً في ما يذيع على الملأ .

خذ مثلاً بشاراً وعمر وابا نواس والمتنبي وابن الرومي وغيرهم ، فانك تراهم مجددين ومقلدين في وقت واحد . اذكر لك منهم ابن الرومي ، اما انت فتقصّ من شئت ، فابن الرومي مجدد ومقلد في قصيدة واحدة ، وما تلك إلا قصيدة « وحيد » المغنية التي يعجب بها ادباء عصرنا ، ففيها يشبّه ابن الرومي قدّ وحيد بالغصن ، وجيدها ومقلتها بالظبي ، وخدها بالنار ، وريقها بالبرد ، ثم يراها ظبية وقمرية ، وينعت الحاظها بالضعف ولا ينسى عقد السحر التي خبرنا عمر في « داليته » ان هنداً التي لا تنجز ما تعد نفثتها له ، وهلم جرا . اما حين وصفها فأرانا « وحيد » راقصة نكاد نصفّق لها اليوم ، ونعطيها نصف ملكنا كهيرودوس .

واذكر لك شاعراً آخر من منافسي المتنبي وهو الببغاء — والببغاء والسريّ الرفاء لو لم يظهرا مع المتنبي لكاناه — فالببغاء يصف الربيع

ويذكر نرجس العيون ، وشمس العقار ، كما فعل المتقدمون ويفعل المتأخرون والمعاصرون .

ومن كتّابنـا الاحياء خذ مثلاً العقاد ، فانه يكتب كتاباً ضخماً في ابن الرومي سبقه الى موضوعه المـازني ، ولم يزد العقاد عليه إلا دراسة عصر ابن الرومي ، وهي بالتاريخ اشبه منها بالدراسة الادبية الفنيـة ، دراسة واسعة غير عميقة ، كأدب طه حسين الذي عرّفه العقاد في هلال يوليو ١٩٣٥ .

ثم حاول العقاد ان يجدد في الشعر ، فنظم ما سماه غزلا فلسفياً — ما أقل عقل الحبيب المتفلسف — وكرَّ كرة أُخرى فنظم لنا قصيدة خنثى ، لا هي فكاهة ولا هي جد ، بل هي نظم قنفذي ككل شعر عقادنا الجليل ، واليك مطلعها :

البيـلا البيـلا البيـــلا ما أحلى « سلب » البيلا

وان شئتها كلها فارجع الى هدية الكروان « ص ١٣٩ » . نشدتك الله ان تقرأ هذه الرائعة ، فالبيلا هي البيرة ، وسلب هي شُرب .

وتغرَّب العقاد فنظم في الشيطان الذي لم يبق شاعر غربي ، قديم او جديد ، الا قلد شاعر عوص — ايوب — وقال فيه شعراً ، — تلقّيت مجموعة شعرية موضوعها لوسيفورس — فجاءت قصيدة العقاد التي سماها طه حسين ملحمة ، من الشعر العقادي البارد الذي يقول خيراً منه طالب موهوب متمرّن . شعر لا يرنّ ولا يطنّ ، اخرس يتوكأ على عصوين ويتهادى بين اثنين : عبد الرحمن صدقي وطه حسين . فأنّى له يرقص رقصاً كما يريد الشعر بول فاليري ؟ وصاحب هذا النظم ، « الفقير » الى ربة الشعر ، كما يوقع المتواضعون من رجال الدين يحدثك دائماً عن الفن ويتغنى بجماله ! رحم الله مجنون ليلى فقد مات ولما يبلغ وطرا .

فلو تكون الاعمال بالنيات في الشعر ايضاً ، لوقع اجر هذا الفاضل علينا

وجعلناه فوق سدرة المنتهى حيث وضع بشاره الخوري احمـــد شوقي ، ولكن الفن لا رحمة ولا هوادة فيه . الفن غير الدين .

ويدهشني ان من ينظم مثل هذه السخافة التي يسميها طه شعراً يقول بمعرض كلامه عن الادب العالمي (صوت الاحرار ٩ ك ١ ، ١٩٣٣) : « ربما كان لنا الآن ادب صالح للذيوع في لغات العالم لو تيسّرت له وسائل الذيوع » . طبعاً لا يعني العقاد غير شعره ، لأن شوقياً في نظر العقاد كالعقاد في نظرنا او اقل .

فأي وسائل ذيوع يرتجي العقاد غير الترجمة ؟ اما قال صالح جودت في مجلة الامام (١ دسمبر ١٩٣٤) : « رحنـــا نعرض شعره — اي العقاد — للترجمة الى الافرنسية والانجليزية ، وندفع بعض الادباء لترجمته الى اليونانية » .

حاشية : اخال او أزعم ، كما يقول طه ، ان بغية العقاد من ترجمـــة شعره الى اليونانية ايضاً ان تتيسر للناس المقابلة بين شعره وشعر هوميروس ... اذكر جيداً انني قرأت للعقاد كلمة في الالياذة حين ترجمت ، فرأى حضرته شعر هوميروس يكاد يكون هراء في هذا العصر . قد يصح هـــذا الكلام بشعر هوميروس اذا قارناه بشعر العقاد ...

ثم ماذا صار يا صالح ؟ الم يصر شعر العقاد عالمياً ! حقاً ان قصيدة البيلا والغزل الفلسفي وقصيدة الشيطان التي زعم لنـا طه انه قرأها وقرأها وقرأها .. لمن روائع الادب العالمي ، ومثلها كل ما نظمه العقاد بيراعته وكتَبَهُ بنبّوته .

وهذا ايليـا ابو ماضي يحاول التجديد ، ومومياءات الاقدمين تغويه بظاهر لا تعد ، كأنها الشياطين في اسطورة القديس انطونيوس (راجع رواية فلوبير) فيرصفها بين عذاراه الطريئة ، فتبدو كحصيات فسيفساء في جدار جلّ ما فيه حديث . خذ مثـلاً قصيدته التي يختم كل مقطع

منها بـ « لم أجد أحداً » ، إبحث لتعلم من اي شاعر قديم استعار هذه « اللازمة » .

ثم خـذ قصيدة أخرى سينية عنونت بهذا الشطر « وبلادنا متروكة للناس » فتراه فيها يشبه كامرىء القيس « بمسابح الرهبان في الاغلاس » ، كأنه نسي ان زماناً كانت فيه للرهبان مصابيح تضاء في الاغلاس قـد انقضى عهده .. ثم لا يحجم ايليا ان ينفحنا بالكذبذب ، ويأخذ تعبير الشاعر الاموي عينه « حز مواسي » ليسد به ثلمة قافية في القرن العشرين .

ويستعمل هذا المثل ، محشوراً ، فيقول : وضربت اخماسي الى اسداسي . ومحصول كلامه دق الكف بالكف للتحسر ، وليس هذا مفاد المثل العربي : ضربت اخماساً الى اسداس ، الا اذا كانت يد من يقوله سداسية .

وفي قصيدته « الفراشة » يخاطبها قائلاً :

وكلما نورت في السفح زنبقة حثثت للسفح من شوق مطاياك

ذكّرني تعبير ابي ماضي هذا بقول المنفلوطي لفرح انطون ، حين عـاد من اميركا الى مصر او حين ذهب الى اميركا — لا اذكر جيداً :

ان كنت لا تبغي لنفسك راحة فأرح مطيك والدنى وبنيهـا

فعقّب فرح الجدد على بيت المنفلوطي هذا بقوله : اننا ركبنا الباخرة فلانة فلا خيل ولا نياق .

فنصيحتي الادبية الى الشاعر ابي ماضي ان ينقّي شعره من هذا الزؤان ، من هذه التعابير البائخة ، ويبدع تعـابير جديدة تليق بشعره العصري ، فالشعر موسيقى اولاً ، والنغم المبتذل لا يهز النفوس .

ثم مـا قولك بالزهاوي — اراحه الله في ضريحه من منكر ونكير — القائل في فردوسيته التي يأتي ذكرها مع الفردوسيات والفردوسيين :

ولقـد سرني كما سر غـيري ما بهـا من نزاهـة الاحكام

زرت بالامس الروض امتع عيني   واذا الورد فيـــه ذو أكمام

أي فرق بين هذا الكلام وبين محليّات الصحف ؟ فهل تقول بعد هذا : من قال السماء فوقنا ، والأرض تحتنا ماذا قـــال ؟... ولكن كل كلام يستقيم وزنه هو الشعر عند الزهاوي والعقاد ، فهما بيضتا دجاجة واحـــدة في النظم ، وان رجح الزهاوي وشال العقـــاد في الميزان . فسبحان مقسّم الارزاق وواهب القرائح !

٦

وهذا اخونا بشاره الخوري يقول قصيدة وطنية ، مطلعها : عش عزيزاً او مت بها مستقلاً . فيذكرنا بالمتنبي القائـل : عش عزيزاً او مت وانت كريم . ثم افتتح قصيدة أُخرى بقوله :

جعلت رسولي نسيم الصباح   اليك وطرسي خدود الملاح

مليح وأي مليح هذا الطرس يقدّه صاحبنا من خـدود الملاح ليصحّ فيه قول المثل : من يقصّ من جلد غيره يوسع . امّا رسوله نسيم الصباح فيذكـّرنا بقول « الميجانا » : يا ريح ودّي للحبيب سلامنا . وقد يكون شاعر الميجانا أروع وأرق .

وفي هذه القصيدة التي بناها شاعرنا على الحاء ، لا لشيء إلا لأن المنظومة له اسمه صلاح ، يأخذ بشارة قول بشار :

اذا ايقظتك صروف العدى   فنبّــه لهــا عمراً ثم نم

فيقول :

اذا شاقك الشعر حر النجار   فنبّه له العربي القحـــاح

قابل ايها القارىء العزيز ، بين القولين ، تجدهما متقاربين كالسميين ، اي بشاره وبشّار ، ثم قس أنت على مـــا قيل ما لم يقل ، ولا تكلّفني ، وحدي ، الإستقراء .

الشاعر الذي لا يجحـد فضله على الشعر العربي ، هو الذي يجري في عروقه دماً جديداً . وهذا الشاعر هو خليل مطران ، قال شعراً ستصغي اليه الاجيال مهما عتق ، ولكنه حين شاء أن يرثي حافظ ابراهيم قال :

عظّم الله فيك أجر الضاد وبنيها من حاضر او باد

وشكر الله سعيك يا خليل ، قف حدّ الحيط حتى نعزّيك بالفقيـد العزيز . اليس هذا من الاجترار يا صاحبي ؟ ان في قصيدتك الطويلة ابياتاً من الشعر ، ولكنك اردت ان تطولها فقعدت تجترّ كالعنز في القيلولة .

والآن أنفض يدي من المجترّين ، ولا اقسو على مطران لانه كريم لا يرد طالباً ، فهو على دين بشار في هذا ، يرضيهم كما ارضى المرعّث ربابة ربة البيت ليأكل البيض طازجاً ... ثم ان عملاً آخر يدعوني ، ولهذا اترك الطريق مفتوحاً لمن يجيء بعدي فينقب عن المجترّين . فهذا الاتكال على القدماء وهذا الغزو الادبي ، وهذا الاجترار ، بل هذا الاستنقاع كالبوشرية قبل ان شُجِّرت ، وهذه الضفادع التي تنق فيها هي التي جعلت هذا الجمود في أدبنا العربي . وقد أدرك ذلك بعضهم فقال في أحدهم : لو قيل لكل كلمة إرجعي الى صاحبك لما بقي له واحدة .

وآفة رواسم الاقدمين تنتشر اليوم في شعراء الجيل الطالع – الذين يسمّون رمزيين – قال جبران : أشباح الليل ، لأنه كان يسهر الليل وينام النهار ، فسمعنا كثيرين يقولونها مع أنهم كرسل المسيح لم يسهروا معـه ليلة واحدة ... وخلق الشاعر سعيد عقل صوراً وتعابير ، فاغار عليها الذين استحلوها حتى عجّ بها شعر الناشئين والبالغين فأفسدوا الطريقة وجنوا

عليها وعلى صاحبها . ونبش طه حسين تعابير من خزائن العرب مثل : انا زعيم ، وغيرها ، وألحَّ علينا في استعمالها الحاح الذباب على قاضي الجاحظ ، ثم كرر وقال : مليح ومليح ومليح فقاموا ينحون نحوه .

فلندع للرجل تعابيره يا بشر ، فكّروا وانبشوا مثله فالميراث واسع ... رحم الله الأجداد كم أحيوا ، وما أكسل الأحفاد الذين لا يرجعون الى دفاتر جدودهم العتيقة ...

ان قلة التفكير تولّد الاتباع الأعمى . قال طه حسين ، كما قال الشدياق منذ قرن : إن تكلّف السجع صناعة ممقوتة ، فتابعه الكثيرون بلا تبصر حتى أصبحوا يرون كل سجع شنيعاً ، وكل « بديع » رديئاً ، ولم يقم من يفكر تفكيراً معاكساً غير زكي مبارك فكتب كتابه القيم « النثر الفني » يعارض المتمشرقين وطه حسين الذي تابعهم ويتابعهم دائماً .

وغير بدع أن تجد الإجترار في احدى صور الاقدمين ، او في معنى من معانيهم يعالجه العشرات منهم ، ويرددونه في كير نظمهم ، ولكن الغريب العجيب أن يجتر شاعر معنى واحداً من معانيه فيقوله مراراً كما فعل شوقي في بيته : وانما الامم الاخلاق الخ ، حتى يقول الرافعي في نقد صديقه شوقي بعد موته : ومن عيوبه التكرار ، ان له بيتاً يدور في قصائده دوران الحمار في الساقية ...

وقصارى الكلام ان الطريق التي نسلكها لا تؤدي بنا إلى ما نرجو من أدب رفيع ، فإذا ظللنا نجتر ونعلك منبطحين عافطين كالعنز ، فنحن على ما نحن . انه لن يكون لنا أدب عالمي ما لم نفكر مثل العالم . فلندع ما مات من كلام السلف ، ولنفتّش عما يخلفه في ديوان العرب .

بشارة الخوري وامين نخلة
في رثاء احمد شوقي

باسم « البيان والجمال » اللذين لا نهاية لهما نفتتح « معرضنا » هذا . فالادب بضاعة تعرض ، واسواقها القرّاء ، فمنها المستنبط البديع ومنها المزجى والمزيف . وكذلك الادباء ، فمنهم من يؤتى قوة الاستنباط والاختراع فتدهش السوق سلعه ، ومنهم المقلد الذي يتحامل على نفسه ، ويجر قوائمه جراً ليخوض المعمعة ، فيقصر عن بلوغ المحج .

والادب محصول ، فان سميته قمحاً ففيه حب مكتنز وفيه كعابير ، وان سميته ثمراً ففيه الجميل والدميم ، والزكي والكزّ ، وان سميته زهراً ففيه الفاتنة الضحوك التي تتطاول لتتكىء على صدرك ، وفيه التي تقبّل نعلك فتدوسها غير مذموم ولا مليم .

وان تسمّيه حيواناً ففيه الفاره والتنبل ، والحديد والبليد ، فقل سبحان من خلق عباقرة في كل الكائنات ، في عالم الناس والوحش والطير والنبات والجماد . ولكن عطاياه السنيَّة نادرة وسخاءه فلتة ...

اما ان شبهته — أي الادب — بالأوادم فيشتدّ الالتباس عليك ويصعب تميز هذا من ذاك ، فالبشر يتصنعون ويتشبهون ليخفوا دمامتهم ، وهم

كالنمل يسيرون على الدرب المؤدي الى القرية ، ولكن الزمـــان يغربلهم وينخلهم ...

فما اقلَّ حظ المقلدين ، ويا خيبة من لا يزيد على العقد خرزة ، ويا تعس الغزاة الذين لا يعودون بالسبايا البارعات .

يقول الشاعر : مساكين أهل العشق الخ ،امّا أنا فاقول : مساكين دراويش الادب ، فهم لا يبنون غير قُهقور ، ويحسبون انهم يشيّدون اهراماً تتزحلق عليها العوادي وتمضي لسبيلها .

يخلق ملايين كل عام ليس بينهم بارع الجمال ، وتمرّ القرون ولا ترى امةٌ مفرداً يحطم المقاييس الناخرة ويخلق فناً جديداً . إن الأشكال المبتذلة لا تفتن ولا تغري ، وليس من ينقل التصاوير الرائعة عن معجم لاروس كمن يخلقها ، وإن احكم النقل . إن الفن يكره الضرائر ولا يصغي الى ثرثرتهن ، والإبداع ، وحده ، يكتب ، الاسماء في سفر الخلود . فاكثر فينا ايها الفن من أبنائك ، واقصِ عن هيكل جبروتك من لا يفوزون بجزء من لاهوتك .

يقول « المجترّون » ان لغتنا العربية لا تعبّر عن افكارنا ، والتعبير ، مهما سما ، يظل مقصراً عما نريد . هـــذا صدق إن سمعته من مقلدي الأقدمين الذين يعبرّون عن طلوع شمس لبنـــان : بذرّ قرن الغزالة ، ويقولون : أثقل من رضوى ، وصنين قبالة عيونهم . ان من يؤمن بالوحي والالهام ولا ينام ، والكتاب على صدره ، لا يأكل من قلمه خـــبز البقاء . ليس معنى هذا أن نكلف الكتب ما ليس عليها ، فالكتب لا تحيي الموتى ، ولا تحوّل الاحمق عاقلاً ولا البليد ذكياً ، ولكن طبيعة الانسان اذا كان فيهـــا ادنى قبول ، فالكتب تشحذ وتفتق . فليتدبّر العقلاء كلمة قالها عربي منذ الف ومئتي سنة .

اللغة بغلة شموس حرون فلنحتلْ لركوبها والا ّ لبطتنا، فليتأنّ المستعجلون، والكلمة لا تحيا ولا تنطق الا إذا قعدت لزق جارتها . فان أقعــدتها فانت ذاك النابغة ، والا فدع الألفاظ في زرائبها ، ولا تجلب الدبّ الى كرمك.

لم يخلُ قرن من الوف النـّظامين والمنشئين ، والقناطير المقنطرة من دفاترهم المخربشة تملأ الخزائن والرفوف . امّا الكتـّاب والشعراء الذين مــا برحوا في فم الأجيال ، فتعدّهم على اصابعك العشر . ألا فليتعظ الأحياء بالاموات ، وكم في التاريخ من عبر للناس لو يتفكـّرون ...

لم نقل ما قلنا لنقطع رجاء عشاق الأدب ، فهم يعلمون مثلنا ان أداة الادب الخالد قريحة يمدها الذوق والتفكير ، ويجلوها الاطلاع ، وملاكها الابداع ، ومن يتكل على الآلهة مات كموسى في الصحراء ولن يدخــل أرض الميعـــاد . كن مبدعاً ، وسواء عندي أكنت شعلة من السماء او شرارة من جهنم . أبهرني بنورك أو أحرقني بنــارك ، فأنا على الحالين صابر . إنني لا أحب الطعام الفاتر فكن إما بارداً واما سخناً يحرق شفتي ولساني وسقف حنكي . فما أبشع وجوه القرود ، وكم نرثي لهم اذ يقفون مسوخاً بين الجبابرة .

يقولون : لا يعجبه العجب . يا ويلي ! كيف لا يعجبني شيء وأنا اطير به فرحاً واصفق له طرباً متى وجدته ؟ أما ان اكذب على نفسي وعلى الناس ، اما ان أقول للخصيّ : ما أفحلك ! وللقزم : ما أطولك ! وللمكرفح : يا غصن البان يا عمري ! فلساني لا يطاوعني وضحى لمـّتي يضيء لي سبيل الاخلاص للذرية .

فكما يتمنى الأب أن يكون إبنه بارع الجمال وإن كان هو بشعاً ؛ وكما يتمنـّاه نابغة وإن كان هو بهلولاً ، وكما يتمنى مع كل هذا ، وقبل كل ذاك ، أن يكون فيه شيء من ملامحه للإطمئنان .. هكذا نتمنى نحن

لأدبنا العربي .

اظنني في غنى عن يمين الاخلاص ، ولكنني أحلفها لقليلي الايمان :

« أنا ، مارون عبود ، أقسمت وأقسم بحياة مارون عبود ، أعز الناس عندي ، الا اكتب في باب النقد الا ما اعتقده حقاً ، وان اخطأت فأنا غير مسؤول ... » .

فمن شاء فليصدقني ، ومن شاء فليتهمني ، وليعذرني اخواني فمن يحمل رطلاً لا يحمّل قنطاراً .

شوقية بشارة

نشرت جريدة المكشوف الغراء في عددهـا الثمانين قصيدتي الشاعرين بشارة الخوري وأمين نخلة في رثاء الشاعر أحمد شوقي ، ومن كلامها الذي قدّمت به القصيدتين لقرّائها : « ولسنا نقصد من نشر الإثنتين معاً الا خدمة الادب والتاريخ ، تاركين للقراء ان يخرجوا من هذه المقابلة التي هيأتها لهم جريدتهم بالرأي الذي يوحيه اليهم ذوقهم الفني » .

قيل كان أبو نواس يصـلي مع الجماعة فقال الامام : « قل يا ايهـا الكافرون » . فأجاب شاعرنا المتعتع : اللهم لبيك . فـأي بأس علينا لو لبّينا صديقنا الحبيشي ، ونحن من قراء مكشوفه ، مبتدئين بأخطلنا الصغير ؟

لا بد للشاعر من جوّ او محيط — سمّه ما شئت — يسرح فيه حين يعمل قصيدة . أمّا محيط أخينا بشارة في قصيدته هذه ، فكان في السماوات العلى ، بل في السماء السابعة ، التي زارها مار بولس وعاد يخبر المؤمنين عنها . وقد يكون فاقه بشارة اذ بلغ « سدرة المنتهى » فاسمعه يعيّط وينادي :

قف في ربى الخلد واهتف باسم شاعره   فسدرة المنتهى أدنى منـــابره

لقد فصّل بشارة من جلد غيره فوسع ، جعل سدرة المنتهى ، وهي عن يمين العرش ، أدنى منابر الشاعر ، أما منبره الأعلى فهو « كتلك الساعة

التي لا يعلمها أحـــد الا الآب » كما قـال المسيح لتلاميذه عن الموت ، فكونوا متيقـّظين .

لم يحسب بشارة أقل حساب لقوله تعالى : إذ يغشى السدرة ما يغشى . فحشر أحمد شوقي ولم يبال ...

لست أُنكر أنهم يشبّهون الشعراء بالطيور ، وسدرة المنتهى شجرة نبق كما يقول المفسّرون ، فالتشبيه غير غريب . ولكن هذا الجو عال جـداً يخشى فيه على الطيور من الاختناق . فلو جعله ، مثلاً ، مع الرجال الذين يسبحون لله بالغدو والآصال لهان الأمر ، ولكن أنكون كرّمنا الشاعر أو مدحناه إذا لم نطـيّره فوق الكاروبيم والساروفيم ؟

وبعد أن قال بشاره بيته الأول في ذلك الأفق انقضّ فجأة كالعقاب على رفّ حمام ، وخرّ الى ذقنه يقول :

وامسح جبينك بالركن الذي انبلجت أشعة الوحي شعراً من منـــائره

ومـــع أن « شعراً » ليست من الدخيل على الموضوع فقد جاءت نابية وصدمت موسيقى البيت صدمة غير هيّنة . ويرفع الشاعر رأسه بعد هذه الخرّة فيرى :

آ لهة الشعر قامت عن ميامنه وربة النثر قامت عن مياسره

وبكلمة خلق بشارة ربة جديدة للنثر حفظاً للتوازن ، وهكذا رأى أحمد شوقي كما رأى « يوحنا » الحمل المذبوح . واهتزّت الحور لهـذه الرؤيا وقصّت شذوراً من غدائرها لتكون ستائر لعرش شوقي السماوي ... ثم ماذا رأى إبن الانسان ؟ رأى أتراب مريم لاهيات لاعبات « باللاقوط » في خمائله ، ورهط جبريل يحبو في مقاصره ، كالعصافير التي تنتف جناحها وتترك لعبة للاولاد . وتكميلاً للحساب يأتي الملهمون بنو هومير ايضاً ، ولا يتركون سجعاً لطائره . « كذا » .

ويضطرب الملكوت فتتساءل الملائك من هذا ؟ فيقال لهم كما أجاب الفرزدق بالنيابة عن زين العابدين : « هذا الذي » أربع مرات ، فيوفق الشاعر حين لا يحاول عمل المعجزات والعجائب فيقول بيتين من أجود الشعر ، كأنهما صورة ناطقة لشوقي ، واليكهما :

هذا الذي لمس الآلام فابتسمت جراحها ثم ذابت في محاجره
كم في ثغور العذارى من بوارقه وفي جفون اليتامى من مواطره

لم ينزل الشاعر بعد من فوق ، فقد استطيب المناخ ، وقال ايضاً ما يشبه « العجائب السبع الأوَل » ولكن « كم ودت » خفّفت من وهجها الحامي وحرّها الكاوي ، وقد ختمها بقوله :

والزُهْر لو كن ازراراً مفضضة على الذيول الضوافي من مآزره

ان هذه الابيات الاربعة عشر التي قالها شاعر العرب الاكبر ... في السماء السابعة تذكرني كلمة قالها أحمد فارس الشدياق في شعراء الفرح والترح ، منذ تسعين سنة :

« ومن كان قد قرأ بعض الشعر ، وسمع من أهل العلم ، مثلاً ، ان الشعر منقبة سنية تصدى الى اي نظم كان ، فاذا رأى طائراً في الجو نظم فيه قصيدة ، وإذا تزوج احد في بلده نظم فيه تواريخ ، وإذا توفي أحد قال : قد غاض بحر الكرم ، ودكت أركان المعالي ، وذوت رياض الفضائل ، وأفل نجم الهدى ، وخسف بدر المجد ، وكسفت شمس الفضل ، ثم لا يزال يصعد في عاجلة النبي الياس حتى يصل الى الفلك الاثير ، ويعدد جميع ما هنالك من النجوم وينتزع منها كفناً لمرثيه » (كشف المخبا ، ص ١٦٦ .)

قلت : حقاً انها لنبوءة ، ليرحم الله شدياقنا ، فماذا كان يقول لبشاره لو استيقظ على عياطه وصريخه « في ربى الخلد » ، ورآه منتصباً كالناطور فوق شماريخ جبال الجنة ، وقد تعلق كالحرباء باغصان سدرة المنتهى يهزهز

اغصانها ، بل ما تراه كان يفعل به — والشيخ الشدياق ، رحمـــة الله على ترابه ، احرص مـــا يكون على النساء — لو رآه يهاجم الحوريات بجزّه ليقصّ شعورهن الجدولة ويعمل منها ستائر لشوقي ، ثم يأخذ النجوم ليزرّر بهـــا الذيول الضوافي من مآزره ؟ فليت شعري كيف يكون شوقي في هذه القطيفة التي صارت سماء ذات أبراج ، بل كيف يختال فيها ؟ ثم ماذا كان يقول الشدياق لبشاره لو رآه رهط جبريل يحلجون في الجنة وقـــد هيضت أجنحتهم ، وهم يجرونها وراءهم كالمكانس ؟ ! .

لا شك في أنه يرثي له كشاعر عربي لبناني ، ويهدي اليه كشف المخبـــا والفارياق ، ويقف الى جنبه ، ويوشوشه قائلاً : الآب الأزلي مستريح فـــلا تزعجه بهياطك ومياطك ... استح يا ابني ، بأي عين تقابل شعراء الجنة ؟! إياك ثم إياك أن تنظم شعراً قبل أن تقرأ كشف المخبا والفارياق ، ثم يجبر خاطره فيهبه شيئاً من أوسمته بعد ان يعاهده على ان يقول شعراً يطيق احتماله الفهماء ...

وكأني بواحد يسألني : ما قولتك ، لماذا فاجأ بشاره مصر العزيزة بهذه الاعاجيب ؟ الجواب : لا شك ان بشاره سمع أن في مصر سحرة نازلوا موسى الكليم بحضرة فرعون فتغلـّب عليهم بمعونة الرب ، فتوكل بشاره على الله وجاءهم بالكبيرة فوهرهم ، والضربة لمن سبق ... ويعلم بشاره أيضاً أن الجمهور سيّد هذه المواقف ، والجمهور لا يستفزه إلا الخفـــة والأسماء الضخمة فأكثر منها وراح يصرخ فيهم :

شوقي ...سلو الافق هل ثارت عجاجته لمـــا ثوى المتنبي في حفـــائره

أأسب دين القافية ... فالمتنبي المسكين أكلته الذئاب قرب دير العاقول فكيف لا يرضى له بشاره بحفرة واحدة ؟ ! وصاح ايضاً : « شوقي سلوا البحر » ثم « شوقي سلوا الليل » ، ولو سأل أكثر لكان الاستحسان اعظم ، والتصفيق أوفر ، والوسام اكبر .

وتذكر بشاره أن في مصر نهراً جواداً هو النيل فوصفه ووصف نعيمه المقيم ، حتى يكبر المصيبة ويقول :

يا للمصيبة غـــال النهر غائله وغـــار في لهوات من هواجره

الله اكبر !! فهذا الصباح يعبس ، ولم يعد المساء لعوباً في الجزائر ، وذبل الزهر ، وسكتت الطير حتى الاشجار لركود الريح ، عجائب لم نسمع بمثلها يوم صلب المسيح ... نحن نعلم ان الطمي قد يكون قليلاً في مصر بعض السنين ، امّا أن ينشف ماء النهر بالمرّه فهذا لم يحدث حتى على يد موسى البطل ... فوالله لئن كان الشعر سحراً كما يقولون فشاعرنا ساحر بلا شك ، كان الله في عونه ليبيّض وجهنا في كل مناحة كما يبيّض القوّال وجه ضيعته .

ويعظّم الشاعر الخطب بالشاعر فيراه أعظم من الخطب بالنهر « مجري الروح في بلد » فخطب الشاعر يذوي له كون بجملته ... حقق الله احلام الشعراء فهي لا بأس بها ، ولكن يا حبذا ... ولو قوّم الناس الشعراء الندّابين كما يقوّمون انفسهم لكانوا صفوة الخلق وأسعدهم .

أتريد أن اخبرك عن كل المفاجآت في هذه القصيدة ، انها لكثيرة وشاعرنا خفيف نشيط ، فها هو ينتقل الى لبنان بسرعة النور ويقول للناس :

ما للملاعب في لبنان مقفرة وللمناهل عطلاً من حرائره

نعلم أن أهل لبنان متى « حدّوا » لا يدقون الكبّة فتعطّل الاجران ، أما ان يبطلوا الشرب فبدعة ما سمعنا بها إلا من بشاره ... وينتقل إلى طرابلس فيسأل : ما للمآذن في الفيحاء كاسفة الخ ...

وللأصائل والاسحار أثخنها عات من الريح ارهاقاً بحافره

وهنا جعل للريح فرد حافر اكراماً لسواد عيني القافية ، ثم من يدري فقد يكون الريح في الحيوان مثـــل وحيد القرن ... وهل لنا ان نطالب

ابن بطوطة الشعراء بهذه الصغائر ، فقد يكون في حالة « اللاوعي » التي تقول بها مدرسة سعيد عقل ...

وبعد أن قال ما قال في لبنان وطرابلس رجع الى مصر فجعل الحسن والإحسان غريبين يضربان في الارض كشريـد « لامّنه » حتى اعتصما بضفتي النيل . لقد صدق ، فمصر بلد طيب يخرج نباته باذن ربه ، واهلها اجاويد . ولذّ له ان يذكـّر احمد شوقي بشيء كما تفعل الندّابات في المآتم ليعلو الشهيق والتنهّد فذكره ، ولكن بخبر أسود ... فقال :

شوقي ، اتذكر اذ عاليه موعدنا   غنا وما نام دهر عن مقادره
واذ طلعت علينا اصفراً وجلا   كالنجم خلف رقيق من ستائره
ونحن حولك عـكاف على صنم   في الجاهلية ماضي البطش قاهره

أرأيت هذه القوافي المكعومة ؟ ألا ترى هذا الضمير يركض كأعرج يريد اللحاق برفاقه ؟ ثم ألا تقول مثلي من أين جاءت أصنام الجاهلية في القرن العشرين ؟ والأغرب ان يتمّ بشاره البيت الاخير بقوله : ماضي البطش قاهره . فكأنه يجدّ ولا يهزل ، أو كأنه ينظم قبـل الشاعر الجاهلي القائلْ :

أربّ يبول الثعلبان برأسه   لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب !

وبيت الأصنام هذا ، أليس لسيدنا الفرزدق الذي كان يقطع طريـق الادب ويشلح الشعراء ؟ أليس هو القائـل في « جفان » المرحوم جده « دارم » الذي الحقه به احد الخلفاء وحرمه الجائزة :

ترى حولهن المعتفـين كأنهم   على صنم في الجاهلية عكف

أمّا بشاره فأخذ البيت ولم يحسن الاخذ بل بشّعه بـ « ماضي البطش قاهره » التي زادها عليه فجاءت كذنب الطيّارة الثقيل ... وتوسع لغة فقال « عكاف » والوجه ما قاله الفرزدق . وما وقع بشاره في هذه الوحلة

الا لأنه يريد أن يقول لشوقي :

سألتنيه رثاء .. خذه من كبدي لا يؤخذ الشيء الا من مصادره

وإذا كان البيت السابق مأخوذاً من الفرزدق فهذا ايضاً مأخوذ من شوقي نفسه ، اذ يقول في رثاء مصطفى كامل باشا :

وجعلت تسألني الرثاء فهاكه من ادمعي وسرائري وجناني
لولا مغالبة الشجون لخاطري لنظمت فيك يتيمة الازمان
وانا الذي ارثي الشموس اذا هوت فتعود سيرتها الى الدوران

أمـا بشاره فاختصر وقال : خذه من كبدي ، وتواضع ولم يزد على قوله : لا يؤخذ الشيء الا من مصادره ...

وبعد كل هذه الروحات والجيئات يتذكر بشاره أخيراً انه لم يذكر فرعون ، رحمه الله ، فقال في قصائد شوقي : لو عاد فرعون كانت من ذخائره ...

لكن ربك لم يؤثر بها احدا سوى فؤاد عماد الملك ناصره
ارث لفاروق صان الله مهجته وطائركم حكى عن سعد طائره

ارأيت ما اغنى هذين البيتين بالتوريات والأعلام ، والألقاب العتيقة ، والأدعية الحامية الوطيس ؟ فهكذا يقول الشعر من يطلب التصفيق ويرضى بالساعة التي هو فيهـــا . فتعلـّم ، إن كنت تطمع بلقب شاعر العرب ووسام الاستحقاق ...

ونزل بشاره عن المنبر واهتزت الاسلاك البرقية تبشر لبنان بالمعركة الفاصلة ، وحامت الانصار على « الدبّاس » فكانت الجائزة استحقاق بشاره شكر لبنان . ويروي المؤرخون أنه جاء لبنان مليون مصطاف تلك السنة ..

أمّا أمين نخله فقال قصيدته إرضاء لنفسه ، بل : « ليقال فيه غداً وفـّى ابن الخيّر » . وسنقابل بين الاثنتين بعد النظر بقصيدة امين ، فلا

تظن اننا وقفنا هنا . فسر معي على خيرة الشيطان — شيطان الشعراء — فلقـد تعبنا من الصعود والهبوط في قصيدة بشاره التي كان فيها مكرّا مفرّا ، مقبلا مدبراً معاً ...

شوقية أمين

نطلُّ على أمين نخله الشاعر فنشرف على مدينة جديدة لها في النحيت اسلوب خاص، سوف ندرسه مطوّلاً . أما الآن فنعلّق على مدخلها هذا الانذار : المفرق خطر خطر الموت ، ومن لا يتعظ يكن عبرة ...

إن شوقيّة أمين على الراء ايضاً كقصيدة بشاره ، ولكنّها لا تتعثّر بالضمير الذي يتعلق بها تعلق الصبي بأذيال أمه فيمنعها أن تميس وتمشي مشية صاحبة الأعشى ، ولهذا جاءت قصيدة أمين هدّارة كالبحر المعرورف تذكرنا « فتقت لكم ريح الجلاد بعنبر » ولكنّها لا تسمعنا جعجعة الرحى التي تطحن قروناً ... افتتحها أمين على الأرض لا في السماء فقال :

كنا نميل على الربيع الاخضر وعلى العشية والتفاف السمر

ورأى أمين ما رأى في « التفاف السمر » فشاء فكانت « مواسم عبقر » فتمّ له ما أراد دون أن يستصرخ الله وجنوده ، ومـا عنده من حُور وولدان ... المقعد بسيط رحراح :

للحاضرين بساطه وظلاله وحديث ناديه لمن لم يحضر

تصوّر الشاعر قعدة لبنانية لا اكثر ولا اقلّ ، وحسبها أن تحتوي على خير ما ابدعته يد المهندس الاعظم ، لتكون فردوساً ارضياً ترتع فيه قريحة الشاعر . ومجلس كهذا لا يستغني عن ساقٍ فكان « سرّيا »

يسقي الندامى بابريق النبوغ مسلسلا ، وصفه أمين بلغة لبنان التي يعشقها ويحرص على تعابيرهـــا ويلوّن بها شعره ، وأمين عربي هاشمي – كما نبأنا حديثاً الصديق الاستاذ الرياشي في مقدمة الطبعة الثانية لكتابه « نفسيَّة الرسول – » فاسمع إذن ما يقول أمين في ذلك الساقي :

ساقٍ تقبل في الندامى كفّه ويقال حين يخف يا ساقي اؤمرِ

قد تقول يا أخي ، هـل سكر أمين من قدح ليقبّل كفّ الساقي : ويْلي عليك وويـلي منك إن كنت لا تقرأ ما بين السطور ، ولا تفهم الرموز فالخمرة فارضية ، والساقي ربّاني عارف بالله ... وكيفما توجهت ترَ عند أمين إسناداً جديداً او إضافة طريفة او فكراً عفّافاً مقرطقاً فيقول لك مثلاً :

عرك الدنان على اسم كل بليلة في الكرم غبّ الموسم المتفجّر

فكأنَّ الشاعر ابن المعصرة ، أو « ابن مدينـــة » الأخطل يظلّ على مسحاته يتركّل . ثم لا ينسى أمين أن يعلمك آداب الندمان ، ولكنّها ليست كشروط أبي نواس الخمسة فيقول :

شرب الهوى شوقيَّة اقداحه وإذا سقيت فجدبكأسك او ذر

وبعد هذه الذكرى المؤلمة التي وصفها أمين مبتدئاً بـ « كنا » يشتدّ عليه الأسى فيقول :

ذهب الربيـــع ولم يدم من طيبه في الأرض إلا نشقة المتذكر

انشقت معي طيب « نشقة المتذكر » لتعلم خبرة امين بترويج الكلام ، والتشدّد في إحكام الكتاب حتى لا يـــدع باباً او منفذاً للطلاق ؟. وامـــين يحسن « التجسيد » ايضاً – لا بأس إذا تفرنجنا – فيريك الدروب تمشي في موكب موحش ، ويغص في العطفـــات صوت الانهر ، كصوتي ساعة الاختناق من الغيظ في محشر القوافي ... شفى الله الانهر وشفاني من

هذا الداء ...

وهنا يلتقي أمين وبشاره في تعظيم الخَطْب بموت الشاعر فيقول أمين :

موت الربيــع وموت شاعر امة   صنوان في فقد الهناء الاكبر

يشبّه أمين الشاعر بالربيــع ولكلامه صلة بما قبله ، فهو منذ ابتدأ ينظر إلى الربيــع ، والعشية ، والشفق الطري ، والغمام ، والساقي ، والإبريق والدنان ، وكل ما يلزم الطرب من آلة . أمّا بشاره فجــاء « نهره » لزقة فجرف الأخضر واليابس ... ورب قائل : ما يدرينا أن أمين نخله لم يأخذ عن بشاره هذه الصورة إن كانت قصيدته لم تنشر ، كما اذاع المكشوف الاغر ؟ قلت : بلى نشرت ، وأمامي الآن نسخة منها اذاعتها جريــدة الشعب في حينها . وإلا فهل أنا نبي لأنبهك إلى « مواسم عبقر » و « التفاف السمر » ؟ وسأشير الى غيرهما فأعرني انتباهك .

لم يكبّر أمين المصيبة بالشاعر مثل زميله بشاره الذي أذوى له كوناً بجملته .. ولكن جاءنا منه « الهناء الاكبر » أخو الراحــة الكبرى عن شوقي عن ابي تمام . ويقول أمين في البيت الثاني عن الأمة وشاعرها :

يا طالمـــا فاءت إلى أحلامه   وتقلبت في قلبــه المخضوضر

إني أرى « فــاءت » يابسة ، وهي من ألفاظ العقـّاد الشعرية ، كما أكره هذا الجناس في « تقلـّبت في قلبه »، وعسى أن ينظر في هــذا عند الطبعة الثالثة فهو كثير العناية بتهذيب بنيه ، لا يخلـّفهم ويتركهم . أمّا وزن افعوعل الذي استحلاه إبن الأثـير وعشقه أمين وتــيّم كثيرين فقد عمّ حتى خمّ . ويمشي أمين مشية ليّنة في وصف شاعره ، وكرمه الحاتمي ، ودموعه وأحلامــه التي تشفي من جميــع الادواء ، ولا أدري إذا كانت تشفي من الكلـَب أيضاً كدماء ممدوحي المتنبي ...

ولا ينقطع هذا القلم الجميل حتى يبتدىء الثاني بقوله :

خفقت عكاظ اربعين عشيــة وأظنها خفقت مئات الأعصر

لا تظن يا أخي ، فحسب الشعر أن يكون له في كل قطر أخ للعقاد ... لا خوف على الشعر يا أمين ما دامت النساء تحبل وتلد ، فما شوقي إلا شاعر خلت من قبله الشعراء . ان شوقي مات ، امّا النبوغ فحيّ لا يموت . أمّا القباب ورفرف النادي وصدر المنبر التي خصّت بشوقي حياً فألفاظ مرحة لولا « المتبّع » التي جاءت كركبة البعير ، تترحّم على ابن الأثير .

وهنا تأتي نوبة الوصف الصريح لشوقي فيشبّه رقتــه وصبابته بدمع الياقوتة المتقطـرّ ، فيذكـرّنا بقصر ابن المعتز . وسرعان ما ينتقل في البيت الثاني إلى مطبخ إبن الرومي فيقول :

يتفقأ الرمان من لفظاته فهي النديَّة في الغليل الاحمر

كانت « الفاظه » في الطبعة الأولى فبدَّلها فتحرَّكت . امّا « النديَّة في الغليل الاحمر » فطريفة رائعة تشفع بيتفقأ التي تفقأ العين . وعندي ان الفكرة مبتذلة ومـــا هنا محلّها ، وإن وصف أمين حبّ الرمان خير الوصف وأصدقه .

ونتتقل من تفقية الرمان إلى « الحبرة » فنعجب بنسج « منواله غزل الشعاع النـّير » ثم ننسى الحبرة ونسير مستعجلين في موكب الأشعَـــة إذ نرى :

ديباجة كالصحو تلمع زرقـــة وبها مشابه من سحاب ممطر
الاذن في تلك القوافي ترتمي والعين تسبح فوق تلك الابحر

ارأيت كيف يوصف الديباج البراقشي — شانجان ؟!.. ويصف لنـــا أمين حــدة ذهن شوقي فيأتي بصورة تنبض الحياة في كل عرق منها إذ يقول :

شوقي وأية حدة في ذهنــه ابداً تلملم شيمــة المتحذر

كالعين تأخذها المشاهد بغتة فترد اخذتها بدورة محجر

إن الشاعر يحتاج أولاً إلى عينين بصيرتين ، سلمت عيناك يا أمين !

وينتقل إلى وصف سرعة الخاطر فيقول بيتين جيدين لولا العجز الأخير في قوله :

خفت بعارضة الضياء قريحة عن نقلة الخطفات لم تتأخر

إن بيتك هذا متأخر عن إخوانه ، ناهيك بما في الفاظه من جفاء ، متفرقة ومجتمعة ، فابحث عن السبب فهو في الحنجرة .

ويقول بيتاً ثالثاً يصور به تزاحم الخواطر عند الشاعر الملهم :

فكأن لفظته تقول لاختها في زحمة الخطرات يا أخت اعذري

إنه لتجسيد تام وتصوير نابض لا عيب فيه الَّا زحمة الخاءات . ولو قال اصبري لكانت لبنانية أكثر ، وأخاله آثر اعذري لأنها ترادف « معليش » المصرية . تذكرني فكرة أمين الجميلة بما كنت اقرأه مكتوباً فوق رأس مار افرام السرياني « كلي موران موهبتخ » ترجمتها : ردّ يا رب عنّي نعمتك . وكذلك الشعراء الملهمون في ساعة الرضا والتوفيق ، ولا يصف الشاعر إلا الشاعر .

ويتمادى أمين في وصف صاحبه فيصف رقة حسه ويرينا ان أكف الوهم تصدع حسه . وهنا نبلغ بيتاً حذفه أمين من طبعة المكشوف ، اذكره لأثبت لك ايضاً ان قصيدة امين طبعت في حينها ، وانه لم ينظم بعده غيره ، وأخيراً ، وهو الأهم ، لأدلّك على أن شاعرنا ينظم للفن ، وهو جزار لا يشفق على نعاجه ، فما حمله على حذف :

شوقي الشعاع فكيفما قلبته وادرت عينك مبهر في مبهر

الَّا قافيته الملعونة التي تسود وجه الفن ؟.. ثم ينتقل الى وصف شوقي جسدياً فيعرّفنا به ويقول في جسمه الصغير :

ملأ الفضاء كحبة من عنبر ...

ثم يذكر قلة حديثه ويرسم لنا صورة شوقي المفكر الفهيم ببيت هو اخو البيتين اللذين اطريتهما كثيراً ، وهما في العين ايضاً كهذا :

او ليس حسب العين من لحظاته في الفهم رأرأة كجهد معبر

فهلّا تتأمل المعبر مرة ، وتخبرني عما ترى ؟ لا تبعدك رأرأة عن هذا البيت فلا يسدَّ مسدّها غيرها . ويمعن أمين في الوصف فيقول في عين شوقي ومشيته :

رقيت الى عينيـه زهوة نفسه فهما بهـا في حيرة المتحيـر
يمشي فيخطف خطوتين كسالك في العـاج أو متعثر في المرمر
جلّت وداعته وجلّ وقاره عن ان يهمّ بخطوة المتبختر
لكنا الاعصاب وهي كليلة من فرط مس الوحي في متعذر

ولو أراح امين بيته من « رقيت » لسرح وكان صداه أبعد . قد رسم خليل مطران ناحية الزهو في شوقي فقال :

فلكلِّ لفـظ رونق متجدد ولكل قافيـة جديد رواء
يجلى الجمال بها كأبدع ما انجلت صور حسان في حسان مرائي
ولربما راع الحقيقة رسمهـا فيه فما اعتصمت من الخيـلاء

أرأيت كيف يصور الشعراء المفكرون ؟ لا تبال باضطراب عجز البيت الثاني ، فكثيراً ما يعجز الشاعر عن إخضاع الكلام إذا تمرّد . وإذا رأيت المطران يخرفش في هذه الايام فلا تنس انه حصّاد شهير ترك المنجل ، وهذه سنّة شرقية ...

ويختم أمين قصيدته بتجديد العهود والمواثيق فيقول :

تلك الأبوة في البيـان أصونها ليقال فيك غـداً وفي ابن الخير
لي منك فخر الدرب إذ يممتها ومشيت ألهث في غبـار مغبر

أما أنا فأخاف جداً من الغبار خصوصاً إذا كان مغبراً ... وأتمنى أن يظل أمين سائراً في دربه وكل من سار على الدرب وصل ... ويذكر أمين صلته بشوقي وكيف انقضت ، صبر الله قلبه ، وعمّره كنسر حيقار ...

وبعد ، فقصيدة أمين نخله هي لشوقي بعينه ، ولا تصلح إلا له . أما قصيدة بشاره فلشوقي منها الاسم ، وهي تصلح ايضاً لحافظ واسمعيل صبري والبارودي والحليم دموس بعد عمر طويل ...

محيط أمين في قصيدته محيط شعري بسيط جداً ، تسمع وصفه ولا يطر ّ عقلك ، ومحيط بشاره أشبه بمحيط ألف ليلة وليلة وكأن في يد صاحبه عصا موسى أو خاتم لبيك .

قصيدة بشاره مفككة تمشي على غير هدى ، وقصيدة أمين كالسلسلة المحبوكة ، لا قفز ولا نط ، ولا انتقال ، ولا مفاجآت ، ولا غرائب ولا عجائب ، لا رعـــود ولا بروق ولا عواصف كساعة تجلّي المسيح على طور طابور .

قصيدة أمين ذات لون محلي تدل على شاعر بعينه ، وقصيدة بشاره لا تدل على شيء من هذا ، ولو خلطناها بعشرين قصيدة من شعراء العرب الأولين والآخرين منهم لما عرفنا أن قائلها من أبناء القرن العشرين .

نظم بشاره مفكراً بالنظارة وهمّه التصفيق لا الفن ، ونظم أمين وعينه في الفنـانين ، وما عناه غير ذلك .

قافية بشاره متعتعة كالسيّدات المترهّلات اللابسات الفساتين المذنّبة ، وهذا الضمير الذي علّقه بها يجبر القارىء على الطحير ، وقافية أمين خفيفة رشيقة كالسيّدات المتروّضات ...

كأني بأمين قد قرأ كلمة ابن الأثير القائل : من شاء أن يخلق عالماً من الكلام فليأت به على صور الاناسي والاثام ، ففعل . أمّا بشاره ،

فجعل مسرحه الجنـّة ، فهزّ العرش وفزّع سكان السماء . نعم إن فيكتور هيغو حرّك آلهة الفن ووصف فرحها باستقبال صديقه تيوفيل غوتيه ، ولكنـّه قال ما لا يقال الّا في غوتيه صاحب بدعة « الفن للفن » وهو في كل حال لم يجعل الفرحة غير معقولة ، كما فعل بشاره .

قصيدة أمين كباطية النبيذ جيّدها في وسطها وهي « كلّ » ، أمّا قصيدة بشاره فخطرات افكار مبتذلة وتعابير الفناها ، بخلاف قصيدة أمين ذات الصور الجديدة ، والتعابير التي تدل على جهد وعنـاء ، وتعب كثير في تأليف الكلام وترويجه .

حاشية — لا يظـنّن الكتـّاب ان كلمة الترويج » في البيان إفرنجية ، فقد فطن إلى ذلك ابن الاثير ، وفي ظنـّي أن أمين نخله قرأ إبن الأثير مرّات ، وما أحوجنا الى من يقرأه .

قابل إذا شئت فالقصيدتان أمامك ، انظر ماذا قال امين وكيف يقول بشاره : هذا هوى الشرق هذا ضوء ناظره ، يعـني : يا نور عيني . وقس على هذا ان شئت تعلم ان للفن اللفظي عند امين شأناً عظيماً ، حتى يميز بين « الفاظه » و « لفظاته » ويستغني عن « مبهر في مبهر » ، و « شوقي الشعاع » ، وهذا ما نطلبه من بشاره الخوري الذي لا ننكر شاعريته ، ولكننا نسأله ان يتغرّب ، ففي الأسفار أكثر من خمس فوائد ...

قلت سابقاً ان قصيدة امين « كلّ » تصعب تجزئته ، اما قصيدة بشاره فاليك لائحة بها :

٠٠٦ ابيات في وصف شوقي بالجنة
٠٠٥ ابيات سؤال الملائكة عنه وتعريفهم به
٠٠٢ للقارىء عن تمنيات جنة الخلد
٠٠٤ ابيات صريخ وعياط

٠١٢ بيتاً عن النهر الذي اكله الغول
٠٠٦ ابيات عن حزن لبنان وطرابلس
٠٠٥ أبيات عن غرام مصر والخواجه لبنان
٠٠٦ أبيات عن اصطدام سيارة شوقي
٠٠٤ أبيات عن فرعون والملك فؤاد وفاروق

٥٠ أليكون خمسون بيتاً فقط لا غير ، عدا السهو والغلط .

أما قصيدة أمين فعدتها ٤٤ بيتاً ، موضوعها شوقي وما يتصل بـه وبفنـه ، فلا أهرام ولا فرعون ولا عشق ولا غرام بين الأقطار .

لا يحرد بشاره إذا فضلنا أمين نخله عليه ، فقد نقابل بينهما في وقعة أُخرى — بالفرح ان شاء الله — فتكون له الغلبة ان شدّ حيله وقابلنا بغير هذا الوجه الشعري ، فما هذا وجه من يعيش .

وأخيراً أتمنـى أن أكون مخطئاً ويظل بشاره على كرسي مجده تعطيه الطوبى جميع الاجيال كستنا مريم رزقنـا الله شفاعتها ورضى أخينا بشاره العزيز الغالي .

أمين نخله
في دفتر الغزل

أمين نخله شاعر كبير وكاتب أكبر ، ومع ذلك يعتمد كثيراً على الدعاية في ترويج بضاعته ، فهو وسعيد عقل في هذا اخوان ، كلاهما يفوق الاميركان في الإعلان . فإذا صحّ وجود برج عاجي للشعراء والادباء ، فلا شك ان ذاك البرج في بيت أمين ومكتب أمين ، بل في كل مكان تطأه رجل أمين ، إذ لا بدّ لهذا القمر من هالة حيث يطلع .

وهذا هو أمين يرسل في السوق ديواناً سماه « دفتر الغزل » كما سمّى الجاحظ من قبل دفتر المعلّمين ، والغزل شيخ السفرة في أدبنا العربي ، أو « الهوردفر » بلغة العصر . فأي شاعر ما تغزّل ؟ كلهم قالوا الغزل . ولماذا لا ؟ فهذه التوراة ، وهي كتاب مقدس ، فيها مأدبة غزل أشبعت الذرّية ولا تزال . فسليمان الحكيم يصف حبيبته الشولمية من عينيها الى سرّتها ، ولا ينسى دوائر فخذيها وما بينهما من صبرة حنطة يسيّجها السوسن ... اللهم نجنا من أكل الدجاج والوقوع في السياج ...

الغزل نغة الحب ، وداود أبو سليمان يرثي يوناثان في أول فصل من سفر الملوك الثاني فيقول، وكأنه ينسب ويتغزل : قد ضاق ذرعي عليك يا أخي

يوناثان . لقد كنت شهياً الي جداً وكان حبّك أولى من حب النساء ، وقد احببتك حب أم لابنها الوحيد ...

أجل لقد بشمت ثعالب البشريّة وما فنيت العناقيد . ولا بدع ، فالحب ملاك الحياة . وجد لحفظ النوع فهو لا يفنى إلا بفناء هذا الكون ، وهو إذا شاخ مع الفرد فإن نواته لا تموت ابداً .

وبعد فلنؤد حساباً عن كلمة سبقت ، أي عن الدعاية عنـــد أمين الشاعر الطيّب المبـــدع . صدّر امين « دفتر الغزل » بدعاوتين ، واحدة عربية والاخرى يونانية ، فكأنه أراد الشهادة فيه شرقية غربية .

قال بولس الرسول : على فم شاهدين أو ثلاثـة تقوم كل كلمة ، كما قلت سابقاً . وهذا بابا دي ياناقوس يوناني كار بولس . فلا شك أن شهادته مقبولة ، وكذلك أحمد شوقي ، فهو ، كما يزعم ، عربي تركي يوناني شركسي بجدّه لأبيه وأمير شعراء ، فهو مقبول الشهادة ايضاً . ناهيك أن أمين نخله هو كالمسيح أو أعظم ، وسيأتيك الخبر .

قال المسيح : انا اشهد لنفسي وابي الذي في السماء يشهد لي . إذن ، اجتمع لدينا أربـع شهادات ، ولم يبق علينا إلا أن نبدأ المحاكمة .

نودي على الشاهد الأول شوقي ، وبسبب غيابه غيبة لا رجعة بعدها ، نظر فيما كتب :

هذا وليّ لعهدي   وقيّم الشعر بعدي

ترى من قال لشوقي أننا نعترف بولايته حتى ينصّب وليّ عهـــد ؟ فكل شيء يورث إلَّا العـلم . ومتى كان الشعر وقف ذرية حتى نجعل له قيّماً ؟ فليت الصديق أمينــاً الذي لا أشك في امانته الأدبية خبّأ هذه الوريقة الشوقية وحفظها للعزيز سعيد ، حرسه الله ، مع ما يحفظ من وثائق ... إنها لا تحله في أعيننا محلاً أرفع ممـــا له عندنا ، وهي من

جهة أخرى تدل على قلة كياسة شوقي التي عبر عنها في هذا البيت التالي :

فكل من قال شعراً في الناس عبد لعبدي

هذا كلام رجل لا اجد له نعتاً ، والأشبه ان العمر هو الذي انطق احمد شوقي ، في غير ساعة رضا ، بهذا الهذيان والهذر .

أصدق شوقي أنه أمـــير والشعراء عبيد ، حتى يكونوا جميعاً عبيد عبده ؟ انا لا أشك بأمانة أمين ، كما قلت ، ولذلك كلت اللـــوم للشاعر المجنون الذي اطراه الشعراء وعظموه وامّروه حتى تعنفص وتفايش ..

وفي ثالث بيت يقول شوقي ايضاً :

كأن شعر امـين من نفح بان ورند

قلت : لا شك ان شعر امين ذكي الرائحة له طعم غير طعم الشعر ... ولكن اختلاف الطعوم ليس حكماً بالأولية والأسبقية وولاية العهد . ان مصر ، بـلد الشاعر شوقي ، نفت الملك وولاية عهده ، بينما نرى شاعرنا الامين يريد بسط جناح ملكه على العالم العربي بكلمة شوقي ...

ويقول شوقي ايضاً :

او من عناق التصابي وقرع خـد بخـد
او من حديث ابن هاني يعيـد فيـه ويبدي

يظهر ان هذا البيت الأخير هو الذي أوحى الى امين بقصيدة « ام موسى » ليعيد فيها ويبدي كأبي نواس ، ويكون عند ظن شوقي فيه . وسننظر في هذه القصيدة حين نصل اليها ، لنريك ان الظرف طبع لا تطبّع .

ويختم شوقي قوله بقوله :

والعصر عصر (امين) خير ومطلع سعد

وهذه ايضاً ثخينة يا امين ! اعرفك رجل دعاية ، ولكن ما كنت

احسب انك تشتط بهذا المقدار .

واذا قلبنا الورقة من هـذا الدفتر – دفتر الغزل – وقعت عيننـا على قصيدة يونانية للاستاذ بابا دي ياناقوس .

جاد امـين على بابا دي ياناقوس بلقب شاعر اليونان ، ولا اعرف اليونانية لأرى مـا خلع شاعر اليونان هذا على امين من القاب . لا بـد وان اميناً هزّ بجـذع النخلة حتى تساقط رطباً جنياً والا لما ذاق هذا « القرط » من ثمارها ...

حقاً انها مصيبة ، فأنا لا أعرف اليونانية ، ولا وصول لي الى الدكتور طه حسين ليترجم لي هذه الابيات . أما تلقيب بابا ياناقوس بشاعر اليونان فأظنه مثل تلقيب ذاك التاجر ابا الفتح بصاحب الدولة ، في مضيرية بديع الزمان . ولكني اعتقد في كل حال ان هذا الشاعر اليوناني يحترم نفسه ولا ينزل في « المغطس » الذي تنعم فيه شوقي وانعم ...

يظهر ان أمين يفهم اليونانية ولكنه تواضعاً لم يترجم لنا ابيات ياناقوس ... وإلّا لما قال في المقدمة في وصف غزل الشاعر اليوناني : « ولا رقة في الغزل وراءه » .

أما شوقي فكان حظه ضئيلاً جداً من مقدمة أمين ، مع انه جعله ملكاً على الشعراء بعده . ويختم أمين مقدمته الحلوة الطريفة بهذه العبارة :

« وهكذا فانه اجتمع لهذا الكتاب ، بفضل منك ، وفضل من صاحبك – اي بابا وشوقي – ما لم يجتمع لكتاب : يد يونانية فوق يد عربية » .

قال المسيح : « من منكم إذا اهتم يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً ؟ » وانا أقول لصديقي أمين : لو قام هوميروس وفرجيل ، واعاظم شعراء الدنيا ، وكتبوا ما كتبه لك شوقي لما زادوا على قامة شعرك قيراطاً واحداً . انت شاعر مجيد ، ولكن هذه البراءات هي كالتي عندي وعند ابيك ، لا تنفع شيئاً

متى وقفت في محكمة التاريخ حافياً عرياناً مجرّداً من كل مجد باطل .

اما الآن فلنمر مرة عجلى في ديوان الاستاذ ، عفواً ، في دفتر غزله ، وان اشبه افعال المقاربة في التسمية ..

ان شاعرنا الامين لشاعر محكك ، وربما ظل يفتش عن كلمة من الحول الى الحول . هو كاهن فن ، مولع بالكلمات فيعقد بينها برباط مقدس فيكون زواجاً مباركاً لا يعقبه طلاق . وله ميل يشبه الهوس بكلمات دون غيرها ، وكثيراً ما يقعدها غصباً عن رقبتها في المكان الذي يريده لها . لقد انبأنا في آخر دفتره هذا ان ليس من عادته أن يرسل الشعر كما يجيء ، ولهذا نرى معظم قصائده قصيرة النفس محكمة النسج . اظن ان ارستقراطية الاستاذ لا ترخص له بترقيق حواشي العبارة ، واللجوء الى الصور التي يتطلبها الغزل ، ليفهم عنه الحبيب . فهو يهبط في غزله من عل ، فلا تظهر الحرقة فيه كما تظهر ، مثلاً ، في شعر بشاره الخوري . انه لا يخاطب من العلّيقى كرب موسى ، بل يؤثر الطور ... يطوف في الاثير ، حتى يموج هواه في آه المغنّي . واذا المسيح مشى على الماء ، فأمين يمشي مع الصوت ، ولكن ببطء السلحفاة ، وهذه معجزة اعظم .

قال البهاء زهير لأحبابه :

فلو صدق الحب الذي تدعونه . واخلصتم فيه مشيتم على الماء

الا تراه لو كان في « عصر امين » الذي بشر به شوقي ، كان قال ، كما قال امين :

ففي النغم العميق اليك امشي واسلك جانب الوتر المرِنّ

ان قصيدة « الحبيب الاول » هذه تستحق الجلوس حيث احلها امين على الرحب والسعة ، في صدر الدفتر ، وان كنت ارى قصيدة « العقد الطويل » اقرب منها الى الشعر المطبوع . والغزل ، حتى يبلغ قرارة النفس ، يجب ان

يكون ألين من شعر امين . فأمين، مثلاً، يرى حبه وحب حبيبه نعيماً، بينما يراه بشاره الخوري ناراً آكلة .

فحرقنا نفوسنا في جحيم من القبل

يظهر ان بشاره من اصحاب « ابجد هوز حطي » ... امـــا امين فيحوم ويحوم ، ومن صبر نال ومن لج كفر .

ولعل قصيدة « العقد الطويل » و « القصيدة السوداء »،وان كانت صاحبتها جنة ماشية لا معلقة ، هما في نظري خير من قصيدة الحبيب الأول التي تصلـح اكثر منها للانشاد والغناء .

اما في قصيدة « الاشرفية » ، فلأجل كلمة « اختها » التي ارادها امين قافية رأيته يحط من قدر الجمال حين فضّل نكهة العنب عليه فقال :

ذقت الثمار ونكهـة ان لم تكن هي نكهة العنب الشهي فأختها

وبعد ، فمن يدري ؟ فلعل امين نخـله عنـّاب ، او انه يغمز ابن الفارض من بعيد ..

واذا بلغنا « بئر السامرية » وضعنا عصيّ الحاضر المتخّم كما قـــال زهير . ان الآبار واحات ، ولعل سامرية امين احدى واحات ديوانـــه ، بل واحة الشعر الحديث . ومع ذلك لا بد من قول شيء لتعود حليمة الى عادتها القديمة . استهل امين هذه القصيدة بقوله :

شرب المسيح فما لها لا تشرب والبئر سقسقة ومـــاء طيب

أتتعجب يا اخي كيف لم تشرب ؟ يظهر ان بنت الحلال لم تكن عطشانة .. الماء ليس خمراً ولا عرقاً ليتعاطياه على خرزة تلك البئر . اما قدم لهـــا المسيح ماء لا يعطش من يشرب منه ؟ يقول المثل عندنا : الماء لا يمر على عطشان ، وصاحبتنا السامرية جرتها على كتفها ... فلو كانت عطشانة لشربت .. امـــا البئر فيظهر انك لم ترها . انها عميقة جداً ، لا « سقسقة » فيها . عندمـــا

اراد الكاهن القيّم على ذلك المكان ان يرينا عمق بئر يعقوب ، أضاء شموعاً وأسقطها الى جمام الماء .

وبعد ،فلماذا استحليت ، يا امين ، كلمة سقسقة ؟ العهد بك لغوي من الطراز العالي . كيف لم تشك بفصاحتها حين احللتها المحل الارفع ، اي مطلع قصيدتك ؟ رأيتك تقول في تمحل العذر لكلمة « شلال » : ولا حرج في ان يقال شلّ السير او النهر ماءه فهو شلال ، وان لم يرد في متن اللغة . فان العرب تقول : شلت العين دمعها — ارسلته — والعربية كما لا يخفى يقع فيها النقل لأدنى ملابسة .

طيب . فماذا تقول في سقسقة ؟ فاذا كنت تعني سقسقة نهر البـاروك وغيره ، كما تقول العامة ، فبئر ابينا يعقوب ، كما قلت لك ، ليس بنبع خرار ولا جدول ثرثار . واذا كنت تعني غير ذلك فيا ليت شعري ما هو ؟ ... فهذا الحرف سقّ ، وسفسق ، وسقسق لا يعني ، أجلك الله ، إلا ذرق الطير ، ولذلك قالت العرب : هذا كلام يُذرق عليه .

وهنا اسمح لي ان انتقل الى لفظة ثانية من هذه البضاعة ، وهي قولك :

انا في رحاب السامرية واقف ظمآن باسم الناصري أتبتب

فتبّ الرجل معناها شاخ . ولولا قلت : اطبطب كان لنا مخرج منها ومعتصر ، كما قال الاخطل الكبير . فمعنى طبطب اليعقوب صوّتَ . ولعلك بهذا تكون قد دنوت من العوام اكثر ، وهم فصحاء غالباً .

عفوك اذا ذكرت هاتين الهفوتين فقط فانت قلت في هذه القصيدة :

خلع اخضرارك آيتين على فمي فتصفحي الانجيل هل هو مخصب
استغفر الانجيل ان قصيدتي عربية كالشمس وهو معرب

ان شمسك يا امين فيها كلف كثير ، أبعد الله عنا نهاية العالم ... وهذا الابتهار يدل على ما هو اكبر من الغرور . أتجر سلاحك يا صاحبي على الشاعر

المفرد ؟ على المسيح وانجيـــله ؟ .. لقد ازعجتم الانجيل والتوراة باستمداد كم مواضيعكم منها . وهذه موضة قديمة . ترى هل اجدبت الحياة ؟

ويقول امين في وصف السامرية : النبت يطلع حيث تنقل خطوها .

لعل هذه الفكرة شكسبيرية ، ولكن الزجال البعلبكي قال في هذا مـــا هو اجمل من قول شكسبير وامين ، قال على وزن « ابو الزلف » :

من فوق عالي التـلوج من فوق عالي التلوج

واخضر عشب الجبل هالداستو خدوج

وبعد كل ما قلنا ، تظل سامرية امين قصيدة غراء على مـــا فيها من كلف ، لا يضيرها التعريب الذي ضار الانجيل ... انها عقلية عتيقة ، وربمـا كان امين متأثراً هنا بهاشميته ... لا ادري كيف هذا الزعم . واذا كان في البيان غـــير العربي شَين ، فلماذا جعل امين قصيدة ياناقوس اليونانية لديوانه خرزة عين ؟..

فلنمش . وكما نظم ابو امين ، رحمه الله ، قصيدة ام القميص الزهر ، كذلك نظم امين قصيدة لأم القميص الازرق ، ولكنه قصر في شعره جـــداً جداً عن زجل ابيه .

اظن ان ما سبق من غزل امين يكفينا ، فقصيدة « ام موسى » تنتظرنا ، ولكن قبل ان بلغناها لفتت نظرنا قصيدة « تذكار » فذكرني فيها قول امين :

يا من رآني وأبي مـــرة هذا أخي في جانبي بل أخيّ

يقول شوقي في أبيه أيضاً :

وتمشيت يـــدي في يـده من رآنا قـال عنـــا أخوين

إن من حق ولي العهد أن يتصرّف بالتركة ، ولكن قصيدة أمين — خلا هذا البيت — خير من قصيدة شوقي التي اسفّ فيها حين أراد أن يتصوّف ، فوقع الحافر على الحافر ...

وفي أثناء مرورنا ، قبل بلوغنـــا قصيدة أم موسى ، نقرأ اخوانيـــات

وخصوصيات يبدع فيها أمين ، وخصوصاً حين يصف الغنـاء ومجالسه وذويه . أما في قصيدة أم موسى فما أراه عمـل شيئاً بالقياس إلى أبي نواس ، فاسمع كيف يقول :

يا رب خمارة في ظاهر البـلد أيقظتها ، وجواد الصبح لم يفد
قالت:من الطارق الملهوف قلت لها بل فتية المرح المختـال والصيد

وكل هذه القصيدة منسوجة على ذاك النـول الذي تكسر بعد النواسي ، ولكن شوقي قال لأمين في ذلك الفرمان :

أو من حديث ابن هاني يعيـد فيـه ويبـدي

فصدّق أمين ، كما صدّق شوقي من قبل ، انه بزّ أبا نواس. إن هذه القصيدة مطبوعة على غرار مضى وقته ، وفيها يريد أمين ان يكون له ظرف ابن هاني ، ولكن من أين له ولغيره ذلك ؟

وبعد هذا كله يطلع علينا شيء مما قيل في أمين ومـاذا أجاب أمين : لكل خطاب يا بثين جواب . حكّ لي أحك لك ...

وأخيراً نقول ، ونحن في صدد الغزل ، ليس الغزل في معـانيه الطريفة ، ولا في لغته اليابسة . الغزل ملاكه عاطفة متقدة يسعرها الحرمان ، ويذكيها التحرق ويعبر عنها بكلام بسّام غير جهم . وهنـا لا بأس علينا من سرد نكتة توافق المقام :

كان في كسروان شاعر مفلق يحفظ الكثير من شوارد اللغـة وأوابدها . واذا استعرنا له نعت امرىء القيس لحصانه : قيد الأوابد ، لا نكون بعيدين عن حقيقة حاله . كان هذا الشاعر يحمل كل يوم قصيدة غزليـة ينشدها للشيخ رشيد الخازن . وكان الشيخ يسمعها له ، وكان كلما انتهى من تلاوة قـال للشيخ : كيف رأيت ؟

فيجيبه الشيخ بتلك البساطة التي عرفت عنه : عال . سلّم بوزك .

وأطال الشاعر زياراته حتى صار يصبّح الشيخ بقصيدة ويمسّيه بأخرى ، ثم يسأله كيف ؟..

وأخيراً قال له الشيخ بلهجته المشهورة : بدّك مـني الصحيح يمّا ابن عمو ؟ هالمرة الجواب منـّوش عالكيف . سماع يا معـلم بولس . كل شعرك حكي ما منـُّو نتيجة . بتعرف كيف تغزلت أنا مرّة ؟

فقال الشاعر : سعادة الشيخ أعلم . تفضل .

فقال الشيخ : قلت لواحدة مثل التي أخذت عقلك :

عيونك سود وخدك وردي   في شي والا منمشي ؟

وهكذا انتهى كل شيء ، وصار الحب يحكي عنا ...

إن المتنبي الذي تغزل حتى شبع ، وأبدع في معانيه كثيراً ، لم يعد أحد يذكر شيئاً ممـا قاله . وكأنه أدرك ان الغزل الذي تصدر به القصائد بعيد عن الصدق ، فقال :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم   أكل فصيح قال شعراً متيّم ؟

لا يا أبا الطيب ، ان عصرنا هذا قد استقل فيـه الغزل ، ولشعرائنا فيه جولات حسان ، وأمين نخله أبدع فيه وأجاد ، ولكن فصاحة بشاره الخوري ضاحكة وفصاحة أمين عابسة .

إن كل عمل فني هو مخـاطرة . وآخراً نقول : لولا سخف شوقي وطمع أمين في الولاية ، لظل لهذا الديوان ابّهته ووقـاره، ولكن الطمع ، كما قالوا ، ضرّ وما نفع .

يوسف غصوب

في قفصه وعوسجته وقارورته

غفا الأدب العربي بعد بديع الزمان إغفاءة خرساء لم يتخلّلها حلم، ولولا فارياق الشدياق لم يكن لنا أثر عربي في تلك القطعة من الزمان. ثم كان عصر المقالة والرواية فبرز كتّاب طواهم الدهر مع آثارهم، فأفاق ادبنا المريض من غيبوبته. ولاح جبران فكان فجراً بهيّاً لنهار جميل في قصصه ومقالاته. وكان للأدب العربي عهد جديد.

كان للنهضة الحديثة روّاد قبل جبران، أولهم ذلك الاعمى المفتح القلب فرنسيس فتح الله مرّاش. ثم تنفّس في القاهرة أحمد شوقي فقال: خدعوها بقولهم حسناء. فدارت على السنتنا في ذلك الزمان حتى ضجت جدران مدرسة الحكمة من عقيرة الشيخ رشيد تقي الدين الذي كان يردّدها بصوته العريض.

وارتفع في لبنان صوتان: شبلي الملاط في شعره القصصي، ونقولا فياض في خطبه التي كان يقدّم لها بشيء من شعره الحديث كقوله في القلب البشري: «حيّر الناس فقالوا عصبي». اضف الى هؤلاء خليل مطران الذي تأثر بالفرنجة، وعمل الشعر على طرازهم. ولكن كل هؤلاء:

شوقي ومطران وفيـاض وشبلي ، أمسكوا بطرفي الحبل فـلم يخرجوا من صيرة القدماء إلا ليقفوا قدام الباب هنيهة ، ثم عادوا الى ما وراء السياج ، إلا الدكتور فياض فكانت له مؤخراً انتفاضة من باب رجوع الشيخ إلى صباه ...

امّا في النثر فكان الريحاني في طليعـة الروّاد بكتبه وفصوله ، يجمع بين الفلسفة والشعر ، يقدم « بذوراً للمزارعين » ويسأل ربة الوادي ان تداويه وتشفيه ... احدث كتابه « المحالفة الثلاثية » صدى بعيداً اكثر من لاعنيــه ومريديه . ثم جاء جبران يتمرّد على القديم ، والف بجمعه — الرابطة القلمية — فالتف حوله الشاعر والناثر ، فأفلحت مدرسته في النثر اكثر منهـا في الشعر . تفنّنوا في الاغراض وترفـّعوا عن المديح الذي كان يتلهى بـه الشعراء عندنا ، واقتفوا اثر الاندلسيين محررين ادبهم من قيود القافية فنـّيروا شعرهم واسدوه ، بخلاف غيرهم ، وان حاكوا على النول القديم . فكان لهم اتباع ومقلدون في الشرق ، فعـافوا نقنقتهم وحاولوا ان يقولوا شعراً .

وكتب جبران في النثر صفحات لا قرابة بينها وبـين القديم ، واذا صنـّفنا الشعر العربي قديمـه وحديثه كان نثر جبران اول بابة ، فهو ابو المدرسة الشعرية الحديثة التي نسمّيها اليوم رمزية .

فالاتجاه الجديد المستقل استقلالاً تاجزاً في أدبنا أبواه الريحاني وجبران . أمّا الريحاني فاتجه في صوب جديـد . صار ابن بطوطة جديد يدرس الاقطار والاقاليم العربية ويصورها في اللغتين الانكليزية والعربية .

أمّا جبران فركب رأسه وطمح الى ابعد ما يطمح اليه الناس ، طمح الى الذي امسى لا شيء عند الريحاني فظل يكتب للناس اجمعين لا لفئة خاصة منهم ، فكان اثره ابعد لأنه خاطب النفس .

أمّا فيلسوفنا الريحاني فملّ التدروش في زمن المـــادة فالقى الكوز والكشكول وألوى على العقل يسوطـه بقسوة ليخلق من الشرقي رجـلاً غير هـلاميّ . خاطبه بلغة الحساب متنازلاً لجبران عن نبرات اشعيـــا واهتزازات ارميا واحلام دانيال .

ونبت مخائيل نعيمـه على جذع جبران فكان سكرتير العميد . قـال شعراً وكتب في النـثر صفحات باقية — « الجندي المجهول » — حتى اذا انطوت صفحة صفيّه نشر مخـــائيل تفاسيره وتعاليقه في زاد المعاد على فلسفة صاحبـــه وانزوى اليوم في بسكنتا كتولستوي في آخر العمر ، ولكن صاحبنا نعيمه بكـّر ... وسيأتيك الحديث الخاص بهؤلاء فامهلني رويــداً .

والذي يعنينا الآن هو نهج هذه الفصيلة وتجديدها . إن ملامح القديم ضئيلة فيهـــا وليس لها من بضاعتهم الا الألفاظ ، وهذا يتفاوت عندهم ثلاثتهم ، ولكن لهذا الثالوث مؤمنين بلاهوته على ما بين الثلاثة من فرق في اللاهوت والناسوت ... نعى عليهم عبّاد القــــديم ضعفاً في التركيب وخروجاً على لسان العرب ، وهذا ما يعنينا نحن حين ننظر إلى التطور في أدبنا .

كانت الحرب الكبرى ، فاتجهت الآداب العالمية بعدها اتجاهات عديدة بلغنا آخر مدّها فجرفنا التيّار الذي تلاشت قواه عند غيرنا ، واتسعت دائرة ثقافتنا فنهض الشباب متأثرين بالفواعل الخارجية ، فكانت ألوان ادب جديدة . كانت القصة حلماً سعوا الى تحقيقه ، فبانت بواكير طيبة ، فيها اللون المحلي المرغوب فيه وإن لم تنضج كل النضج . وتلوّن الشعر غير الألوان الاندلسيّة ، فصار لكل شاعر لون خاص اتسم به غـير اللون القديم العام الذي نراه في شعر بشاره الخوري وأضرابه . حاول الشباب

ان يخلقوا افقاً شعرياً جديـداً فدانت لشاعريتهم الفاظ موسيقية خلاّبة مرحة ، فأخرجوا الشعر العربي من الحصار الذي ضرب حوله قرونـــاً ، ولكنهم وقفوا عند تخوم معلومة في هـذا الفتح ، فعسى ان تنفتح لهم آفاق أخرى جديدة تغمر العقل العربي بالظلال والانوار .

وكانت المشادة عنيفة بين اللبنانيين دعاة التجديد ، والمصريين المفطورين على عبادة القديم ، فهبَّ كبار كتّاب هؤلاء يصقلون ما صدىء من لسان العرب واخرجوه فيما كتبوا كأنه الجديد بعينه ، ولمـا خمدت ثورتنا جنح أصحابنا الى الفرعونية ...

أمّا المدرسة الشعرية اللبنانية فتوغل أثرها في مصر والشام والأقطار كلها فبانت سيماؤهـا في النشء الجديد ولم يسلم من الايمان بها غير شعراء تجاوزوا عهد الشباب . فكانت هذه الموجة الشعرية التي تفيض بها صحف مصر ومجلاتها ، مشت اليهم من شاطئنا الازرق وطارت من جبالنا الى تلك السهول والغوط فأحيت ما هناك من ارض موات ، ومن احيا ارضـــاً مواتاً فهي له كما قالت جارية الرشيد لضرتها ... وهـذا يبشر بمستقبل باهر للشعر ان اعتصم ذووه بالابداع .

تجاوز الشعراء والنقاد الحد في تحديد الشعر فاتخمت الناس بنظرياتهم . والظاهر ان الشعر ككل ما لا يرى لا يحدد تحديداً يحصره تحت الـكم والكيف ، بيد ان الابداع اول شروطه .

والشعر شعران : شعر يولده ويركبه العقل ، وشعر مركب في النفس . والذي يبدو من آراء النقّاد العرب ان العقل يهمهم اولاً فحاموا في شعرهم حول المعاني حتى تداولوها جميعاً فأخلقت تلك الثياب ولم تجدد . يحب العرب في شعرهم الجهود العقلية فكلما اكثر شاعرهم منها كان متفوقاً ... ومن هنا يجيء تقديمهم المعري مع انه لا يبالي بشيء من الفن . اما الشاعر

فهو من اتبع غريزة الجمال اكثر من العقل ليتغلغل في نفس الكون الخفية كما يقول رنان .

ومن جهة ثانية نراهم يضعون الجمال بعد الحقيقة في الفن فقالوا : أعذب الشعر اكذبه . فكان للشعر عندهم كفتان : المعنى والتركيب . ان لغة العرب لغة شعرية تمكن الشاعر المطبوع من اخراج الاصوات التي يريدها اذا ادرك اسرار ابجديتها . ولئن اعار الاجانب حروفهم الصوتية أهمية في نظمهم الشعر فلكل حرف عربي مثل هذه الاهمية لو تنبه اليها شعراؤنا ولم يصبُّوا قوالم على الأبحر ليملأوها بالألفاظ كيفما اتفقت .

إن جوهر الشعر العربي القديم لا يتعدّى المحسوسات ، على حين أن ما يرى هو رمز ، عند الشعراء ، الى ما لا يرى . فالحدود الـــتي تفصل الدنيا المادية عن الدنيا المعنوية ليست عندهم ، فأعينهم تدرك العلاقـات البعيدة التي تربط الاشياء ببعضها وتولجنا في اعماق جمالهـــا الجذّاب . فالكلام يتجسد متى نفخت فيه الروح الملهمـة الخالقة حياة . والتجسّد الشعري هو الشعر كله . وهذا ما يحاول ان يخلقه شعراء اليوم في أدبنا العربي ، فالشاعر هو من يرى في الأشياء أشياء غيرها .

نحا شعراء اليوم نحو شعراء العـالم حتى في تسمية دواوينهم مثل : القفص المهجور ، والعوسجة الملتهبة ، وأرجوحة القمر ، وأفاعي الفردوس ، والروافد . الخ .

نبدأ بيوسف غصوب لأن نوبته جاءت ، فديوانه أهدي الينا منذ اربع سنوات . لقد طال انتظاره عند الحوض كما طـالت محاولتي درسه على سراجين : « الـلاوعي » عن يميني ، و « البناء » عن شمالي ، ولكنني لم ابصر شيئاً فأطفأتهما ورجعت الى قنديلي المعهود ...

ليوسف غصوب ، كما لكل شاعر ، مقاييس لم يسعـــدني فهمي على

إدراكهـا ، ولكنّني فهمت ان الرجل يعلم ما يجب ان يتم في المنظوم ليكون شعراً طيباً ، وان لم تسعده قريحته على الذي يريد ، وهذا ما لا يستطيع يوسف غصوب ان يعمله ولو علمه . ان في شخصية يوسف غصوب نفس شاعر مخضلة لم تتألب حولها الظواهر الجوية لتتكون لآلىء بديعة في غصون الشعر ، وقد رأيت صاحب القفص المهجور ، في كتابه « اخلاق ومشاهد » ، أشعر منه في ديوانيه ، على ما فيهما من شعر نفيس :

هذي اناشيد موقعـة انغامها الحرّى على كبدي
لا حكمة فيها ولا عظة بل صورتي صورتها بيدي
حالات نفس في مسرتهـا او في كآبتهـا ولم ازد

بهذه الابيات قدّم غصوب ديوانه الجيّد ، وهي حد جامع مانع للشعر الرومنطيكي ، قال زعيمهم هيغو :

اذا حدّثتك عن نفسي حدّثتك عن نفسك . غير أن يوسف غصوب أمهر في تصوير الناس منه في تصوير نفسه — وما أصعب على الإنسان معرفة نفسه !

اؤيد زعمي بحكاية : دعونا عام ١٩٢٦ الاستاذ يوسف السودا للخطابة في جامعتنا الوطنيـة فاجاد وافاد ، وقوطع بالتصفيق الحاد ... وازدهى الاستاذ قبل ان حلّت به نكبة لم تكن في الانتظار . خطب أحـد صغار التلاميذ — في ذلك الوقت — قطعة من كتاب « أخلاق ومشاهد » عنوانها « المسيو لبنان » ، فجاءت الصورة كأنها الاستاذ بعينه ، فاحمرّ وجه السودا حتى كاد يزرقّ ، ثم هدأت الزوبعة وشاعت في وجهـه ابتسامة عليلة ...

أمّا القفص المهجور فوحدة كاملة ، والناس تعجبهم الوحدة في هـذه الأيّام . وكان هذا الديوان مهيأ « لمرفأ السلام » ، القصيدة التي نعدهـا ترنيمة الفوز والحياة للشاعر الحائر . ومـا استراح شاعر القفص المهجور

حتى حمي من جديد في العوسجة الملتهبة واتجه اتجاهاً جديداً حتى في التعبير ، فواكبته ربة الشعر فجنى من العوسج تيناً .

رأيته يتعرّض لعلم النفس ويجيد التطبيق ، مصوراً الاختلاجات الخفية بلغة قليلة الرواسم ، ولكنها غير غنيّة بالإبداع الفنّي لولا التشبيه الذي هو غايته القصوى ، وقد برع فيه واجاد ، وان استعار للاحلام غارباً في مطلع ديوانه .

امّا الجو الشعري الذي توحيه مجموعة شاعرنا فجو أغبر ، ففي قلبه صوفية تذيبه ، وشعاره كشعار اولئك المساكين : لذّاتنا في الشوق لا في الوصال . ولعلّ الكبت يؤدي بهم الى التسامي .

قالت مدام دي ستال : كل ما فعله الانسان مدين به لعاطفته الأليمة نحو ما قدر له وكتب . واذا كانت « الأنا » هي كل شيء في الشعر ، كما يزعم الكثيرون من نقاد الغرب ، كان غصوب شاعراً كبيراً جداً لان كل ديوانه « انا » وهي تطفو على شعره ولكنها لا تخرج من ذات عميقة بل قريبة الغور ذات وتر واحد .

ان يوسف غصوب واقف على مفرق الطرق يتأبى الشعر المبتذل الرخيص ولا يتأتى له الطريف الّا بكد وعناء ، فهو ليس من شعرائنا الرمزيين الذين يجسدون كائنات هوائية ، ولكنه يحس بروعتها ويدعها وشأنها . فالشعراء الرمزيون يسيحون في جو عجيب الاضطراب ولا يذهبون توّاً الى الاشياء ، فهم لا يعاينونها ولا يلمسونها بحركاتنا ذاتها . عيون حائرة وأيد تلمس ... فتغرق « الصيغ » التي يعبرون بها في ضباب كثيف ، اما يوسف فواضح جلي يسمّي الاشياء باسمائها . انه واقعي لأن في نفسه مثلاً اعلى كما يقول برغسون . ليس للارض قيمة في نظره فهو متجه صوب السماء ... ولهذا غلبت رائحة المبخرة « ونافذة » الشهر المريمي على شعره .

القفص المهجور

يوسف غصوب أديب موّلتـــه المطالعة ، وشاعر أثرى من السفرات البعيدة في آداب الامم ، يـكاد يكون أول شاعر الـّف ديوانا في غرض واحد . إن ضربه على وتر واحد لا يخلو من جمال ، ففيه ايقـــاع بطل المقامة المكفوفية . أرانا الشعراء ، في أولى قصائد ديوانه ، أرواحاً تعبر بحـــار النور ، ومن أعاجيب هذه البحار « ذرى بعدها ذرى » يرقاها الشاعر ترقي الصوفيين في مقاماتهم واحوالهم ، فيمـلأ صدره عبير الخلد و « يسمع تسبيـح الملائك في العـلى » و « تلثمه الارواح في خطراتها » تقبيل الاحباب بعـد الغياب ...

إن أحبابنا الشعراء مفتونون بالشيطان والمـــلاك ، حفيدَي زرواستر ، وهم يرون ، وحدهم ، هذه الأرواح السوداء والبيضاء ساعـــة يحبون ، حتى صارت التوابـع والزوابـع من مكملات حياة الشعراء ، والا فلا يكون الشاعر شاعراً . ثم يمسي الشعراء في نظر الاستاذ غصوب « فاطميين » بل كوناً كاملاً فيه الطـُور وفيه سيناء رفيه حراء :

وحلّت بنـــا روح الاله فقلبنا كمهبط وحي فاض بالنور والهدى

وأخيراً يطهر الشعراء من كل ريبة ، ولا يبقى الا أن تشقّ قلوبهم وتغسل وتزال منها النطفة السوداء ... ولا يعـــدو الشاعر شيء من الحسن في

الورى فيحدثنا يوسف في « قصته » الجديدة عن هذه المواهب :

غنى دونه جـاه الملوك وعرشهم وكل نفيس من ثراء ومن ثرى

وفي الثرى والثراء خيرات لا تحصى دونها كنوز فرعون وإن لم تصلح منجماً للشعر .. ويجيء دور رب يوسف الذي ولّاه خزائن مصر فنطق :

وقال كثير ما وهبتم وإنمـا تذوقون من جراء نعمائه الشقا

وهذا مصدّق لقول القائلين : ان الدنيا تعطي وتأخـذ ، كأم سيبويه ، فهي لا تهب بلا مقابل . ويغدق يوسفنا عطاياه على الشعراء حتى يضع اخـيراً الجام في عدل بنيامين :

فتجـلى لهم قبل الممات غوامض يحار بها من لا يرى فوق ما يرى

كما أصاب اخاهم اميـة ابن ابي الصلت الذي آمن شعره وكفر قلبه . اقرأ حـكايته في روايات الاغاني لتعلم كيف شق الطائر قلب أميـة ، ثم رده في موضعه وكيف انذره الغراب بالموت ومات لساعتـه . ومتى عرفت هذا ادركت ان يوسف مقتصد في وصف نعم الله التي يسبغها عـلى اخوته الشعراء .

ويرافق غصوب الشعراء الى ما بعد اللحد فيصيّرهم بهائيين « ينعدمون في ذات الوحدانية » ولكنه يحوّلهم الى نار ، والحمد لله على انها تضيء ولا تحرق فيقول عن نفسهم :

تقرب حتى تستحيـل شرارة تضيء مع الأنوار في منبع السّنا

وهل نسي ان في الشعراء من لا يحلو له ان يستحيل ناراً ، بـل يود ان يظل آدمياً بلحمه ودمـه ، ولو عاش في آخر جنـة المعرّي مع الحطيئة ...

أولئك هم الشعراء في قصيدة غصوب التي يذكرني اصطدامي بهـا بالمقصورة الدريدية ، وتائية ابن الفارض ، فوقع قوافيهـا كقطة القـلم ، وأسوأ القوافي

وقعاً في نفسي المقصورة منها ، وشرّ البحور الرجز .

أمـا الجوّ الشعري الذي حمنا فيه مع الشاعر المحلّق فحسبك تحديداً له ما ذكرناه لك من عوالم ، فيها ما يرى وما لا يرى ... ان بودلير ، معشوق شعراء شبابنـا اليوم ، يرشقنـا بأول زهرة مـن زهور شرّه – بعد المقدمة – عنوانها « بركة » فيرينـا كيف خُلق الشاعر بمرسوم خاص صدر من ديوان ذي القدرة الجبـار . جدفت امه من حنقها وتطلعت الى فوق بيد متشنّجة كأنها اعتادت ضرب البوكس . أسفت كيف تغذّي هـذا المزأة – اي الشاعر – ولعنت كأيوب ليـل الملذات الزائلة الذي القى في مستودعها هـذه « الكفّارة » . وقالت وقالت غير فاهمة ما يعده لها القدر الدائم .

ويعيش ابنها هذا في رعاية ملاك – وسيان في الايمان بالملائكة الشعراء الملعونون كبودلير ، والشعراء الطوباويون كيوسف غصوب – فيأكل شاعر بودلير طعام آلهـة الاولمب ، كهومير ، ويشرب الكوثر الفضي ، ويلعب مع الرياح ، ويحدث الغمام ، وينتشي مترنماً بألحان درب الصليب .. ويبكي الملاك – حفيد زرواستر – الذي يتبعه اذ يراه مرحاً كعصفور الغاب .

ان شاعر بودلير متزوج ، وشاعر غصوب عزب ، فتقول زوجـه اشياء من وحي دليـلة ... واخيراً يرفع الشاعر يديه نحو السماء ، كالقديس انطونيوس إذ ظهرت له الشياطين في أشكال شتى ، ويهتف :

تباركت يا ربي ، يا من تعطينا الألم دواء إلهياً لرجاستنا ، وكأحسن وأطهر إكسير يهيىء الأقوياء لاقتبـال الملذات المقدسة . أنا أعلم انك تعد مكانـاً للشاعر في مصف الطوباويين وبين الجوقـات المقدسة ، وانـك تدعوهم الى عيد العرش الأزلي الخ . وأعلم ان الألم هو السمو الوحيد الذي لا

تعجم عوده الأرض والجحيم وان ضفر إكليلي الالهي يقتضي استهلاك جميع الأزمنة والكائنات ...

ثم يبحث شاعر بودلير عن جميع اللآلىء الضائعة فيراها كلها لا تكفي التاج الواجب صنعه « لجلالته » من النور الصافي المقتبس من موقد الأشعة الأولى المقدس .

تتساءل عما دعاني الى هذا . انني اتوب توبة داودية فلا اعود الى هـــذا فيما بعد حين اعرض للشعراء الآخرين ، ولكن لكل شاعر حديثـــاً عن الشعر والشعراء فكأنه يضع لنا هـــذه الاقيسة في مطلع ديوانه ليسد علينا الباب ... آفـــة الشعراء في كل ملـّة وزمان انهم يرون انفسهم من طينة عليا ، مزاجها من ماء نهر الكوثر وجابلها غير افدع كما كانت حاله بعد « المجبل» الكبير الذي جبلنا منه .

لم يتفق بودلير وغصوب في وضع سفر تكوين الشاعر ولكنهما تواضعـا على تأليهه وجعله من عالم غير عالمنا . اما انا فالشاعر في نظري « خالق » ولكنـه بشري مثلنا ، وهذه آيته الكبرى التي أؤمن بها . لا وحي هناك ولا ضرائب سخنة ، ولكنـّه محرّك يستطيع التحليق في اجواء بعيـــدة ، والشعر كلام فلا وحي ولا إلهام . ولكن الكلمة في الشعر الغالي تحمل فوق طاقتها ، كما رأينا في قصيدة بودلير .

اما شعار الشعر الرخيص فهو : مـــا كلـّف الله نفساً إلّا وسعها . في الشعر الغالي لا تدخر الكلمة شيئاً من جهدها لتدخـــل ملكوت الفن ، وهي الآلة الـكاشفة لاسرار المياه والمعادن المحتجبة في بطن الارض ... وساعة يوقفنـــا الشاعر عند فتح نقدره نحن ونقـــدر نتائجه يكون شاعراً فقط لا عبقرياً . فالشعر خلق لا صلاة . ومن يعتقد غير هذا فليصلّ ... ولكنه في لاهوتي من الهالكين ودعوته لا تستجاب ... فلنخلق .

« القفص المهجور » هو النشيد الثاني من ديوان القفص المهجور . اننا نحب حتى الحزن هذا الغناء اليوسفي الذي نجّى صاحبه من الجب ليسير مع القافلة في صحراء التيه . ان قصيدة القفص المهجور موحشة ، وقد يكون عنوانها سبب هذه الوحشة ، ويزيد الطين بلة ورود الموت والقبر في مطلعها . امـا « وحشة القلب » على ما اولت لفظة « حنظلت » مطلعها من مرارة وخشونة ، ففيهـا شعر طلق :

لا تقـل باسم فربّ ابتسام	كسراج يضيء في كوخ بؤس
طفـح القلب بالهوى وهواه	ضائع كالشموع في نور شمس
او كعين تفجر الماء منهـا	فوق جدباء لم تحـل بغرس

إن هذه الارض الجلحاء تفقأ حصرماً في عين الهواء القالع فليمر فيها بترتيب او بغير ترتيب .

برأ الله انفس الناس أزواجاً	تداعى فكل نفس لنفس

المعنى متداول ، ولكن ما الحيلة والشاعر يريد ان يقول هـذا ويفتش عن شقيقة نفسه ، فليته يصون شعره في قابل عن هذه الاذيال كقوله : « تداعى » ، ثم : « فكل نفس لنفس » . قد بلغنا الغاية عند « ازواجاً » فما ضره لو كفانا القتال ونحن مؤمنون بشاعريته ؟ ! ... واذا تنطسنا قليلاً قلنا ليته قال : برأ الله انفس الخلق ، فالناس أضيق من ان تسع الجنسين ، والشاعر يترجم هنا قول التوراة ذكراً وانثى خلقهما ..

ويدخل الشاعر قصر الحب ، ويتكىء في قاعة « الانتظار » حتى يطول عليه ويؤلمه فيقول شعراً طريفاً :

قربت ساعـة اللقاء وغاضت	في دجى الليـل كبرياء النهار
ارقب الحب خاشعاً كنـبيّ	يرقب الوحي في ظلال الوقار

ليته استعار لهذا النبي مسوحاً بدلاً من ظلال فتجد كبرياء النهـار شقيقة

نفسها كما وجد الشاعر بعد هذا الانتظار شقيقة نفسه . وتنبري التشابيه عند الشاعر بروعة شعرية عذبة تتجلى فيها امامي لاول مرة شاعرية يوسف غصوب الخصبة في قفصه المهجور . لا اواخذه الا على « ساري » فمن حقها النصب ، وليس من حقه ان يقف عليها . ولو خلت هذه القصيدة من بعض هنات هينات ، لتمت كنعمى بني امية عند أخطلهم . وهي عندي مع ذلك من خير الشعر العربي . ويوسف الذي لا يصرّع قلما يأبه للمطلع ، ولكن قصيدة « الانتظار » جيدة الاستهلال رائعة الختام ، وليس أجمل من : آية اليأس في جبين النهار ...

وفي « نجوى » صورة طريفة أيضاً حيث يقول للتي ناجاها متهدّداً بالاستشهاد :

هلّا عطفت عليه فإن في مقلتيه
تضرعاً وملامه

إن هذا التضرّع والملامة الهازئة لا يفارقان عيني شاعرنا . ويقبّل يوسف قبلة ، أخالها الأولى من نوعها ، فيحسّ انها تركت في موضعها طيباً يعطّر أيام الشاعر وأحلامه ، ويعدّها زاداً — غير « زاد المعاد » — يشدّد من ضعفه . وبينا هو في هذه الفورة ، في عز حبه إذا به يحدثنا عن الامل ويصفعنا بهذه الحكمة المريضة : وأثبت ما بنى الإنسان قبر ... قبر ... يا يوسف . استعجلت .

ما لهؤلاء الشعراء لا يفكّون ريقهم بما يسند قلبهم حتى يستجيروا بالقبور ، غفر الله ذنوبك يا مدام دي نواي ...

وعلى ذكر القبر أقول ان أروع ما أوحاه القبر للمتقدمين والمتأخرين قول الشاعر أبو شبكة في رثاء صديقه فليكس فارس :

تراب القبر أهنأ من فراش على جنبيه ثعبان وحوت

أرأيت ؟ هنا ضالتنا المنشودة ، هنا حمل الكلام جبالاً وما ناء تحتها ولا اشفق منها ... وفي قصيدة الخريف الجيّدة لا بد من لفت الشاعر الى بيت متداع ، وقع فيه يوسف بفخ الوزن فاستغاث « بتلكما » حيث قال :

يا صاحبيّ إذا قضيت فكفنّا   جسدي النحيل بتلكما الورقات

فآه من صاحبيّ العفنة ، وألف آه من تلكما ، فهي لا تقع في حوز شاعر يرتضيها مادة لشعره ، ولا خوف من انقراض نسل الكلام لنفعل كبنات لوط ...

أما « ذكرى » يوسف فما نفعتني شيئاً ، وما رأيت فيها إلّا تشابيه مألوفة تدل على ان للشاعر عيناً ثاقبة تحسن النقل ، وقلّما ترينا شيئاً « فوق ما يرى » ، وكذلك « رؤياه » فما وُفـّقت إلى تأويلها وقد يكون علمهـا عند ابن سيرين وفرويد ...

أما « جنـّة الأحلام » فهي حديقة شعر وحسبك منها هذا الضياء الذي جمَّده يوسف في هياكل الاجسام ، وكأنه وجد حجر الفلسفة المنشود . قال يعنف فؤاده الأعمى :

يا فؤادي ألا ترى غانيـات   بارزات من مكمن الآجـام ؟

مع ان ولوج الآجام والكون فيها يصعب على سيدات :

عـاريات كأنهن ضيـاء   جـامد في هياكل الأجسام
يتثنّين كالظلال خفافـاً   ما يضرن الاعشاب بالاقدام

قلنا انها حديقة شعر ، والحدائق لا تخلو من الطفيليات ، فلا بدّ من تنقيتها ، فما الذي اضطرّ الشاعر الى القول : « كلما مرَّت النواسم فيه » ؟. في مكنته ان يقول « النسمات » فما دعاه الى هذا التعسّف ؟ اللهم ان لم يكن يحاول التجديد عن طريق الجموع وبعض الصيغ كأصحابنا المصريين ،

حرسهم الله .

ويرى يوسف العذارى يستحممن فيدعو قلبه الى الاقامة عندهنَّ ، كما تمنّى بطرس على سيّده في طور طابور. أدهش يوسف المشهد فلم يكن فاتكاً كإمرىء القيس ، ودعا قلبه فما لبّاه ، بل سار به الى مرفإ السلام .

« مرفأ السّلام » خاتمة القفص المهجور . يسأل فيه يوسف الحبيبة التي وجدها ، بعد ان يعترف لله الآب الضابط الكل ، ولها بجميع خطاياه لتحلّه منها ، وتطهّره ... فيصوّر لنا ما قطع من الاودية حتى تحسبه تأبط شرّاً . القصيدة صورة حاله إذ كان كالابن الشاطر . ولو فصّل فيها ما أطعم الاصدقاء وما سقاهم ، لقلت انها اخت قصيدة الواساني التي وصف فيها ما جرى عليه في الدعوة التي عملها في قرية « حمرايا » من اعمال دمشق . قال ذاك في اصحابه الذين خربوا بيته ولعنوا اباه :

رحلوا من بيوتهم ليلة المرفع ... من اجل أكلة مجّان
قصدت هذه الطوائف حمرايا ... لهتكي وذلّتي وامتحاني
قلت ما شأنكم ، فقالوا اغثنا ... ما طعمنا الطعام منذ ثماني
افقروني وغادروني بلا دار ... ولا ضيعة ولا بستان

ومما أكلوا :

اكلوا لي من الجداء ثلاثين ... قريصاً بالخل والزعفران
اكلوا لي كشكية قرّحت قلبي ... وهاجت لفقدها اشجاني
اكلوا لي سبعين حوتاً من النهر ... طرياً من اعظم الحيتان
ومن البيض والمخلل ما تعجز ... عن جمعه قرى حوران
فتتوا لي من السفرجل والتفاح ... والرازقيّ والرمان
والرياحين ما رهنت عليه ... جبتي عند احمد الفاكهاني
ذبحوا لي يا معشر الناس ... ثمانين من معيز وضان

اكلوا اكلوا ...

ثم قالوا هـــلم شيئاً فناديت غلامي قم ويك فاخبأ حصاني

القصيدة فكهة جداً ، وهي مؤلفة من ١٩٦ بيتاً تجدهـــا في اليتيمة الاولى ص ١٦٦ طبعة دمشق .

ثم لاذ يوسف بظلٍّ هذه الصديقة فغفرت له جميع ذنوبه وخطاياه، ونضحته بالزوفى فابيضَّ أكثر من الثلج — حسب قوله :

وبات قـــلبي انقى من مائه في الصفاء

يريد ماء هذا المرفإ العظيم الذي القى فيه مرساته وربط مركبه :

تضيء عيناك فيـــه كالانجـــم الزهراء
فطهّريـــه بحب صاف وصدق وفـــاء

ويهتف ختاماً :

يا ملجأي يا مـلاذي يا بلسمي ورجائي

قلت : ولعلّ اسمها مريم ، فتتضرّع لأجلـــه ، وتتشفّع فيه ، وتتحنّن على موتاه . آمين !

العوسجة الملتهبة

القى الشاعر غصوب انجره – ياطره – في ذلك الثغر المطمئن الهادىء ، الصافية مياهه كعين الديك . وتطهّر صاحبنا فصار قلبه كانه البلّوري في الصفاء . وما قلنا استراح المركب في الميناء ... حتى رفع المرساة واقلع « الفلك » العجيب .

التهبت العوسجة ونار العوسج حامية . وقديماً اشتعلت العلّيقى وكلّم موسى ربّه منها واختاره كليماً . أمـا يوسفنا فكلوم لا كليم . انفجرت عاطفته من جديـد ، واستيقظ قلبه بعد غفوة غير كاملة ، وكذلك قلوب الشعراء والنساء لا تخمد فيها ثورة حتى تشبّ أُخرى في احدى زواياهـا فيتّقد البيت . لطا صاحب القفص المهجور في المرفإ عند هبوب العاصفة ، ثم حلّ المراسي ، وسار فلكه ، وباسم الحب مجراه ، وإذا به يقول لنا :

أعددت فلكاً للهوى عجبا	بالطيب والانوار منتقبـا
علقت في أمراسه سحبـا	حمراء تحسب موجها لهبـا

وصفات هذا الفلك أشكال وألوان ، فهو كسفينة جبران المرقّشة . ولكن قصيدة غصوب غير جوفاء كتلك ، وإن خاب ظننا في توقع نهاية أروع لهـذا الفلكِ النوحي الجديـد الذي « تجاوز الآفاق والقطبا » ولم يستوِ لا على الجودي ، ولا على أراراط ...

إن الشاعر غصوب في عوسجته الملتهبة أغزر خيالاً وأرصن تعبيراً منه في القفص المهجور . فهو فيها يخوض وسط المعمعة ... رأيتـــه يتطور تطوراً محسوساً جـــداً كتطوّر الفراشة . ففي « شبهـــات رؤى » شعر طيّب ، وإن لم يخلُ من الرواسم كقوله :

والزهر المنثور من حولنا رصعه بالدرّ طـل الحياء

ولا من الركاكة كقوله : « وكل شيء اضاء » :

ونظرة باسمة في الضحى تفوق نوراً كل شيء اضاء

وفي « الجنازة الحمراء » تطل علينا أشباح بودليرية راعبة كأننا نرى « جيفته » . ويوسف يحذو حذوه في « اللازمة » فيعيد بيتاً او بيتين أحياناً في هذه ، ثم في قصيدة « المساء » التي تليها .

وفي « عودة الربيع » تراجعنا ذكرى « خمصانـــة » المتنبي ، رحم الله أبا الطيب فقـد كان ذلك الرجل من ذوي الذوق السليم . كانوا في زمانه يحبّون كثبان الرمل ، وكلّما سمنت الحبيبة وغزر لحمهـــا وتهدّل ، عظم حسنها كأنما تؤخذ الى المسلخ ... اما المتنبي فتناهى في الرقة حتى قال : كل خمصانة أرق من الخمر ...

أما « النغمة العذراء » فرديئة الموسيقى ، لا آهات فيها ولا رنـّات . كل ما فيها تعاظل وابتذال ، اللّهم في الفن الشعري . وفي « نور الفؤاد » يتجلى لنا مــــا يشبه رؤى سيلي بريدوم . رأى يوسف نفسه مسجّى في نعش — سلامة قلبه من هذه النومة — !

تضيء من حوله شموع التقى معقودة اعناقهـــا بالحداد

اي لابسة « كرافات سوداء » ، والحجرة يغالب النور عليها السواد . وهناك دمع يبلّ جسده الذي امتدّ فيه الفساد . والخلاصة كان مأتمه حامي الوطيس عندنا ، والعرس في السبع الطباق الشداد كما يقول الشاعر العربي .

ويقول يوسف حكمة بعـد الموت فيعير الناس اطماعهم ويتمنى ان لا يوقظ من هذا الحلم :

لا توقظوني ان اكن حالماً   فقد اضاء الموت«نور الفؤاد »

امّا نحن فنهنئه بالرجعة قائلين : « صح النوم » . إن هذه القصائد كلها جيدة الأول ، أمّا ختامها فخال من « الزخم » ، وهذا مـا انعاه عليه . فبدلاً من أن تلمّ قصيدته شملها كقصائد هيغو وأبي نواس إذا بها تتفلطح .

لم نذكر سيلي بريدوم عبثـاً فقصوب من شعراء اليوم كسيلي بريدوم من شعراء عصره ، فهو لم يطفر طفرتهم اللفظيّة ، وبينـــه وبين الشاعر الغربي قرابة دموية في التصوّرات والخيال والرؤى . امّا توارد الخواطر بينه وبين ألفرد دي ميسه فقد سقطت عني مؤونة بحثه ، اقرأ « الباب المرصود » .

ويسمع يوسف في « نداء » صوتاً يسترعي انتباهه فيحدّثنا قائلاً :

كل يوم تصيخ نفسي لصوت   هابط من عوالم خافيات
فهي تهفو الى المنادي وترقى   كبخور اليـه او كصلاة

وتخطر بباله الفلسفة فيتبعها بقوله :

أترى هذه النفوس الحيارى   في اغتراب عن عدنها مبعدات
فالى عدنها تذوب اشتياقاً   وحنينـاً الى قديم الحياة

وكما قـــال المسيح لبطرس : أنت رأيتني وآمنت فطوبى لمن لا يراني ويؤمن . طوبى لك يا يوسف فإيمانك اكثر من حبة خردل ...

وأحبّ الاستاذ الفلك والسفن والمرافىء كثيراً فشبّه نفسه بمركب ، حتى أرانا في قصيدة « نداء » دنيا بأسرها . فيها افكار مختلفة ، وفيهـا أوزان شتى ، وفيها أساليب متنوعة فكأن هـذا المركب سفينة نوح التي وَسَعَت الأجناس كلها ... وفيها شعر ايضاً ، فشاعرية يوسف في تقدم مستمر

كما تشهد بذلك قصائده الطيبة التي أذاعها بعد هذا الديوان النفيس .

ويستمر الشاعر في العلو صعداً حتى يبلغ « سدرة المنتهى » فيفتش تلك الآفاق فيجد العلم تيهاً والمجد لفظاً ، وفيما هو يغلي في هذه الرحلة العنيفة :

وإذ بروض ماؤه من مدام ودوحه مسحورة كلما
تمايلت غنت نشيد الغرام

فيدعو نفسه للإستراحة في ظل « سدرة المنتهى » فتقر زماناً ، ثم تستفيق مذعورة وقد راجعها داؤها ، والنكسة ويل وبلاء :

حنت الى عهد الليالي العذاب في صحبة الاحلام تسعى الى
اوطانها العليا وراء السحاب

يا ليت شعري ، أين تكون سدرة منتهى شاعرنا التي رآها ؟ فالمعلوم أنه ليس فوقها فوق ، وما وصل اليها أحد بعد ، غير بشاره الخوري . وأخيراً يلقي حبل نفسه على غاربها في ذلك الربع الخالي :

فقلت عودي واسرحي والخيال في اربع ما خاب رواده
لذاتها في الشوق لا في الوصال

تلك حياة الأبرار والصدّيقين ، متّعنا الله بها مع يوسفنا العفيف ، ووقانا صرامة اللاهوتيين الذين يقاصون الناس بالهلاك الابدي من أجل خطيئة الفكر ...

ها قد بلغنا « صلاة راهب » . ان تكن القصيدة صلاة فهي من أروع الشعر واطيبه ، يجول فيها شاعرنا والبحتري في حلبة واحدة – شعراً وفناً وتصويراً – يصبّ فيها هذا الراهب النقي سخطه على حواسه الخمس واصغريه ، فيصير المجموع سبعة ، بينما الراهب الاصلي – جرمانوس فرحات – تشكى من أربعة فقط :

اني بليت بأربع لم يخلقوا إلا لشدة بلوتي وعنائي
ابليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم اعدائي

وكأني براهب غصوب هذا هو بولا أول الحبساء ، فآلامـــه كثيرة جداً ، والدنيا كلها متألبة عليه فهو القائل :

رب رحماك ما تريد فإني كدت في وحدتي اصاب بمسّ

قد عوّدتك الحكايات ، فحكاية القديس بولا غريبة عجيبة ، دلّ عليه القديس أنطونيوس : وحش كان نصفـــه شكل إنسان ونصفه الآخر شبه فرس . وكان الغراب يأتي القديس بولا كل يوم بنصف رغيف ، ولكنـــه جاءه برغيف كامل حين زاره القديس أنطونيوس . وعند موت بولا رأى القديس أنطونيوس نفسه صاعدة إلى السماء ما بين الملائكة والانبياء ... وبولا مات وظل واقفاً على قدميـــه ، كما خبَّر القديس أنطونيوس الذي دفنه يعاونه على حفر قبره أسدان ، وبعد حفر القبر ركع الأسدان أمام مار أنطونيوس فصلـّى على رأسيهما قائلاً : إلهي ، يا من بدون عناية حكمته لا يسقط عصفور على الأرض ولا ورقة واحدة ، إمنح هذين الاسدين ما يناسبهما (مروج الاخبار ص ٤٢) .

وفي « صلاة راهب » يلتقي يوسف مع دي فيني في قصيدته « موسى » ، ولكن راهب غصوب غير جسور كموسى دي فيني فلا يمنّ على الله بشيء ...

وينتقل يوسف إلى « العذارى » فكنّ حقاً مسك الختام ، ففي هذه القصيدة الرائعـة يلتفت شاعرنا الواقف على « مصلـّبة » الطرقات صوب الشعر الجديد ، فيحلم الروض بالربيـع ، وينتشي الفجر ، وتنتعش الروابي ، وترقد الوهاد ، وهلمّ جرّاً . ويسجّل يوسف أخيراً إيمانه البريء في هذا البيت من القصيدة وهو ختام ديوانه فيقول :

تخسف الارض بالخطيئة لولا شافع الطهر في العذارى الصغار

فهو يريد أن يقول : لولا طهر العذارى الصغار لخسفت الارض بسبب الخطيئة ، ولكن قوله جاء عكس ما يريد . ولو تم ما قال لاسترحنا من الخطايا كلها ، وغابت عن وجهنا في قلب الارض ، واسترحنـــا حتى من الخطيئة الأصلية ... التي جعلت النفس تحن إلى عدن الذي خرجت منه ، كما جـــاء في شعر غصوب .

انتهت جولتنا في هذا الديوان الخصب الذي نعدّ صاحبه همزة وصل تربط القديم المتحجر بالجديد الطافر ، فهو اول شعراء الشباب الذي فكر بالاستقلال الناجز مع المحافظة على ما تجب المحافظة عليه .

يقول تين : إن الأثر الفني تعمله ثلاثة عوامل : الجنس والمحيط والزمان . وقد نسي التربية الأولى التي عملت في شعر غصوب ما نلمسه لمساً . يعجب الناس لكثرة الشعراء المجيدين في هذا الجيل لأنهم لم يتنبهوا إلى هـــذه العوامل . ولو أمعنوا الفكر قليلاً في الغناء اللبناني العامي الذي تنـــام عليه أطفالنا ، وتستيقظ عليـــه فتياتنا ، لأدركوا سر شاعريتنا . فكل ما في لبنان شعر .

قد فكر العرب في الوراثة فقالوا : امٌ عمر ابن ابي ربيعة حميرية ومن هناك اتاه الغزل (أغاني جزء ١ ص ٣٠) واللبنـــاني وارث غـــير سفيه ، أنمى تلك الثروة التي ورثها ، وزاد عليها من مربح الاسفار فأصبح أدبـــه الذي ترى وتسمع ، وصار الشعر على كل شفة ولسان ، حتى صرنا نرى شعراء الزجـــل يقيمون سوق عكاظ حيث يجتمع منهم اثنان أو ثلاثة .

إن يوسف غصوب هو ابن هذه البيئة الموسيقية يمثّلها احسن تمثيل في فكرته وتعبيره . وديوانه أول أنشودة تمثل شاعراً بلحمه ودمه . والشعر كما يفهمـــه يوسف « بناء » وقد بنى صاحبنا مدماكاً في قصر الشعر فعلى الذرية ان تعمل ما عندها ، فأدب الامة لا يبنيه واحد وحده . وإن كان ذلك فتلـــك

غضاضة من قـــدر الملّة والشعب وشاهد على العقم . تعجبني لغة يوسف النقية ، فهو على تأثره بالعجم عربي اللسان ، وقد جمع في ديباجته السهولة والقوة ، وإن أتت قوافيه احياناً كأنها « غلق » . والقافية في نظري زاوية لا غلق ، ولكنها بخلاف نمط البناء توضع عند نهاية المدماك ... وهي تخلق القوة في البيت كله .

إن وثبات يوسف قليلة ، والوثبات هي التي تعمل الشاعر الكبير ، فـــاذا خلا منها الشعر يحق لنا ان نقول مع بوفون : شعر مثل النثر الجميـــل . والشاعرية العظيمة تظل دائمة الاشعاع حيث ترى ، فكأنهـــا الحباحب في ليل الفكر . لا بدّ للشاعرية من الوميض كل حين ، وهـــذا ما لحتـــه عند غصوب في العوسجة التي هي خـير من القفص . كما انني قرأت له شعراً ، بعد الديوان ، كان أعظم وقعـــاً في نفسي من شعره الاول .

والجمال الفني عند شاعرنا عام ، ولكنه غـير باهر ولا فاتن . أعني بالعام جمـــال الغرض والعاطفة والشعور والصيغـة . ولكن ليس في شعره كله قصيدة تدور على الالسنة لتخلد صاحبها ، وإنْ طلبنا ذلك فقد نجده في بعض مقطوعات نشرها في المكشوف ، بعد طبع الديوان . وإذا صحّت نظرية جول ليمتر : ان الشعراء كبـــاراً وصغاراً لا يقرأهم الا الشعراء الآخرون ، بطلت نظريتنا هذه ، وكان ديوان الاستاذ غصوب مقروءاً من الادباء جميعاً ، وسيقرأ دائماً لأنه جميل طريف وصاحبه يقدس نظرية الفن للفن ، كما يبدو لي من عمـــله العنيف في شعره . فأكثر شعره معمول « توصية » أو قـــل اراد الشاعر ان تكون له قصيدة فكانت .

أما فضل غصوب الذي لا ينسى فهو هذا العمل الفني الحر الذي كان خير

أمثولة للشباب حفظوها عن ظهر قلب . أطلق الشعر من قيوده ولم يقـــل قصيدة في موضوع غير شعري يوم كان الشعر يعمل غبّ الطلب . فأين الشعر مثلاً في قصيدة بشاره الخوري الاخيرة « عودوا إلى تلـك القرى » فهــو لو حبّرها مقالة لـكانت أروع .

واذا كان فلان شاعر كذا وفلان شاعر كذا ، فيوسف غصوب شاعر الشعر اولاً .

حياه الله كشّافاً مباركاً ، أو رائداً أعجبته خضرة الدمن .

قارورة الطيب

يا فتّاح ! يا عليم !

قبل كل كلمة أكتبها ، وبعد آخر حرف من هذا المقـــال ، أعترف وأقر وأشهد أن في « قارورة الطيب » شعراً معطـّر الأردان كصاحبة إمرىء القيس التي يمسي فتيت المسك فوق فراشها . فمـــا فتحت « القارورة » حتى عبقت رائحة طيّبة أعرفها في شعر غصوب . يضع الشاعر على وجـــه « القارورة » حديثاً منظوماً يرويه بلسان « قرقورة » جديدة :

كبرتَ – تقول مازحة ، وترنو إليّ بطرفهـــا الغنج المدلّ
– أمـــا تعب الفؤاد من القوافي ومن خفقـــانه بالحب ؟ قل لي
فقلت لها : الفؤاد فـــدا لحسن يكاد يكون فاتحـة التجلّي

ورحت أتعمّق في القارورة حتى خضضتهـا خضّاً عنيفـاً ، فتذكرت قول شاعر القفص المهجور :

إن قلبي بعد ان مات الهوى قفص أفلت منه البلبـــل

سنة مباركة ورزق جديد.. . عاد البلبل إلى القفص ، وها ان صاحبه يغنّي لحمامة جديدة . حمامة في عينيها اخضرار ثوب الشهادة كما فهمت من القارورة التي حبسها الشاعر فيهـــا كما تحبس المردة في القماقم ... وهكذا بدا لي ان

« العوسجة » أيضاً قد تأجّجت من جديد ، وان شاعرنا انتكس فعـــاد قلبه حامي الوطيس .

كنا ننتظر ان نرى في « القارورة » برداً وسلاماً ، وقلباً مستقرّاً ، فإذا بها تقدح شرراً فكأنها قنبــلة لا قارورة . إن قلوب الشعراء كعلّيقة موسى تشتعل ولا تحترق ، فـلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وكأني بصديقي غصوب يهتف للرب بلسان داود النبي . قلبـــاً « محبّاً » اخلق فيّ يا الله ، وروحاً « عاشقاً » جدّد في أحشاي .

أقول هذا لأن الشاعر بدا لي في قارورةِ الطيب أشبّ وأفتى منه في القفص والعوسجة ... قد يكون وقع على كنز ، فمن يدري ؟ الخيّر مرزوق ومن سعى على رجله رعى .

وما جلت في هذا الديوان الأنيق الهندام حتى رأيت وجوهاً أذكر أنني تعرّفت عليها أو اجتمعت بها مذ سنوات . فتمثل لي أحدهم كأنه يقول لي : مارون ، خذ حذرك . عــدّ العشرة . فعددت المئة . كلّفت من عندي في عين كفـــاع التفتيش عن ديوان غصوب الأول وارساله إليّ ، فلم يهتدوا اليه . فسددت القارورة لئلا يطير الطيب ،وانتظرت فرصة الربيع ثم عدت منها ومعي الديوان . وبعد البحث وجـــدت ان القارورة موجهة بشعر جديد كما يفعل البستاني اللبق عند تصدير أثماره ، وفيها بضع قصائد من الديوان القديم . فعدت إلى قول تلك للشاعر غصوب :

أما تعب الفؤاد من القوافي ومن خفقانه بالحب ؟ قل لي

إذا كان قد تعب من الحب فلا أدري ، أما من القوافي فحمله خفيف جدّاً ، واليك البرهان ، بل اليك الحساب : ان المسألة حسابية ، أهـــداني الشاعر غصوب ديوان « القفص والعوسجة » في الشهر الذي صدر فيه – حزيران عام ١٩٣٦ – وقد نفح الادب بطيب « قارورته » في ٣٠ تشرين الثاني عام ١٩٤٧

فيكون بين الديوان الأول وهذا مسافة احد عشر عامــاً وخمسة أشهر . فاذا قسمنا هذه التركة الادبية الخالدة على الشهور وعددها ١٣٧ شهراً كان نصيب كل شهر بيتين وحرفاً ... لأن مجموع الشعر الجديد في « القارورة » مئتــان وستة وسبعون بيتاً ونصف البيت . لا يغرك كبر الديوان فهو كأكثر دواوين اليــوم أشبه بعلب الشوكولاتا الأنيقة .

هذا حساب اظنه مضبوطاً ، ومع كل فالغلط جائز ، وأهون شيء عندي أن هو الرجوع عن الغلط .

إذن ليس في القارورة الا شيء قليل ، وهذا لا ينقص من قيمتها ، فالمسك لا يباع بالمد والشنبل بل بالغرامات ، وان رأيتني احاسب شاعرنا هذا الحساب العسير فلأنه قال مع امرىء القيس : اذود القوافي عني ذيادا .

إذن ما تعب الشاعر من القوافي اذا كان هذا انتاجه في احد عشر عامــاً وخمسة أشهر . بل هو كقول الشاعر : وأمُّ الصقر مقالاتٌ نزورُ .

فالثابت لي هو ان يوسف غصوب شاعر مقل ، اجنحته مثقلة ، ولكن شعره رائق ملون ، معطر ، فيه كل خصال الشعر الغنائي . وشعره صوت نفس مضطربة كنفس شاعرنا أبي عبد الله بشاره الخوري ، ولكن غصوب مسيطر عليها بينا هي مسيطرة على الاخطل الصغــير ... ان لنا درساً خاصاً بالغزل عند هذين الشاعرين ، لا أدري متى يكون موعده أما الآن فالكـــلام على غصوب وحده .

ان غزل غصوب غزل كئيب مغموم ، غزل مراقب ، ينظر ولا يقتحم ، يظل أبداً يتحيّن لأنه غير فاتك ، وبرهاننا هذا « التضرع » قديماً وحديثــاً . انه غير جسور ولكنه لا يموت غمّاً ، كما قال الشاعر ... وقد يكون غصوب كما زعم وقال : لذّاتنا في الشوق لا في الوصال .

ان خطيئة «الفكر والقول» كخطيئة « الفعل » خطورةً ، انهما متساويتان

لاهوتياً – كما تعلمنا – اذا استثنينا الرد والتعويض ...

رأيت يوسف غصوب يتطور في قارورته ولكن تطوره بطيء . الرجل مخلص في عمله ، مثابر يشذّب ويهذّب ، فهو والصافي في هذا ضدان ، ولعلّ الصافي يجهل ان لا صدفة في الفنّ بل قريحة وعمل .

ذكرت « الخطيئة » لأن رائحة التديّن تهبّ عليك من قارورة غصوب وهي مطبوعة في المطبعة الكاثوليكية ، فاسمعه كيف يبرر هذا الحب بقوله :

هو الحب من نفحات المسيح   وكان على الأرض قدماً غريباً

مع آلامك يا يسوع ! هكذا كانت تقول امي في النكبات . ان المسيح عند النصارى حامل خطايا العالم ، أفلا يحمل تبعة حب يوسف على خفتها ؟

اظنني لا أعدو الحق اذا سميت يوسف شاعر الحب النظري ، ولا أخالني محقّاً اذا سألته من أين لك هذا وقد جاوزت حد الاربعين ، ما زال غيره يتغزل وهو في السبعين . ولا سيما ان الحب ليس بالباب الضيّق ، فالله ، سبحان كرمه وجوده ، لا يقطع رزق مخلوق .

ان يوسف يعمل بقول شارل بودلير : للخروج من أزمة الهوى تدفعنا احدى حاجات الحب الى « الصلاة » ، وهذا ما يبدو لي في القارورة تلميحاً ، وقد لمسته لمس اليد في ديوانه السابق . ولكن هذا التديّن عند شاعرنا نوع من التوابل كالبهار والقرفة يزيد في نكهة طعم الحب واللذات .

وقد يكون الحب كفّارة عند غصوب كما رأيناه عند بودلير القائل : حتى يؤدي الانسان الجزية لربه ويغتسل من وسخ الخطيئة الأصلية اعطي حقلين يحرثهما : الحب والفن .

وها ان شاعرنا يعلن هذا الجهاد على هاتين الجبهتين في جوابه لتلك :

فإن الشعر حب أو جمال   لعلّي مائت بهما ... لعلّي ...

إننا لا نرجو لشاعرنا ان يصيح مع ابن الفارض :

ما بين معترك الأحداق والمهج أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

إن ابتسامة يوسف الهازئة ، وتستطيع ان تقول المزّة، تنقذ الموقف، وينفذ صاحبنا في المضيق ، كما عبر ابن الأثير .

وإذا أردنا تلخيصاً للصور التي تحتل ساحة شعور غصوب فنجد أوّلها العري ، فكأنه تتلمذ للشيخ فؤاد حبيش يوم كانت الدعوة لتلك الرسالة عارمة. فالعري يواجهنا في أولى قصائد القارورة :

في كل أغنية كعاب روّيها الحب والجمال
تطلّ في عريها فتنشي بعريها الحسّ والخيال

ثم يوضح هذه الفكرة الثابتة بقصيدة عنوانها « متجردة » يصف فيها الحبيبة كأنه يصف تمثالاً رخامياً . يصفها وصفاً سليمانيّاً فكأنه تجاه شولمية جديدة حين يصرخ :

يا حارسي جنته انتما على ضفاف الفلّ والغار

ثم يبرىء هذا العري الذي وصفه وصفاً كاملاً ، تقريباً ، فيقول :

لا يعتريه العار في عريه في الحسن منجاة من العار

ان هذا البيت عرعار حقّاً ، اما ان الحسن ينجي من العار فهذا في نظر يوسف ، أما في نظر معلمينا اللاهوتيين ففتنة .

هذه هي المادة الأولى المركب منها طيب القارورة ، أما المواد الأخر المؤلف منها هذا المركب فهي من عطور وخمور وانغام واضواء ، وازهار وينابيع ، وملذات حمر وخضر وصفر ، ولا بدع فالطيب يركّب من أجزاء مختلفة ..

أما مخيّلة شاعرنا فهي مخيلة تعنيها الكلمة أكثر مما تعنيها الأشياء . ولكنه بدلاً من أن يستعمل لفظات سهلة جدّاً يجعلها بين بين ، وهذا مما يحمد عليه فيقول مثلاً : صحارى حنين ، تغرد ألوان بها وطيوب ، وترقص في الأفياء

سكرى . هذا نموذج من قصيدة جمال ، التي أرخى فيها العنان لخيـاله كما يفعل أبو عبدالله ، فقال : إن هـذه الجميـلة ألهت وحش الصحراء عن صيده ، وتقاطرت اليها الطيور من الأفق البعيد فذكـّرني قـول الانجيل : حيثما تكن الجثة تسقط النسور ، ونعيذ هذا الجمـال من أن يكون جثة . لقد غاليت يا يوسف حتى كدت تدرك بشاره ... وتفوق نعيمه في قصّته « لقاء » حين جعل الثعالب تطرب لموسيقى بطل قصته طربـاً غريباً عجيباً ، ويصيبها مـا أصاب سامعي الفارابي ..

وبما اننا نتكلم عن الكلمة فلنفرغ من شأنها : ان كلمات يوسف منتقاة وهو يجعل وكده في الملاءمة بينها لتولـّد الموسيقى التي يتمناها الشاعر ، وقد أدرك جلّ هذه الغاية ، وإنْ أغرب فقال : أغنية خضراء ... ولكن كلماتـه مختلفة الاعمار ففيها البدوي الخالص كقوله : « سموت لنا » ومثلها القرقف الأخطلية التي أكثر من استعمالها وكذلك دد الحلـّزية . . و « بعد لأي » النابغيـة . ومثلها قوله :

احسها في دمي ، في عروقي   وفي « الـكان » مني وفي المزمع

انا أعلم أن اسلافنا ، يرحمهم الله ، ادخلوا ال على الافعال فقالوا :

ما أنت بالحـكم الترضي حكومته   ولا الأصيل ولا ذي الرأي والجدل

وأدخلوها أيضاً على الظرف فقالوا :

من لا يزال شاكراً على المعهْ   فهو حرٍ بعيشة ذات سعهْ

وأدخلوها على الجملة فقالوا :

من القوم الرسول الله منهم   لهم دانت رقاب بني معد

كان القدماء يعدون ال هذه اسم موصول أما نحن فما لنـــا ولها . اسمع يا أخي يوسف ، ستراني في غد ، أو منذ الآن ، متسامحاً مع سعيد عقل حين يقول في نشيدتـــه قدموس : كنْ بها الصقع كما قال قس بن

ساعدة ، وان يقول :

بار كتك اليد الأهلّ على القفر عطاء ، فعاطل القفر حالِ

وذلك لأن سعيد عقل يقص ، والقصص يتسامح فيه ، ناهيك انـــه اعدّ ، أو يعــد لنا شعراً نادراً في الأدب العربي ، وهو شعر الملاحم ، أما انت فما تريد أن تقول ؟ حنانيك بل حنانيكما . تكفينا اثقالنـا القديمة فلا تخلقا لنا جديداً ...

وعلى ذكر الجديد رأيتك تحاول ادخال التضمين في « عروضنا » فانا أقول لك ان هذا لا يلائم شعرنا . لأن لكل وزن عندنا رنة خاصة ، فوصله بغيره لا يلائم . فالأوزان العربية غير الأوزان الفرنجية فمحاولتك إذن خاسرة . تأمل قولك :

ظليل تلألأ من عربهـــا ومن أريج الشَّعَر المرسلِ
تضمخ ثغريك بالناهـدين وبالثغر والفـــاتر المخمل

أما بقية المائتين والستة وسبعين ونصف البيت ، فكلها ذات الفـاظ منتقاة تشهد لك بالعناية التي تضاهي عناية مالرب .

أمّا القافية فقد تخلّص الشاعر من قيودها في أكثر المواطن وحـذا في ذلك حذو شعراء الفرنجة ، وهذا لا بأس على الشاعر منه .

أمـــا الأوزان فهو يؤثر بعضها على بعض ، وهذا لا يعنينا ، ولكنني أحسست ان هذا التهافت كاد يظهر شعر الديوان كأنه شيء واحد . فالفكرة واحدة ، والالوان أيضاً والأثمار أيضاً وأيضاً ، حتى كدت أرى فيها شبهاً قوياً من دار بطيخ ابن الرومي . والغريب هو أن نرى الى جانب هذه الثار روحاً تمتد جذورهـــا الى الكون الأبعد ، فحبيبة غصوب كحبيبة سليمان يشبهها بالحديقة فيقول ويحسن القول :

حديقتنا أثمرت والجنى ثقيل على الغصن الأملدِ

بتفاحها حلم بالشفـــاه وأعنابهـا بخمور الغـد
وبالورد،والأمس شوق‌الى شميم يدغدعه أو « دَدِ »
تميس الزنابق في جانبيها ويضحك‌فيها الأقاح‌الندي
وطيب‌البنفسج‌ملءالظلام وملء الخميـلة والمورد

انه لشعر عذب تجول فيه الماوّية جولانها في الغصن الاملود إبان الربيع . وأخـــيراً يدعو الشاعر الحبيب دعوة سليمانيــة أيضاً فيقول بلسانــه :

ألا تدخل الروض نجتاحه بعنف فنتخم منــه وفي
رياحينــه نرتمي من عيــاء ونكرع في خمره القرقف

أرأيت يا شاعري العزيز ، ان التضمين لا يلائم الشعر العربي ، فهـذه القافية « وفي » قــد حالت دون تصور « الاجتياح بعنف » فكنت كمن بلغ المحجة بارداً فضاعت عليه القفزة المرتجاة .

ويبالغ يوسف في وصف « رحيق الثغر » فيجعله « مثلجاً » فيخطىء في هذه الصفة مبنى ومعنى . أفي ذلك الجسم « برّاد » حتى يكون ريقـه مثلجاً ؟ ومن يحتمل الريق المثلج . أما المبنى فالصواب مثلوج .

ويوسف على دين الجاحظ في استحسان لثغة الحسناء ، فبعد ان يصف لنا حديث هذه اللثغاء المبهم يقول :

يتمتم القول مـا يبالي أيبهم القول أم يبـين
فكلما زاده غموضاً تداركت شرحه العيون

جميل ، جميل جداً ، بل أكثر من ذلك ، ولله در العيون ما افصحها في مواطن كثيرة .

وحبيبة يوسف هي مهرجان الحسن ، وما تبقى من الازهار بعد العاصفة ، وبقية عهـد الله ، أو بقية من الفردوس في عينيها . يقول ذلك ليتخطى

الى تعليل لذة الحب :

هذه اللذة التي نحن منها رجعة من نعيمنا المفقود

وللعينين عملها الأكبر في قلب يوسف وفنه ، حتى يقول فيها :

ترقى لي الشعر عيناها فأرسله ضرباً من السحر لم يخطر على بشر

لقد تجاوزت الحد مرة أخرى ، فهذا القول من حق أبي عبد الله بشاره ، وحده ، أما أنت فلا تخرج عن المعقول . نعم ان في شعرك ما يدفع الى الغرور ولكن ليس الى حد انه لم يخطر على « قلب » بشر .

وانني الفت نظرك الكريم الى هذين البيتين ، ص ٤٩ و ٢٣ فهما محتاجان الى اعادة النظر :

الى فهمه . كل ما ينجلي من « التلاميح » نشوق صدي
افاقت على فجر عجيب ونفحة سماوية من « راحتيها » تضوع

ويستهتر شاعرنا أحياناً باعادة الضمير فيوقف ذلك حركة سير الشعر كقوله :

ويطغو من الذعر أو حبه حياءً على وجنتي ندي

فهو من قصيدة جميلة راقصة كاسمها — قلق — يحلل الشاعر نفسية فتاة حين يزورها الحبيب ، والضمير يعود اليه في حين اننا نظنه يعود الى الذعر ... وكذلك لا يتأبى الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، ثم يتعدى على حقوق طه حسين فيقول :

« فعبّت وعبت » لاتي وأوارها يجد ، اذا ما امعنت ، ويزيد

ويسرني أن ألفت نظر شاعرنا المتأنق الى بيت لم يحسن تهذيبه فلعله يعيد النظر فيه عند الطبعة النهائية :

نحن تحناننا الملحّ الى رباك تحناننا لعهد بعيد

ويحن يوسف الى القرية التي نحن منها فيبكّر الى « العين » ويقول

قصيدة صغيرة جميلة كأكثر قصائد القارورة ، ولكن الحبيبة التي رسمها لنا الشاعر ، فجعلها من ورق الورد ومن طيبه ، ومن ضياء ومن ، ومن ... لا يصدق انها تفهم حديث العين والجرة ... الا إذا كان الشاعر يريد ان يقول هذا الشعر لنا لا لها . وبكلمة وجيزة نستطيع أن نقول ، ان قارورة الطيب ديوان نفيس على قلته ، والشعر لا يقاس بالكم ، وسنقابل بين غزله وغزل الشاعر أبي عبد الله بشاره الخوري ، كما وعدنا ، ونعطي كل ذي حق حقه ، فما فاتنا قوله الآن لا يفوتنا قوله بعد حين .

الياس ابو شبكة

١

فرغتُ من قراءة كتاب « الادب المقارن » فانسدّت الدنيا عــلــيّ . كدت انام على كدر لولا كتاب الف ليلة وليلة . من اجل هذا الكتاب ، وحده ، حشرنا المؤلف في زمرة قــادة الفكر الإنساني والعاملين على تغيير مجاري الخيال البشري . فاحرِ بنا ان نقيم لصاحبه أثر « الأديب المجهول » .

فمــا قول المتحمّسين للطبع على غرار الجاهلية ، في كتاب ازدروه فصار كالحجر الذي رذله البناؤون رأساً للزاوية ؟... لقد أيأسَنا شعرنا من كل خير طلبناه عنده . أطبقت عليه حمى التقليــد دهوراً . والتقليد إذا اجتزىء على كتاب لغــة واحدة وسلالة واحدة ، كما فعل السلف الصالح ، يصبح ضامراً خسيساً . اعتدّ العربي بشعره اعتداده بنفسه حتى قــال ابو الادب العربي : وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب . أمّا مــع « شعراء اليوم » فقد تنازلنا عن تلك العنجهيّة العارمة ، وصاهرنا الأجانب ، عن غير طريق الولاء ، فكانت لنا ذريّة أدبية جديدة ليست كلها على نمط واحد كمصنوعات « الفبارك » . قد تعدّدت القوالب واختلفت السِحَنْ ، وتغذّى الادب بدم جديد

فانتعش بعـــد توتر اعصابه وتصلب شرايينه . فاستلهام الآداب الاخرى كاستنشاق هواء جديد يكسب النشاط والعافيـة ، على شرط الا نلهمس ما على موائدهم . فجديد الأدب المتشابه لا يعمّر طويلاً ، ولا يخلد منـه الا ما كان فيه غذاء الذريّة ، ولكل ذريّة مجاعة قوت .

بدأ طلاّبنا يحسُّون أن حاجات نفوسهم ليست – مثلاً – عند البحتري في وصف القصر الذي « ذعر الحمام وقد ترنم فوقه » ... فاينما مرّوا اليوم ، فهناك بيوت أشمخ وأرفع منه عمـــاداً . وليست ايضاً في ذلك الغزل المكرور الذي لا يدل الاّ على أنه شعر .

ومن أولى من شعراء اليوم بالنفوذ في هذا المضيق ، فلكل دولة رجـــال . وها هم يخرجون الشعر من دهاليزه ليتشمّس وتعاوده نضارة الشباب فَيُنَقّي دمه الماصل وتزخر فيه كريات الحياة . إن التطعيم يُرَقّي الاجناس وينوّعها ، فلنطعّم وإلّا فجنينتنا تظل باناً وأراكاً وغضاً وبهاراً وعراراً ، بينما البساتين الأخرى تحفل بمئـــات الأجناس . فلنغرس ! فلنطعّم ! وليتهمنا من شاء بما شاء إن كان في هذه التهمة حياة أدبنا وإخراجه من كهوفه ، أمَا مللنا علك المصطكى ؟..

لا يستحي الانكليزي والروسي والألماني والفرنسي أن يدلّنا على العناصر الأجنبية في أدبه ، أمّا نحن فنعدّ ذلك عـــاراً ، كأنما الفن يهبط علينا من السماء كالمنّ والسلوى ، أو تخرجه أرضنا كالكمأة . إننا لا نريد من اللغـــة إلّا المواد الأوليّة كالألفاظ والأصول ، أمّا الشكول فلكل عصر زي . وهذا ما يفعله شعراء اليوم كلٌ على قدر خياله ومـا طبع عليه ، وقد درسنا أحدهم – يوسف غصوب – الذي عددناه بحق طليعـة هـذه الكوكبة ، وهنا نتناول الياس أبو شبكة في ديوانه الجديد – الالحان – الذي نشرته دار المكشوف .

٢

جاء في أساطير اليونان ، أن إحدى البنات المدعوّة سيرنكس فرّت من وجه الإله « بان » إلى ضفة نهر وتحوّلت إلى رمـــاح قصب ، فتتبّعها ذلك الإله الغضنفر ، وقطع من ذلـــك القصب وصنع شبّابة ذات سبع قصبات مضمومة ، فعزوا اليه جميع الأصوات المخيفة .

ونحن إذا قرأنا شعر أبو شبكة في « القيثارة » و « أفاعي الفردوس » و « الألحان » وما ينظمه أخيراً للمناسبات التي لا بدّ منها ، نستطيع أن نعزو الى شاعرنا جميع الألحان من مخيف ومفرح ومحزن . قد يكون أقرب شبهاً بقصبة الفارابي التي ذكرتها غير مرّة . ولئن كان الياس في ألحانه ابن الإله « اورفه » فهو في أفاعيه ابن الإله « بان » ، واننا نشكر لسيرنكس — أم طفل — التي فرّت من وجهه فاستفزّت شاعريته ووجهته في الطريق الخالد . إن تلك الأفعى التقيّة الطاهرة قد دبّت لنار قلبه بالحطب فصهرته شعراً عسجدياً مصفّى ، ونعم الكفارة زبورك يا داود ...

نقرأ القيثارة ، باكورة الشاعر ، فنتذكّر ونحن نقرأ « أفاعي الفردوس » كلمة جرير في عمر ابن أبي ربيعة . ففي أفاعيه يبلغ فنّه القمة ، وشاعرنا المبدع قد استحال ثلاث مرات ، وهو اليوم يحبو الى الرابعة ، فهل من « ام طفل » أخرى تتبنّى الشاعر وتنقذه من ولوج الباب المفتوح ؟..

إنــه في الطور الأول — القيثــارة — من الطيور القواطع يطمح الى الآفاق العليا ويقصر طرفه دونها .

وفي الطور الثاني — طور الأفاعي — طائر غريب كاسر يسمو لينقضّ من علٍ وينشب مخالبه ، أما منقاده فمعقوف كالصليب المتلوي .

وفي الطور الثالث — الألحان — طائر بلدي تشجيك أنغامه وتعجب كيف استحال من أكـالة اللحوم الى حسون فصيح يعيش على القنبز .

أمّا الطور الرابع فأعيذك بالله منه . أعيذ شعره من هذه الدعوات فبضاعتها بنت ساعتها ، وفيها يصحّ قول النواسي : كلام الليل يمحوه النهار . اللهم لا تمحِ ذنوب الياس وخطاياه لترتفع أناشيد توبته الى أعاليك ...

في إحدى المناسبات قال الياس عنّي « وحيناً عقرب ». هذه قافية البيت، أما مــا بقي فغاب عنّي . واني أقول لصاحبي سأحاول أن أكون أنعم من السنجاب ، ولا أقول الهر ففي جلد الهر حاجة الى الحكّ ، ان لم تحكّ له انت تحككك هو بك ، كما هي حال زكي مبارك أحياناً .

فلندع « القيثارة » جانباً ففي فحيح « أفاعي الفردوس » ، رائعــة أبي شبكة ، موسيقى غريبة . فغضب الأنبياء وسخطهم النافض كالبرداء يتطاير حممــاً من براكين « أفاعي الفردوس » . وكيف لا يكون هــذا وشاعره من قراء التوراة المدمنين ، يراها منبعاً للالهام ، وإنها لكذلك ، لما فيها من القصص الدسمة ... فهي أخصب الدمن وأمرعها للشعراء الشباب وغيرهم . هناك دمن خضراء لا ينقضي ربيعها ، اعتدال طقس ، وحرارة ملائمة ، أخرجت هــذه الخيرات ، انها كالوطن الذي كتبت فيه تدرّ لبناً وعسلاً ...

أخذ الشاعر منها موضوعين بعثهما من جديد ، وأحياهما بما عنده من عاطفة جشعة ونفس متّقدة ، فلا بدع إن قلنا ان أفاعي فردوسه عريقة الحسب والنسب تستأهل انجيل سلسلة لتتصل بأمنا حواء التي أورثتنا الخطيئة الأصلية ... ولولا عماد السيد في الاردن من يد ابن خالته ، ثم موته على الصليب لما كان لنا العلاج الشافي من دائنا الوبيل ، ولظل أبونا آدم والابرار من نسله في ظلمة اليمبوس الى الآن ...

ألا ترى « أفاعي الفردوس » عنواناً طريفاً ؟ اننا نستهول اسمها ولكننا لا نستطيع الحياة بدونها ، بل نستلذ لدغها ويطيب لنا جحرها . انها مائدة مأكولة مذمومة .

إذا ما أشرفت على دنيا « افاعي الفردوس » جثم عليك جو سادوم وعامورة بكل ما فيه من زفت وكبريت وبحر ميت وأعمدة ملح . يريك شاعره الحاوي الجبّار افاعي بشرية فتصك وجهك وتسدّ منخريك إذا واجهتك .

ورغماً عن هذا الجو الخانق فأنت تحسّ انك تقرأ شاعراً ملهماً ، شاعراً له ذاته ، وله نفسه ، وله شخصيته ، ولشعره طابع اصيل ، فيه الصور الراعبة ، على ما في خلق الصور الجديدة من صعوبة .

لا تجزع ان أقل لك هذا ، فالوردة تعيش جذورها حيث تعلم ، وتعطيك أقماراً ينعم بها انفك ويزدان صدرك . والتفاحة كذلك ، والشعر شيء كهذا ! والياس في « افاعي الفردوس » من الشعراء الملعونين ، واقوى حواسه اللمس والبصر . لست ارى عليه حرجاً في هذا الجوّ السادومي ، فهو شاعر يحيي الماضي ليؤدب الحاضر . وما زال لا يختلف في المغزى عن المفسرين وعلماء اللاهوت فأي ضير عليه ؟ انه في افاعيه شاعر الرذائل ، كما قال فرانس في بودلير . وأفاعيه كالحيّات كلها ، حسن ملمسها وفي انيابها العطب . وبضد الحيّات كلها لأن سمّها ترياق الحياة ، ولا بدّ لها منه ...

والافعى الاولى هي دليلة ، صاحبة شمشون ، وبها يصدّر الشاعر ديوانه . إن قصّة شمشون طريفة كأكثر قصص التوراة . بشّر به أمه العاقر ملاك الرب، ثم ظهر لها ، ولم يدعها قبل أن ترك لها وصفة للأكل خوفاً على الجبّار في البطن . حرّم عليها الخمرُ والمسكر وأكل الشيء النجس لان ابنها العتيد مخلّص – عفواً ، مخلص صغير – إنه نذير الله في البطن فلا يعلو موسى رأسه وهو يخلّص إسرائيل من

الفلسطينيين .

أحبّ شمشون امرأة من بنات الفلسطينيين ، وفي طريقه اليها لقيه شبل أسد فحلّ عليه روح الرب فشقّه كالجدي ، وبعودته من عند الحبيبة اشتار عسلاً من جوفه فأكل وأطعم اباه وامه ، ثم تركته تلك المرأة فغضب على قومها وأحرق بيادرهم وزروعهم وكروم زيتونهم . أمسك ثلاثمائة ابن آوى وجعلها ذنباً إلى ذنب ، ووضع مشعلاً بين كل ذنبين في الوسط ثم أضرم المشاعل ناراً . أرأيت ما اصعب العمل ؟ ولكنه شمشون الجبّار ...

وتهدّد الفلسطينيون قومه فسلّموهم شمشون مربوطاً بحبلين جديدين فقطعها كخيط القطن ، وهجم فقتل بفكّ حمار ألف رجل منهم . وعطش شمشون ، قاضي إسرائيل ، ففجّر له الرب ينبوعاً . ثم نزل الى غزّة ورأى هناك امرأة زانية فدخل اليها ، فكمن له اعداؤه عند باب المدينة ، فقام في منتصف الليل ، واخذ مصراعي باب المدينة والعارضة ، وصعد بهما إلى رأس الجبل .

واخيراً احبّ امرأة في وادي سورق اسمها دليلة ، فصعد اليها اقطاب الفلسطينيين بعد ما اعياهم امره ، وقالوا لها : تملّقيه وانظري بماذا تكون قوّته العظيمة فنعطيك كل واحد الفاً ومئة شاقل فضّة .

وعرفت دليلة ان قوّة شمشون في شعر رأسه ، فأنامته على ركبتيها ودعت رجلاً وحلقت سبع خصال من شعره ، ففارقته قوّته ، فأخذه الفلسطينيون وقلعوا عينيه . واخيراً جاؤوا به في يوم عيد ليلعب لهم ، فقبض على عمودَي البيت فسقط عليه وعليهم ، ومن هنا جاءت الكلمة المأثورة : عليَّ وعلى اعدائي يا رب ...

مدار قصيدة شمشون على غدر دليلة به ، فشاعرنا ابو شبكة مهتاج للجبار القديم . ولا شك ان في حياة شاعرنا دليلة غدرت به فأغضبته حتى اسمعنا

هذا الشعر الخالد وسمى ديوانه أفاعي الفردوس.وما افاعي الفردوس غيرهن... ان كيدهن لعظيم .

يلتقي الشاعر العربي والشاعر الفرنسي دي فيني في التوراة عند دليلة ، ثم يفترقان . اجتمعا كما تجتمع الأشجار المثمرة في البستان ، فلكل منهما شاعريته وخواصه : وان وحّدهما الغضب على دليلة فقد تكون حالتهما واحدة ومصيبتهما واحدة ...

الفريد دي فيني من الشعراء الذين استوحوا التوراة كأكثر شعراء الفرنج ، ولكن له لوناً خاصاً ، كما ان لشاعرنا أبو شبكة لونه الخاص ، ولكل أديب أصيل ذات قبل كل شيء ، والشاعر الشاعر يخلق عالماً من العواطف والتأثيرات ، والقضايا ، والمفردات ، والانشاء الشخصي ، وهذا ما نراه عند الياس في « أفاعي الفردوس » ، فهو شعره المختص به دون سواه .

وإن سألني فضولي : ولماذا هذا اللون الأحمر القاني ؟ أجبته : هذا لا يعنيني ، ولا يعنيك . للفنان ملء الحرية في اختيار ألوانه وتنسيقها .

الفن التصويري ، وهو ابن عم الشعر ، يهرب اليوم من رسم التاريخ والأساطير . والياس لا يصور دليلة الامس بل دليلة اليوم — دليلته هو — وكأني به قد اخفق في إحدى معارك حبه الفاصلة ، فاشرأبت بعدها عاطفته المكبوتة تهدر وتعج كمغارة افقا .

الضغط يحدث الزحم ، وهذا ما تمتاز به قصائد أفاعي الفردوس من شعرنا المعاصر كله . فهذا الغضب الاسود من البقع الحمراء سيكون له شأن في الغد ... وكأن الافعى قد اضلته بمكرها فسلط عليها صواعقه هذه . وان حمدت الله على شيء فعلى ان مطاف صديقنا لم ينته به إلى احد ديورة كسروان حيث يقضي على عبقريته بين صلاة المساء والستّار .

إن من قرأ التوراة مثلي ، من الجلد الى الجلد ، يعيش في جو « أفاعي

الفردوس » ولا يشكو بأساً . ليت شاعرنا عرض لقصصهـــا الأخرى ، وأرانا صوراً كثيرة من صور الحياة ، فالتوراة مجموعة قصص رائعة لها كل يوم ممثلون عبقريون ...

ان عنوان « افاعي الفردوس » يذكرنا شارل بودلير في « زهور الشر » ، ولا ينقص شاعرنا إلّا طلبة الشيطان . أما « الجيفة » وهي أشهر قصائد بودلير فتقابلهـــا « قاذورة » أبو شبكة وهي مجموعات جيف . في « القاذورة » يكتمل الفن لشاعرنا ، وهي على غير طراز قصيدة شمشون التي نعود اليها ، فهو يخلق لنـــا فيها محيطاً مخيفاً من طراز بيئات « لامّنه » خيالاً ، وتعبيراً هداراً ، ورهبة يقشعر لها الجلد . واليك مثلاً منها :

فألفيت دنيـا من فواجعها الورى	على بابهـا لوح من الرق اسود
قرأت عليه أحرفاً خطها اللظى	يروعك منها اثنان «سجن مؤبد»
فطوفت في غمر من الليل والخنا	يعربد والارجاس ترغي وتزبد
وللحمإ الغـــالي نشيش ورغوة	كأن الورى مستنقع يتنهّـــد
وأغمدت في صلب الدجنة ناظري	وفي كل جفن لي من الهدب مبرد
فأبصرت أطباقـــاً تعمدها يد	أصابع من عظم وتصبغهـا يد
صباغ يفور الخزي منه ملاصقاً	اذا علقت فيه النواظر تجمـد
وشاهدت في الاطباق مفسدة الورى	تمور بها الديدان سكرى تعربد
مقاذر تمشي في الحيـــاة طروبة	تغني وأصـــداء القبور تردد
هم الناس في الدنيا تهاويل حنطت	بكيت عليهم في جحيمي وعيّدوا
وما هذه الدنيا يذرّى رمادهـا	لريح الفنا الا جحيم مرمّـــد

أسمعت هذه الموسيقى الغريبة ؟ أأدركت هذا القران المبارك بين الالفاظ ؟ وهذه الصور الرهيبة ألا تمثل جهنم على الارض :

وللحمإ الغـــالي نشيش ورغوة كأن الورى مستنقع يتنهـــد

فالورى مستنقع يتنهد ، والديدان سكري تعربد ، والدنيا جحيم مرمد ، لولا بقية مشبوبة في شهوة الطين — الانسان . فهذه الصور والتعابير والكنايات التي خلقها الشاعر هي ابعد مـا يطمح اليه الفنان . فلا يلائم محيطه المختار الا هذه الالفاظ المنتقاة ، التي تمـلأ الفم فلا يتملص منها الا بجهد وعناء . فهي في مكانها مع اخوتها على حد قول المثل العربي : وافق شنّ طبقه . وهذا هو العمل الفني .

وفق الشاعر في « اخراج » قصيدته هذه فجاءت كأنها القصة ، لها ما لهاتيك من حدود ومعالم ، فهو في « القاذورة » شاعر وفنان معاً .

وما هذه القاذورة ؟ انها محيط عبقري خلقه الشاعر خصيصاً ليضع فيه ثلاث طبقات من الخلق : النساء ، واشباه النساء في الكيـد والمكر ، ثم الشعراء . وفي ختامها يغضب الشاعر لعبقر الممسوخ ويصرخ صرخة المسيح حين هزّ السوط في الهيكل ، ويقول مثله :

وشاهدت اشباح السماء كئيبة   عليك باسواط الاراجيف تطرد
ففيم أزغت النفس عن نهج قدسها   فصارت مغاراً سافلاً وهي معبد

كنت ارجو لهذه القصيدة الجنيّة ختاماً اروع وازخم ولكن « سافلا » ضعفته .

٣

قال الحريري : عدت الى اصحابي عود الرائد الذي لا يكذب اهله ، ولا يبرقش قوله . إذن فلنصدق ولا نبال ، فالناقد رائد ، اهله الذرية .

انا راجعون إلى ام الديوان قصيدة شمشون ، فهي اكبر افاعي الفردوس

واعظمهن خطراً . افعى طرشاء لا تسمع صوت الحاوي ، ولكننا سنعالجها ببعض ما اوتينا من رقى . اذا قابلنا بين شمشون ابو شبكة وشمشون دي فيني رأينـا قصيدة دي فيني تنهج نهـج القصة وسمتها ، بينا شاعرنا العربي لا يخرج في شمشونه عن نمطنا . تفيض عاطفته وتطغى فتجتـاح سدود الفن .

والشاعر حر في عمله فهو لا يكتب قصة جبار اسرائيل ، بل يتوسل بتصرعه الفذ ليصب قِدر سخطه على رأس « دليلته » التي تحطمت كبرياؤه امام جحرها :

ملـّقيـه بحسنك المأجور   وادفعيه للانتقام الكبير
ان في الحسن يا دليلة افعى   كم سمعنا فحيحها في سرير

المطلع رائع ، والقصيدة كلها بركان متقد يقذف الحمم فلا يجرؤ على الدنو منه الا المغامر . أنـّى اتجهت في مقاطعها تترامى امامك قوافيهـا كأنها الصخور تقـذف من منجنيق . فعاطفة الشاعر تفح كالافاعي في الرمضاء ، وبالعاطفة يحيا كلام الفنان وتتحرك شخوصه ، انها لحمـة الادب الحي .

لست انقل لك منها شيئاً سوى البيتين السابقين ، فالقصيدة محكمة الحبك لا يسوغ تفكيكها . ولو قال الشاعر « راوديه » بدلاً من « ملقيه » امن العثار ولم تصطدم سفينته بصخرة القاموس ، وكذلك « الشهّاء » فهي لا تصلح سداداً لهذا الموضع ...

وفي « الافعى » تتكشف لنا الأجمة عن حنش ، والعياذ بالله . افعى دونها حية ابن عوانة ، وعلى باب جحرها تيس ذو قرنين ، كأنه صاحب امرىء القيس يغط غطيط البكر شد خناقه ...

في هذه القصيدة انفجارات يسمع دويها من بعيد جداً ، ويرى الاشتعال

الذي تحدثه من اميال عديدة ...

في هذه القصيدة التواءات وتثنيـــات كانسلال الافاعي ، وانتقالات فجائية من نوع حمل الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، او الالتفـات . ولا عجب إن طابق الاسم المسمى فهي افعى :

اجل سيراك الليل بعدُ تضمها ويبصرك المصباح تعصرها عصرا
وسوف ترى فيك المآثم نعجة قد التصقت في بطنها حية سمرا

مدهشة هذه الحية السمرا ... وانا ، على تسامحي في الفن تسامحاً لو حلم ببعضه ابو نواس من عفو ربه لفاز بالجنة ، كنت اؤثر الا تكون هذه القصيدة في الديوان ، فما فيها الا تصوير انتقام مرٍّ مخز . ولكنها في كل حال إحدى صور الحيـاة الصادقة . وشاعرنا يرى في الاعتراف منجاة ، فاستراح حتى من خطيئة الفكر ، وهو يقول في مكان غير هذا :

فرحت أسأل نفسي الدفـاع عن كفراني
فـلم اجد من يحامي عني سوى بهتـــاني

اما في قصيدة « في هيكل الشهوات » فتهدأ ثورة الشاعر التي لم اشهد مثلها في تاريخ ادبنا ، ويدهشني قوله بعدما أقام الدنيا واقعدها :

لي مهجة كدموع الفجر صافية نقاوتي والتقى امٌّ لهـــا واب
فكيف اختلس الحق الذي اختلسوا وكيف اذأب عن لؤم كما ذئبوا

سنحاول ان نصدقه ولكنها ثخينة لا تبلع . ان الاعتراف يمحو ذنوباً كثيرة وكبيرة . ومـــا احلى قوله فيما بعد لهذه الافعى الراصدة في شق الحائط للفراريج والزغاليل البريئة :

صبّي الخمورَ فهذا العصر عصر طلى اما السكارى فهم ابناؤه النجب
لا تقنطي ان رأيت الكأس فارغة يومـــاً ففي كل عام ينضج العنب

لست اشك ابـــداً ان هذا البيت الاخـير من الابيات الخالدة ،

ولو عاد النابغة الى قبة عكاظ لقال لصاحبه : انت اشعر العرب يا ابن اخي في هذا البيت ...

ليت الشاعر قطم قصيدته هنا ، بل يا ليته استغنى عن قوله :

قد اشرب الخمر لكن لا أدنسها   وأقرب الاثم لكن لست ارتكب

متى وجد النص بطل التأويل والاجتهاد يا الياس ... ولعل الخمر المعنية فارضية ، فالصوفيون أصناف ، وشاعرنا من الصوفيين الحمر ... اما قوله : واقرب الاثم لكن لست أرتكب ، فيشبه قول عمر ابن ابي ربيعة لأخيه حين جزع عليه من النار التي وقودها الناس . عمّر الله شاعرنا ليخرج لنا من افاعيه ما يبزّ حية موسى .

ان ابو شبكة من سلالة امرىء القيس وعمر ، وعلى يد هولاء ثلاثتهم تمت عندنا فصول الرواية الدائمة . وأظن الياس لم يُبق في قرارة الكأس شيئاً ، وان لم يحطمها على شفتيه كصديقه بشاره الخوري ...

ليس لالياس ابتهار أمرىء القيس وعمر ولا قصصهما ، فأفاعيه أشبه بمجمل انباء المساء منها بوصف المعارك المفصل . ولئن كان يفوح عبير المسك وريّا القرنفل من جو الشاعرين الاولين فجوّ الياس تفوح منه رائحة البهار والفلفل . وصاحبنا ليس كالشاعرين القديمين في وطره عندهن ، ولكنه مغلوب يستعدي على صاحبته الدهر ليقتص له منها .

وفي سبيل هذا الانتقام يضحي بالكثير من ذاته ليستعجل هرم تلك اللعينة قبل أوانه ، ويرى تلك الافعى عجوزاً درداء أكل الدهر حديقتها السليمانية المسيَّجة بالسوسن ... وهذا ما يقوله في الشهوة الحمراء :

هاتي من العهر أشكالاً ملونة   نهر بها بعضنا بعضاً وننهدم

ألا يذكرنا هذا بأخبار النحلة التي تؤدي مهمتها وتموت ؟ ثم يقول :

سترجعين ولكن مثل آمالي   جوفاء مشلولة في جسمك البالي

٤

ذكر التي اختصرت عمري بشهوتها   وخلدت عهرها الدامي لاجيال

وقبل ان نبرح هذا الهيكل الدامي نقول : ليته لم يقوّل « أم طفل » ما قوّلها إياه لذاك البريء ، فتحت « في كل عام ينضج العنب » ما يكفي ذلك الحزين ...

ان عنـد شاعرنا كثيراً من هذه الفجوات التي تحفرها صواعق الفن وتقيمها وادياً عميقاً بين الصورة والفكرة ، بين الكلمة والمعنى ليحلّ فيها الانفعال الشعري . والذي لا يستطيع القفز فوق هذه الاودية السحيقـة لا يخلق شيئاً من الفن .

اللهم شدّد ظهور شعرائنا وركبهم !

اما « سدوم » فهي اخت شمشون قوة ورعباً وفحيحاً :

سكرت بك الدنيا سدوم فكلها   زمر على طرق الحيـاة متعتعه
وأثرت حنجرة الفجور فاطلقت   حممـاً على نغم الجحيم موقعه
أسدومَ هذا العصر لن تتحجبي   فبوجه امك مـا برحت مقنعه
قذفتك صحراء الزنى بحضارة   ثكلى مشوهة الوجوه مفجعـه
بؤر مسترة الفساد بخدعـة   نكراء بالخز الشهي مرقعـه

ثم ينثني الشاعر على نفسه ليشركها في هذا السمر الراقص فيهتف :

أسليـلة الفحشاء نارك في دمي   فتضرّمي ما شئت ان تتضرّمي
انا لست اخشى من جهنم جذوة   ما دام جسمي يا سدوم جهنمي

طوفت بي ميتاً بأروقة اللظى فحملت تابوتي وسرت بمأتمي
وعصبت بالشفق المجمر جبهتي فرفعتها في عصري المتهكم
مهلاً كلانا يا سدوم مسلح فلظاك في جسمي وثأري في فمي

وهذا سلاح الشاعر . واليأس من جسمه ، كأم الجاحظ منه في جهد جهيد . ومن مزايا سدوم هذا الانسجام الرائق والتسلسل المتدفق ، والتقطيع الموسيقي ، فكأنك تسمع سلماً موسيقياً يتصاعد بك رويداً رويداً حتى تبلغ القمة — القافية .

ان ديوان افاعي الفردوس وصف نفس في جميع أطوار الشباب ، ووحدته الشاملة في وصف اضطرابات تلك النفس الجائشة حيناً فحيناً . فكأنه ينفس بهذا الشعر عن تلك النار المحتدمة في صدره فلا ينشق مرجله . ومن الغبن الا ينظر إلى هذا الديوان كفكرة ينثرها الألم لينظمها الشاعر . ان فيها عصارة قلب شاعر مفجوع . وعلى شاعرنا الامين ان يصرخ كابن الرومي :

أأفجع بالشباب ولا أعزّى لقد غفل المعزّي عن مصابي !

وكأنني أرى امامي على كل صفحة من صفحات ديوانه نقطة دم تغا . ليست قصائد « افاعي الفردوس » مجموعة قصائد وانما هي قصيدة وا ي قصائد ، تمثل شقاء الشباب في حبه المبكر . وقد اعترف شاعرنا اعترافاً كاملاً عاماً وعلى مسمع من الناس . أرى الناس جميعاً ذنوبه وخطاياه ، واعترف كما كان يعترف المسيحيون الاولون للاخوة جميعاً ، وكما اراد ان يعترف فولتير ولم يسمع اعترافه ... غفر الله ذنوبه — ان كان هناك ذنب غير الفن .

قد يرى غيري في افاعي الفردوس سماً زعافاً ، ولكنه اذا كان من المؤمنين حقاً فانه يشرب السم الناقع ولا يؤذيه . والسموم في احوال

شتى تكون علاجاً مقوياً . وهذا شاعرنا يخالجه شيء من هـــذا فيخاطب « الطـُرح » :

> َفلِم جئت في سحنة المسوخ حطـَّمت حلماً نما على احداقي ؟
> ألأني بذلت حبي ولم اطعمك منه سوى الفتات البـــاقي ؟

رحم الله داود ... اذاً الشاعر مرتاب ، يشك اذا كان مـــا حدث عقاباً لتبذيره ، ومتى كان الشك فهناك الضمير الحي الذي لا يموت :

> ان في قلبيَ البغيّ خيالا   من عفاف ما فاجرته البغايا

عمد الشاعر إلى تمثيل شرور الحياة بأقبح أشكالهـــا ، وساعده خياله الجامح فخلق ما خلق . كان شاعر الرؤى والليل ، شاعر الرعب ، المتأثر برؤيا يوحنا ، وأنبيـاء التوراة . صوّر شاعر الافاعي نزواته الظاهرة ولم يتعمق في تصوير الخلجات الباطنية لانه حفل بالنتيجة وترك المقدمات ، وكثيراً ما يستغني عنها الشاعر .

صوّر النفس الانسانية في مباذلها ، وقد وجهته الأقدار في هـذه الى الطريق فـكان ديوانه – كما قلنـــا – اعترافاً عاماً استحق لاجله الغفران الـكامل ، لأنه أتمّ العقوبة التي فرضها على نفسه باخراج « الالحان » ديوانـــه الجديد ، تلك النغمات الشجية كاجراس الغروب ، النقية كندى الصباح .

ان شعر « افاعي الفردوس » يظل حياً بصوره المرقشة الراعبة والوانـــه الغريبة وشدته الجهنمية . ان شيطان صاحبنا كبير ، وكأن الشيخ لوسيفوروس وجه اليه بأنشط رجاله وأنبغهم ... وان نقص هذا الشعر بعض اللمعان احياناً فهو يمتاز من غيره بلون خاص وبصبغة يتفرد بها من أصباغنا كلها ،وحسبه هذا . حسبه ان له فناً قائمـاً برأسه ، لا شريك له فيه ، فيشقى كما شقي في حب « ام طفل » جزاها الله ما تمناه جرير لام عمرو ..

وبعد فليست حكايات الياس في « افاعيه » أشد خطراً من حـــكايات

اوريـاما . وأين توبة النواسي من توبة شاعرنا ؟ ان توبة ابو شبكة أشبه بتوبة ملافنة البيعة :

رباه عفـــوك اني كافر جاني جوعت نفسي وأشبعت الهوى الفاني
تبعت في الناس أهواءً محرمـــة وقلت للناس قولاً عنـــه تنهاني
ولم أفق من جنون القلب في سبلي الا وقــد محت الاهواء ايماني
رباه عفـــوك اني كافر جاني

ما هذا شعراً، هذه صلاة. ماذا قلت؟ اني لاستغفر الشعر، فما الشعر الحقيقي الا صلاة . ثارت نفس الشاعر على امرأة هشمته ولكن جراحـــه استحالت شعراً حياً . فافتدى الفن بدم قلبه الكريم ، واعتقه من عبودية الكـــلام ، وعبودية النفاق وعبودية التقليد .

وكم ولد الايمان من الكفر ، فهوذا الشاعر يهيب بابليس صديق الشعراء :

حـوّل خيالـك عني ولا تخيّم عليـــا
فليس أهلـــك مني ولا اللظى من يـديا
لم أغش في النفس مأثم ولم اتادم رجالـــك
ابليس ليست جهنم داري ، فحوّل خيالك

ألست ترى شاعرنا لاهوتياً جديداً يعتبر النفس غير مسؤولة عن خطـــايا الجسد ؟ فلينعم بالاً فالله غفور وهو القائل : ان كانت خطاياكم كالقرمز فـــأنا ابيضها كالثلج . ابشر يا الياس فما ضحيت من حُمر النعم سيكون قرباناً ومحرقة تصعد في لهيبها إلى السماء كالملاك الذي بشر بصاحبك شمشون ... بربك قل لي : أين انت في احرارك من الجدلية الارجوانية ؟..

وبعـد ، فهل لصاحب « أفاعي الفردوس » من فلسفة ؟ أيرمي يا ترى إلى تطهير الجسد بالذنوب ليضعف وتقوى النفس ؟

للاستاذ في ديوانه منهج يسير عليه ، ولكن المصابيح المنصوبة في دهاليزه

حمراء كلها ... انــــه لاهوتي في الدينونة ، وصوفي احمر في معظم قصائده ، ونواسي في توبته ، وفيلسوف في صلاته الحمراء :

فخّارة جبلت بالدمع والطين — من عهد قايين او من قبل قايين
ما كان اسكندر فيها سوى شبح — يحجّب الشمس عن عيني ديوجين

الى ان يقول :

الناس واحسرتاه — اثنان مختلفــان
أعمى له مقلتان — في العقل مبصرتان
ومبصر اظلمتــه — عينان لا تريان

وفي حمارة القنوط يصرخ الشاعر بربه :

ادعوك والظلمة الحمراء تحرقني — فـلا تجيب وتلوي لا تتجيني

ويلاه كل شيء احمر ، حتى الظلمة ... ترك شاعرنا الرياء ووقف عارياً امام عين الشمس : فما وارى ولا وارب .

انه شاعر يريد ان يقول شيئاً غير الالفاظ ، فهو لا يخلق لــــك جواً شعرياً ويتركك تتخبط فيه وحدك . انه لا يحجم عن استعمال الملعقـة ... اثبت لي ديوانه ان ديواناً صغيراً يستطيع تصوير نفس كاملة فلا حاجة الى آلاف البيوت ومئات القصائد ، اذا صدق الشاعر .

ان صاحب « افاعي الفردوس » أصدق شعراء اليوم على الاطلاق ، وقـــد يكون اصدق من اعترف ، من اغوسطينوس حتى جان جاك . واذا كان كل ما نبدي ونعيد مبنياً على الغريزة الجنسية فأبو شبكة في افاعيه شاعرها المنشود . وليت فرويد يحيا ويتعلم العربية ، ففي صرخات شاعرنا مرعى خصيب لعلمـه الذي يشغل الناس اليوم .

شغلت العلاقة الجنسية بال شاعرنا فوصف نتائجها ولم يعبأ بغير ذلك فـكان في بحثه النفسي سلوكياً . هو في هذا الديوان مهاجم عنيف لا متغزل مستعطٍ ،

يغلب عنده الذوق الحسي على الذوق المعنوي . وهو في كل حال لم ينس شيئاً ولم يخف شيئاً .

لا اشايع الياس في رأيه بالمرأة ، فهذه المسكينة ذهبت ضحية الاساطير التي خلقها الذكور ، فرافقتها اللعنة طول العمر . ليس من العدل ان تشرب من البئر وترمي فيها حجراً ...

وأخيراً نقول ان شعر « افاعي الفردوس » منخّل محكك وصاحبه مغيظ محنق ككل من ابتلي بحب حاد تواكبه الغيرة كما تواكب المدرعات بواخر الشحن ...

واني لاخرج من هذا الدرس متيقناً ان لنا مدرسة شعرية جديدة ليس لها من اللغة الا المادة الخام تفصلها على ذوقها وهواها . اما تأثرها بآداب الامم والشعوب فلا شك فيه بل هذا ما يجب ان يكون لتدبّ الحياة في ادبنا ، ونخلص من معرض المومياءات التي تتقزز منها النفوس .

وقصارى الكلام ان صاحب « افاعي الفردوس » شاعر رصين ، قوي الخيال ، حاد العواطف ، جامح الارادة ، احدث في الادب العربي اثراً جديداً سيعمّر مثل متوشالح .

واخيراً ما لهذه الكلمة تتقدم وتردها ؟ ما لنا لا نمنحها الحياة ؟ فلنقلها : ان الياس ابو شبكة ليس بالشاعر المتمطي المهروق ...

الياس أبو شبكة
شاعر إلى الأبد

وجه اميل إلى الطول منه إلى الاستدارة ، يزينه أنف ذو شأن نبيه ، وان لم يبلغ شأو أنف ابن حرب. وعينان لا تستقران كأنهما محاجر مسك ركبت فوق زئبق . أما أديم ذاك الوجـــه فترابي اللون ، نحاسي او كما قال ابو تمام في وصف عامورية المحروقة .

ضوء من النار والظلماء عاكفة   وظلمة من دخان في ضحى شحب

شحوب وأي شحوب ! . ولماذا لا ، ما دامت الحرب قائمة على قدم وساق في ذلك الجسد النحيل الذي كان ضحية العين والقلب ... معركة دائمـــة بين الكريات البيض والحمر كان محرقتها ذلك الهيكل الذي عرفه الناس باسم الياس ابو شبكة .

يجثم رأسه البين بين ، فوق كتفين كأنهما ميزان معلق في الهواء ، فالكفتان دائماً تترجرجان ، وقلمـــا رأينا القب على العاتق ... اما الجبهة فمجعدة ، ولكنها تناطح الجو ، فالشمم في ذاك العرنين ما فـــارق صاحبه حتى على فراش الموت .

اذا رأيته يمشي وشعره كالصوف المنفوش ، يهرول موقعاً خطاه على نقرات

عصاه ، او يسير الهوينا عارضاً عصاه السوداء ، معلقـــاً نظره بأذيال السحب كأنه يومي اليها لتنزل اليه ، حسبته عرّافاً يهيم مع الارواح في الأبراج العليـا لا شاعراً يعيش في برجه العاجي .

كان إذا قال لك : حياك الله وبياك ، وتلك كانت تحيته التقليدية ، تخال انك قادم على شرّ . حتى إذا ما قعد واستراح ، اخذت غيمة السويداء تنقشع رويداً رويداً ، ثم يكون الصحو التام .

كان مرهف الحس قد تغضبه كلمة لا تحسب أنت لهـــا حساباً . أما إذا انتقدت شعره ، او فاضلت بين نثره وشعره فأنت عدو لدود ، ولا صلح حتى تقوم ناقة صالح ...

خلق شاعرنا العظيم ناريّ الشعور لا يحتـاج إلى أكثر من عود ثقـاب ليشتعل ويطير شعاعـاً . فهو أرق من النسيم متى راق ، وأجن من الأعصار متى ضاق .

التقينا ، قبل ظهـور الداء فيه ، في دار المكشوف فقلت له : استعـد لرثائي ، وامح من قلبك ذنوب النقد، فالموت غفّار . فأجاب : أنا مستعجل . ارثِ أنت وكن منصفاً .

كان يقول لي ، كلما اجتمعنا ، انه أعـد رسالة جواباً على نقدي ديوانـه « افاعي الفردوس » وكنت كلما رأيته اطالبه بها وأسأل أين هي ، فيعبس ولا يضحك كهند عمر حين يقول : بعد غـد ... ثم مضى لسبيله ومـا جاء ذاك الغد ... فـكم أنا مشتاق إلى معرفة ما فيها .

ومرض الصديق العزيز فعدتـه مرتين ، وقد علقت بذهني صورة ذلـك الـكاهن الذي دخل ليصلّـي له ، وأنا عنده ، فاذا بشاعرنا ينسى أنه مريض فيقعد في فراشه بخفة عجيبة ، و « يصلّـب » برشاقة كأنهـــا لمع اليدين الذي تراءى لامرىء القيس ... فخلت انني أزور الشاعر الفرنسي فرلين قبـــل

الاحتضار .

عاش الياس للحب والشعر ، ولست أدري من الذي أفضل منهما على الآخر، أحب الياس الذي أحيا شعره ، أم شعر الياس الذي خلّد حبه ؟

كان الياس يعزف على أوتار عديدة ، فهو في « القيثارة » و « الالحان » غيره في « أفاعي الفردوس » و « غلواء » ، وهو غير هذين في « نداء القلب » و « إلى الأبد » . كان شاعراً هائجاً كالنمر في الأفاعي وغلواء ، وحسبك منه هذا البيت :

ترابُ القبر أنعم من فراشٍ   على جنبيه ثعبانٌ وحوت

ثم صار كالبحر الساجي في « الألحـان » و « نداء القلب » ، وأخيراً استحال حبّاً خالصاً في « إلى الأبد » . إن شعر أبو شبكة كلّه مستمدّ من شؤون حياته وشجونها . إنه هو نفسه موضوع شعره ، فما خرج قطّ من حيز ذاته . وصف أفراحه ، وما أقلّها ، ووصف آلامه ، وما أكثرها . إن حبّه لحبّ باكٍ . وإذا كان لكلّ شاعر قطب تدور عليه رحاه ، فمحور شعر الياس الحبّ . هو الشاعر الرومنطيقي الصرف . متأثّر بالتوراة مستغلّ لهـا كالرومنطيقيّين العالميّين ، وكم في التوراة من مرعى سمنت عليه الرومنطيقية . وكما تدلّل بعض الشعراء على ربّهم كذلك فعل الياس في بعض شعره ، وأخيراً مات وملء قلبه رجاء وايمان .

ترك شاعرنا الياس أثراً بعيداً في نفوس الشباب ، فقال الأديب الذي رحل منـذ أسابيع — الاستاذ فؤاد سليمان — حين ظهر ديوان أفاعي الفردوس : الياس أبو شبكة يسوق الشعراء بسوط من نار !

أحدث موت الشاعر اللبناني فراغاً كبيراً في دنيا الأدب فقام صديقه الوفي الشيخ فؤاد حبيش بطبع كتاب عنوانه : « الياس أبو شبكة » ، فكتبه معظم الأدباء البارزين معبّرين عن آرائهم في الشاعر الراحـل ، فكان الياس في نظرهم

جميعاً شاعراً كبيراً مهر الشعر المعاصر بطابع خاص. ولم يكتف الشيخ الحبيشي بهذا ، بل نشر في آخر الكتاب نتفاً من مذكرات ورسائل تلقي نوراً على زوايا حياة الشاعر فتنير الطريق أمام الداخلين إلى دهاليز شعره .

شعر الياس أبو شبكة وليد حالات نفسانية . كان ذا نفس متقدة وشعور حادّ ، فعبّر عن آلام لا حدّ لها ولا طرف . ينتقل من ليلة قيسية إلى ليلة نابغية ، والصبح منه بعيد . متأثّر بشعراء الفرنجة ، ولكنّه ما مدّ يده إلى حوائجهم وان اشبههم في حبّهم الصاخب . يعرف ميسه وبودلير ، ويستلهمهما ولكنّه لا يشتهي مقتنى غيره فيقطع منه ما استطاع . ينحو نحو الفرد ده فيني في استيحاء التوراة ، ولكنّه لم ينظم الموضوع عينه . لم يذكر سدوم ، ولا دليلة وشمشون إلّا لغرض في نفسه . فهو لم يعرض كغيره لبنت يفتاح ليقول في موضوع ما ، بل لأن له هناك مأرباً .

في خلقه اباء حتى العنجهية ، يريك نفرات هي بنت عم الجنون كلالة ، في أحشائه آلام متقدة ، آلام من الحب ، آلام من أعباء الحياة ، حبّ مجنون يشمخر كوقيد البلّان ، يتعالى حتى يدرك السقف ثم يهبط رويداً رويداً .

أرأيت إلى القدر الفائرة وقد بلغت الجمام ؟ فنقطة ماء تردّها الى مستقرّها قبل الفوران . هيجان ، فوران ، غليان ، هذا هو الياس الشاعر .

شاعر رومنطيقي من الطراز الذي حدّده لانسون : غضب في الهوى ، وغرابة وقحة في الألوان المحليّة .

محموم يتذكّر في دور حمّى الحبّ الجديد جميع ما مرّ به من نكبات القلب . هوى عاصف يكبّ على الأذقان دوح الكنهبل ، ولا يترك من تياء جذع نخلة .

لم يكن يعنيه ما يعمله غيره ، يريد أن يبني بيته على هواه ، وهو معجب به ويريد أن يعجب به الناس . يحبّ العراك الأدبي ويشدّ شدّات لا بأس بها

ولكنّه لا يثبت ، يكرّ ويفرّ .

فرزم في القيثارة ، واشتدّ في أفاعي الفردوس ، ومشى الهيدبى في غلواء ، ورقّ في الألحان ، وأرسل السراج لهبة الانطفاء في « إلى الأبد » .

الشعر عنده لغة القلب ، وخيره ما كتب بالدّم . سوداوي المزاج ، لا ينظم إلّا مهتاجاً فيؤثّر شعره في قارئه . فموضوع شعره — من أوّله إلى آخره — الياس أبو شبكة . هذا ما ظهر لي إلّا إذا كان الياس نهماً لا يشبع . ولهذا أرى الكآبة سائدة على شعره .

هو شاعر كبير في وصف الآلام الحبّيّة التي يشوبه الشكّ في اخلاصها ، وكأنه اتخذ شمشون موضوعاً ليصف اهتزازات قلبه الجبارة ويتهدد بسقوط البيت على ساكنيه ...

يصوّر أحسن تصوير خيبة الحبيب ولكن بكبرياء فيها كثير من انسحاق القلب . وهو إذ يصور نفسه وبلاياه الايوبية تحسبه يحدثك عن غيره . قلب لم يهدأ ، وآلام ما انقطعت إلا لتتصل ، فكأنها الليل والنهار يتبع أحدهما الآخر ، وهكذا دواليك .

لست أشك أن فرح الياس لا يخلو من الألم ، فكأنه صورة الدنيا التي يسميها غيري وادي الدموع . لا يفكر ولا يتفلسف ، كثير النقّ ، والخلاصة ان الحب الباكي لهو حب الياس ابو شبكة ، حب شاعر « الى الأبد ».

لكل شاعر محور ، ومحور شاعر « إلى الابد » الحب فأبو شبكة لا يدع لغة اللحم والدم حتى في « الألحان » ، فيهيب بالفلاحين :

هيا احصدوا ، وانشدوا   الحب قلب ويد، والعمر زرع وجنى

وفي « المساء في الجبال » ينشد أيضاً :

اسمع في الوادي رنين الجرس   يذيب روح الله في المتعبين
فتنحني نفسي ويصغي النفس   ويطهر الحب ويبقى الحنين

هذه أبرز خصــال الشاعر الرومنطيقي . فهـو يرى نفسه في كل شيء من السنديانة حتى العجرمة . وهذا شاعرنا ، في « نداء القلب » يذوب قلبه في إناء من الهوى ويعرضه على الانس والجن . لم ينفق هذا الترياق حتى عند زملائه الشعراء ، فكان صاحبه أحق برزقه ، كما قال :

فأدنيته من مُرشفي وشربته وما زال ماء الحب ملء اناثي

وما دام له الحب فهو بألف خير لأنه :

إذا هجر الحب دنيا القلوب فما تنفع الحطم الباقية

لا يقول شاعرنا في الحب لأجل الشعر والفن ، بل لأنه شكوى تباريح ، وعرض ملاذ ، فهو في أناشيده كالطير في تغريـده ، والجمرة لا تحرق إلا في موضعها ...

أرى بين اليـاس ابو شبكة وعمر بن ابي ربيعة قرابـــة فنية دموية ... والفرق بين الشاعرين هو أن هذاك من الطيور القواطع وهذا طائر مقيم . هذاك حبيباته كولائم الأعراس — عبد هارب — منهن طعام يد ، ومنهن طعام يدين. وهذا يريد أن يجعل من واحدة فقط مأدبة سرمدية . ففي « إلى الأبد » سلام واطمئنان كأن الشاعر في ليلة القدر ، أطفأ الفانوس الأحمر وأسرج قنديلاً أنقى نوراً من قلب الألماس في خنصر الحبيبة .

لم يحدد شاعرنا حبيبته جغرافياً لأنه لا يخشى اعتداء على تلك التخوم ، ولم يحول وجهه صوب عرائس التاريخ — اللهم إذا استثنينا الاسم ليلى — لأنه لبناني يؤمن بالملكية الضيقة ، ولا يعرف الاقطاع والمشاع .

ما شبهت شاعرنا الا بوافـه — سكرستاني — ورع يعرف كيف يوقر الهيكل على أعين الناس ، فلا يمر أمام قدس الأقداس إلا متهيباً . جلـّل حبـه الجديـد بطرف من الجبّة الفارضية. حب عميق ، قريب بعيـد ، يتراءى كضوء مصباح ضئيل في ليلة سوداء . قد تطوّت تلك « الافاعي » وليس

هنا غير حب جديد ، حب ليس لتلك الانسانية فيه أقلّ وصف للجسد ، فكأنه من العالم الثاني . أفهمنا الشاعر ما يريد لأنه فاهم ما يقصد ، هو واعٍ ونحن واعون ، والحمد لله . لا يغمغم كالذين جعلوا من عشرات الألفاظ قبوراً للفكر الانساني ، فانقطع شرر الوحي . ان شاعرنا هنا غيره في « الأفاعي » و « غلواء » ، مع الاحتفاظ بالصلة الفنية والصبغة الشخصية . لا أنكر ضراوة معركة « إلى الأبد » ولكن جبهتها بعيدةعنا جداً ، فاتسمت بالسكون، وهنا سموّ الشاعر الملهم .

قال عمر بن عبد قيس : إذا خرجت الكلمة من القلب وقعت في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الآذان . فصرخة شاعر « الى الأبد » خارجة من الأعماق لتستقر حتى في أعماق الذين لم يبق عندهم غير فضلات المأدبة ... ان العاطفة الفائرة كالنهر المنحدر ، هــذا يصقل الحجارة حتى النخاريب منها ، وهذه عبّدت طريق الفن فجاء نشيد « الى الأبد » موسيقى خالصة .

أما الموضوع فوصف أحوال الشاعر في ثلاثة أعوام . شعر من أصفى الشعر وأسماه ، يصوّر الشعور الانساني في هذا النعيم المقـيم ، مع تلك المخلوقة : قلب يدق وعين ترى .

قاسهري فالعجوز نامت على المسند سهرانة . . . عليـها السلام

ان تلك المرارة وذلك الغضب لا تجدهما في « الى الأبد » . ان بطلة « أفاعي الفردوس » عينها شاردة ، ورأسها خفيف ، وصاحبهـا ، ككل عاشق ، عينه ضيّقـة ، فقام بينهما القرد ... أما هذه ، رضي الله عنها ، فراضية بما قسم الله لها .

ان الشعور الانساني يهتز كاملاً غير منقوص في هذه الملحمة الحبيّة ، إن صحّت التسمية . فكأنها أجزاء كائن حي ، يتمّ بعضها بعضاً . ان

عنوانها شغل بالي ، وليس هنا مكان هذا البحث ، وأرى شِعرها قـــد ارتفع الى ذروة الشعر الغنائي ولم يعرقل القصص سير الفن . هناك وثبات رائعة تدل على خيال مرح مرخى له الزمام . الشاعر طروب جـــداً في حبه الجديد ، يراه كيوم لذة ، دونه يوم دارة جلجل ، ولا عيب فيه غير خوف شاعرنا على انقضائه . وكأنه وسمَه بعنوان « الى الأبد » تفاؤلاً ، كما سمّوا القافلة والسليم .

أحسن الشاعر الى فنه وإلى الناس إذ خبّأ العمل ... فلم يقع فيما وقع فيه عمر ... استعان كالمصوّر اللبق بغلالات رائعة ولم يعمل بقول الوقاح من العاشقين « بحنا واسترحنا » ، فالبائح والبائحة يهتكان سبيل الحب .

ان « الى الأبد » واحات ، وبين الواحة والواحة فجوات وأحداث . وفي النص الأخير تذكـرّني الحبيبة بسذاجة الطفولة ، فشاعرنا يقص عليها ، وهي تقول : قل بعد ، ثم مــــاذا ؟ والشاعر يقص ويجيد ، فيسمعك ثرثرة الينابيع في الوحدة الخرساء ، وهكذا يكون شعر العاطفة ، ولمثل هــذا شبّهوا شعر عمر بالفستق المقشر ، في عصر الخشونة والضخامة .

يفتح الشاعر طاقة على الشعر الحديث ولكنه لا يطل منها الا عرضاً ، فشأنه في هذا شأن كبار الشعراء العباسيين ، له وثبات رائعة جـــداً لا يتعمدها ، وقد أحسن إذ دفع الينا نشيده الرائع بلا مقدمة . كان له عذر فيما مضى ، فعلى من يرسل « أفاعيه » أن يحذّر الناس .

أرى الشاعر ، اليوم ، في حرم ، ولعله تخيل ذلك فبدأ نشيده بالصلاة ، كأنه كاهن الحب الأعظم يصليّ قبل تقديم الذبيحة أو المحرقة . إذا قدّم ابراهيم ابنه محرقة ، فالياس — والياس نبي — يضحـّي بقلبه اليوم . ولالياس ، بعد المحرقة ، لفتة الى سواه كلفتة سميّه الى كهنة البعل . لم يقتل ولم يذبح مثله ، ولكنه اكتفى بالقول :

نحن عدن وهم مكان مريب   شقيت فيه أعين وقلوب

أما فاتحة هذا النشيد الحيّ ففيها دلال متناهٍ . سقطت فيها بين الشاعر وبين ربّه كل مؤونة وكلفة حتى أدرك مار افرام ، وفعل كما قال داود بعدما أكل الخبزين ... خبز التقدمة ورغيف أوريا ... — : القِ على الرب همّك وهو يعولك . ولكن أخا عمر زاد على داود شاعر التوبة عتاباً حلواً ، وجّهه إلى من على العرش استوى بقوله :

ان تكن تحرم العزاء المحبين   فلماذا تركت للشعراء
ربّ صنها وأبقها لي ظلاً   من حنان يمتد في صحرائي
وارفع الألسن الخبيثة عنها   والأذى في اللواحظ السوداء

وهنا يعتورني شك فأقول : لماذا قال سوداء ولم يقل زرقاء ؟ والكلمة المأثورة : العين الزرقاء كالسنان . إذا صدق الظن كانت عين هذه المليحة ، حرسها الله ، زرقاء . والله أعلم .

وبدلاً من أن يثور الشاعر ويتفلسف ليبرهن لنا أن حبه مقدس لا إثم فيه ولا حرج طفق يحدث ربّه غير متكلف وسأله أن يحول عينه عن كل انثى سواها ، وأن يسكّر سمعه عن الأنباء ليظل متمتعاً في نعيم هذا الحب المقيم ، ولكن ما كلُّ ما يتمنى المرء يدركه ، وإلى أين نهرب من وجه هادم اللذات ؟

أبو شبكة الكاتب

م تطل مدة هذا الاديب ولكنها كانت مملوءة بالروائع التي يزدهي بها تاريخ أدبنا. لقد أحدث شيئاً يذكر في هذا التاريخ. ذرّ نجمه على مقعد المدرسة فكان ذلك التلميذ المزعج الطماح، وكتب له منذ تلك الساعة شقاء من تدركه حرفة الادب، وابن اليسر لمن يكتب في مذكراته بلهفة انه قبض يوماً ثلاث ليرات لبنانية، وان إحدى الصحف شاهرته بخمسين ليرة، وهلم جراً.

كان شاعرنا ربيب بيت لبناني مستور. تدخل ذلك البيت، وهو ما زال كما تركه المورّث، فتراه حارة تدل على يسر صاحبها. فحيطانها مدهونة، وأرضها مفروشة بالبلاط الرخامي، وغرفها واسعة وعالية، و (الدار) فسيحة، وهذا هو طراز البناء البورجوازي اللبناني. كأنما أعد ذاك البيت الرفيع العماد ليأوي اليه شاعر ثائر شقي، بائس تأبى عليه أنفته ان يظهر امامك في مباذله، فاستطاب شقاءه، والشقاء هو الحياة بل لا لذة للحياة اذا لم يكن الشقاء.

سعى الياس إلى الوظيفة ليعيش مكتفياً، ولكن الوظيفة لم تستقبله ببشاشة، فلجأ إلى احد النافذين من رجال الدين. وبعد الف رح وتعال، كانت خيبة الأمل. فقال له ذاك الوسيط متهكماً: « اعمل خوري يا لياس »، فجن جنونه وكتب على أثر تلك المزحة السمجة مقالة داوية بهذا العنوان. ولما بلغ الثامنة

والعشرين كان في أوج سخطه على البشر ، فكتب مقالة عنوانها « أنا » مبدياً اسباب سخطه وحنقه على البشرية ، وأشار إلى هذه الحادثة ، قال :

« أقنعني احد المسودّين بقبول وظيفة ، فرضيت بعد ان اشترطت عليه الا يكلفني حفظ الجميل لجيش من الناس ، اذ لا طاقة لي على ذلك . فرضي ورضيت وبدأت المهزلة . جعل هذا المسودّ العظيم يحمّلني رسالات وبطاقات مقفلة الى المراجع حتى عيل صبري . واخيراً دفعني التطفل الحكيم الى فض رسالة فاذا فيها :

تظاهر امامه باللطف وعده خيراً لانه « زاحني » بطلباته وزياراته المتكررة . ماذا جدّ بمسألة فلان ؟.. اني اعلق اهمية كبيرة على نجاحه لأنه يستحق الالتفات ، ولا تنس انه خدمنا ايام الانتخابات ولا نزال بحاجة اليه . »

أجل هذا ما كان في تلك البطاقة ، ومثل هذا الحدث المخزي الدال على رياء البشر ومراوغتهم واستهزائهم بأباة النفوس هو الذي أسخط الشاعر الذي قال فيما بعد : « هذا هو احد الأسباب التي تدفعني اليوم وغداً إلى الثورة على البشر . أمحقٌ انا أم مخطىء ؟ أيجوز ان أصبح ساعي بريد مضحكاً بعد ان كنت بلبلاً وكناراً أغرّد لأطرب الناس ؟ »

واخيراً ينصح كل من تحدّثه نفسه ان يطلب بطاقة توصية ان يفضها قبل ان يكلف جيبه دفع اجرة سيارات .

قلت : ولعل ركض الياس وراء الوظيفة وإخفاقه هو الذي احنقه حتى كتب خير كتبه في النثر ، ذاك الكتاب الذي عنوانه « رسوم » وأظنه خير ما كتب في فترة عصبة العشرة . لقد صوّر فيه الكثيرين من الرجالات اللبنانيين من رؤساء جمهورية وحكومة ، ومن وزراء وأدباء . احدث هذا الكتاب ضجة كبرى في ذلك الزمان ، ولكنه لم يوصل صاحبه

الى وظيفة دخلتُها اعطنا خبزنا كفاف يومنا . فظل طول حياته القصيرة يذرع الأرض بين الزوق وبيروت مغنيـــاً على ليلاه .. اما كيف خلق ابو شبكه تلك الصور والرسوم الرائعة فهو يحدثنا عن تلك العمليـــة القيصرية بقوله : « لست من الكتبة الذين يستطيعون ان يخلقوا شخصيـة من غير ان يكون هناك موديل لها . فعندما افكر في موضوعي استعرض في مخيلتي شخصاً خبرته عن قرب ، واجعل شرحه كما اريد انا لا كما يريد هو . قد اضع في فمه كلاماً لم ينطق به في حياته ولا عهد له بمثـــله . وكثيراً ما سخـّرت لأجل ذلك عـــدداً من اصدقائي وصديقاتي وهو لا يشعر . فغضبوا علي وتجنبوني ، ولكني اعلم اني اذا عدلت عن هذه الخطة تجف مخيلتي وينضب قلمي او اصبح مقلداً مهذاراً . »

هذا هو الياس ابو شبكة الناثر الذي كان يكتب محنقاً وكأنه يلعب بالحكم . ضربة على الرأس ، نكزة في الخاصرة ، وطعنة يطير لها القلب ولكنها لا تقتل ، بل لا تؤذي . اما الياس الشاعر الرومنطيقي الثائر في افاعي الفردوس وغلواء ، والشاعر الهادىء الناعم في الى الابد والمريض الصامت ، فما اكثر من عرفوه ويعرفونه من الناطقين بالضاد ، وقد نقدت دواوينه سابقاً :

فاذا ركع فارلين حافياً في غرفته وصرخ : رباه ، هب لي البساطة ، فالياس كان يركع حتى في اشد ازمات مرضه هاتفاً : يا رب لا تُجزعـنّي كأس حبها . بل دعني اشربها حتى الثمالة الى الأبد

بقي عندنا الشاعر اللبناني الراعوي ، صاحب الالحان التي يضارع فيها فرنسيس جيمس . فهذه الالحان تنزل في هوة اذنيك لتستقر في اعماقك . ان هـذا الشعر اوحى به المحيط الذي نشأ فيه ، محيط الزوق وبكركي وحريصا ، وذلك الجبل الذي لا يقلع ثوبه الأخضر ، ومحيط جرود كسروان

حيث الفلاح اللبناني الاسمر يأكل خبزه بعرق جبينه ، فاذا تغنى اليـاس برنين الاجراس وأثرت به فهو ربيب القباب القائمـة حوله وحواليه . وكم تعلق بحبال اجراسها صغيراً ، وكم فرّ كالفراشات في تلك الحقول بـين المعاصر وعلى البيادر ، وها هو يردد صدى الحداثة والفتوة ويتغنى بذكرياتها .

كان الياس يحب الحياة ويهيم بها ، ولذلك عبَدَ الجمال في الجسد الانساني الذي هو مستودع الحياة والجمال الأسمى ، ومن تعلق بمحيطه الرائع تعلق الياس لا بد له من ان يقول في وطنه كله ما قاله الياس في ختام «الألحان» :

يا بلادي لك قلبي لك آمالي وحبي
وجهادي يا بلادي

إلى ان يختم هذا النشيد بهذه الصرخة الدامية :

طهّري اليوم دمي وغداً كوني فمي
يسترح فيك رمادي
يا بلادي

أجل لقد استراح ذلك الرماد ، ولكن اشعاعه يزداد مع الايام ، فلا سراج يضيء وينير بعدما ينطفىء إلّا الأديب والشاعر .

والذي يكبر بعد الموت هو الأديب الحق ، والشاعر المبدع .

والخسارة التي لا تعوّض على بلد هي ان يبكر ادباؤه في الرحيل ، ويبارحوا الديار قبل الموعد .

مات أبو شبكة ، شاعر الحب والألم ، حين نضج. مات حين رجونا ان يضيف إلى كتاب أدبه الحي صفحات جديدة باقية . فللشباب طعم ، وللكهولة دسامة ، وللشيخوخة حلاوة ان ظل العقل في الرأس .

فيا أخي الياس ، لا أعزي فيك أحداً غير لبنان الذي تغنيت بكل ما فيه من جمال أزلي ، وحسن أبدي .

أما نحن ، يا أخي ، فماذا فعلنا لك ؟ آه واأسفاه ، اننا نرى مجدنا في آثارنا المتهدمة ، وقد أصبحت انت واحداً منها .

ثم هانئاً وانعم بهذا الذكر فقبلك تمناه شاعرنا الاعظم فقال :

ذكرُ الفتى عمره الثاني ، وحاجته ما فاته ، وفضول العيش أشغال

لقد متّ فقير الجيب ، غني النفس ، ولكنك باقٍ . هــذا هو « الترمس » الذي نتسلّى به عن اللوز ، كان الله في عوننا .

أمين تقي الدين

عذرت الموت لم اوسعه ذاما　　جلال الموت ان تدع الملاما
رسول الخلد في الدنيا يؤدي　　رسالته إلى الدنيا لزاما
غشا لبنان يحملها فلما　　أطل الفجر مرّ بها لماما

هذا ما قاله أمين تقي الدين في الموت ، ونحن على دينه ، وفق الله رحلته وسهّل طريقه وعسى ان « يعود » الينا احسن حالاً ... فقد مرّ ببوتقة الدهر وخلص بغتة إلى عدوة الخلود . راع لبنان موت شاعره الأوفى ، فحامت العيون حول ذلك الفلك الصغير يخفق عليه بيرق الفن ولواء العبقرية ، وما لفه ليل العدم بذيل ردائه ، حتى نفضوا ايديهم من ترابه وانقلبوا عنه يرددون :

فيا لك نجمة لمعت فغارت　　فصارت في فم الدنيا ابتساما

يا صديقي الجديد !

ليت شعري ، اعلمت انك استحققت شكر لبنان ؟ أشعرت ان الجبل الذي لم تتحوّل عن حبه قط ، ولم تشرك به احداً ، ولم تضرب قيثارتك الذهبية الا لتمجّده ، أشعرت انه وقف امس حيال نعشك يقدر اخلاصك ، ويذكر فتاه الأمين ؟.. ضيعك حيّاً ، ولم يسمع صرختك المرة :

متى انت يا وطني مسعدي　　لقد افلتت همتي من يدي

ومتّ فجاء ليسعدك ، ولكن بالبكاء . وهذا حظ الاديب من دنياه .

ما كنت يوماً يا أمين ابا قلمون ، تودع الرائح ، وتستقبل الجائي . نشأت لبنانياً ، وعشت ما عشت لبنانياً ، ومت لبنانياً ، وحسبك انك القائل منذ ربع قرن :

كان في لبنان عهد طيب	رحم الله الزمان الطيبا
يا بني لبنان ، لبنان اذا	ما تباهينا دعوناه ابا
نسب شرّفنا بين الألى	قيل عنهم يدعون النسبا
مرّ بالدهر ابونا أمردا	وتمشى فيه شيخاً اشيبا
نحن للشيخ بنوه والوفا	ان يرى أنا بنوه الأدبا
انما نحن اختلفنا بيننا	حين يقضي العقل ان نعتصبا
فركبنا كل يوم مركباً	وذهبنا كل يوم مذهبا
كلنا يسعى إلى غايته	ليس فينا من يضحّي مأربا
ليس فينا رجل الشعب الذي	ان دعا الواجب لبى الطلبا
وجعلنا الدين فينا فارقاً	فتفرقنا به أيدي سبا
ويح لبنان اذا داع دعا	فبنوه عن بنيه غُربا

ما أمر خيبتك يا أمين ! لقد متّ في أعصب الازمنة ، في زمن عادت فيه الطائفية جذعة ، وهي تتمخض لتلد أشأم من غلمان زهير .

أرأيت كيف يصوّر أمته شاعر القوم ؟ ألمست الأسى يقرض فؤاده ؟ لم يكن امين إمّعة فيخلو من الهمّ ، بل كان راسخ العقيدة ، ضاحك الجبين كصنين ، ناضر الفكر ، صابراً كالارز يهزأ بالعواصف ولا ينحني تحت الثلوج ، لا تأخذ شمس آب شيئاً من ماويّته فيذبل . ان صباحه وظهره ومساءه سواء .

لا تخف يا امين ، فلا شيء يستطيع ان يذوي طيفك الدائم ، لا شيء

يفقدك هذا الجمال الذي نعجب به ، ولن يفتخر الموت بأنه رآك ذاويـــاً في ظلاله ، فالشعر الخالد يحمل اسمك وينقله من جيل الى جيل . وما دامت القلوب تخفق والعيون ترى فهذا الشعر يحيا ويحييك معه .

لم يبقَ من أمين ، بعد ما أعاده الموت أدراجه ، إلا الشاعر المشرق الديباجة الذي قال كثيراً من فاخر الشعر ونادر الكلام . نعم لقد مات الرجل ، لقد مات المدره ، لقد مات كل شيء إلا الشاعر .

كان أمين شاعراً مقلاً ، لا يسمع الناس شعره إلا اذا ابدع وأوتي شيئـــاً طريفاً . يسري شعره في الاسماع كما يستطير النور هادئاً رزينـــاً باسماً . كان أمين يعمل للتجديد يوم كان الشعر يرسف في قيود التقليد ، فهو لا شك من المجددين ، ولكنه لم يكن ممن يدينون بالطفرة ، فأسمع الناس كلاماً لم ينكروه وجديداً أكبروه . وإذا أرّخنا التجديد في الشعر كان من الذين حلّوه من اصفاده ، فحمله رسالة جديدة الى الوطن والمجتمع ، وارسله رائعاً تحسه ، ولا تستطيع تحديده .

أشرفنا على عالم الادب فإذا اسم أمين تقي الدين مـلء آذاننـا ، وشعره في أفواهنا نردده بين جدران مدرسة الحكمة التي جئناهـــا بعده . نظم استاذنا الجليل شبلي الملاط « الجمال والكبرياء »، ذلك الموشح الرائع الجديد، في حينه ، فنظم أمين « الجمال والتواضع » الموشح الآخر البديع ، فكانا حديث الناس في مطلع هذا القرن ، وبهما خطا الشعر في لبنان خطوة جديدة أعجب بها الناس ، ومشى الزمان ومشينا ، وها نحن حيث تعلمون .

كان أمين تقي الدين إذا سئل قصيدة يعد خيراً ، فان وفـّق وفى ، وإلا فيخلف ولا يبالي ، لأنه يؤثر الفن على العالم أجمع ، ولا ينشر الشعر إلا إذا رضي عنه . وقال أمين الشعر في اغراض مبتذلة ، ولكنه كان في كل مقـام يخلع على مقاله حلـّة من بيانه . تقول في نفسك : ما عساه يقول أمين اليوم ؟

أغير كذا وكذا ؟ وإذا به ينقلك الى عالم غير الذي ظننت ، وإذا بك تكبر ذاك الدماغ الخصيب .

خصت الطبيعة شاعرنا بإذن لا تكذب ، وذوق لا يغش ولا يخدع ، فقلّ في شعره النمش والبثور ، وخلا من الدمــامل والقروح . لزم في أكثره حدود الاعتدال فهو لا يبــالغ ولا يغلو ولا يقول مــا لا يحتمله الناس .

عرفت أمين تقي الدين في الخبر زمناً ، وعرفت شخصه منذ عامين وأشهر ، والشكر لمدرسة الحكمة التي جمعتنا خطرتين ، وكان آخر العهد منذ اسبوعين ، حيث قعدنا جنباً لجنب نتحدث ولا نحسب ان الموت يتلصص ليغتال أحدنا .

مات أمين ولكنه أدّى رسالته ، وإن قلّت كلماتها ففيها الغنى عن الكثير . كانت « زهوره » باكورة موسم التجديد في القــاهرة وإن لم تعمر فذاك عمر الزهور . وهــا هو يلحق بها تاركاً خلفه ما تتركه الحسناء المتطيّبة بعد مرورها ، وإن تمنينا فنتمنى أن نرى هذه الآثار مجموعة لنقول فيها كلمة صارمة غير مطـّاطة كهذه .

أما الذي نقوله الآن ، ولا رجوع عنه ، فهو ان أمين تقي الدين شاعر شاركَ في التجديد ، وهو من مؤسسي النهضة الجديدة ، وألمع شعرائها . ولو انصرف الى الشعر انصراف أحمد شوقي له ، وتهيأ له ما تهيأ لذاك لكان مثله قيدوم شعراء جيله . ولكن شاعرنا قال أكثر شعره مدفوعاً اليه ولو تركوه لعدّى عن أكثره .

لا نسأل الأدباء شيئاً لأمين ، فهو غير يتيم ، وامه مدرسة الحكمة اخت الرجال فستقيم له يوماً مشهوداً يذكرنا أيامه فيها ، ولأمين أيام مشهودة ، ولا عجب إذا جلـّى الأصيل .

وآخر ما سمعت من شعره العذب بضعة أبيات نظمها نشيداً ، رواهـــا لي صديقي وصديقه الاستاذ رشيد كنعان يوم السبت الماضي فحفظت منها بيتاً لعله كما أرويه :

خبّأت يا ليل فيك همي يا ليل من خبّر الصباحا

أجل هكذا بات أمين شجياً وأصبح خلياً . ترك همّــــه في فراشه وانسل غدوة كالضيف الخفيف الظل . هنيئاً له فقد استراح !

وإذا كان آخر العمر موتاً فسواءٌ طويــله والقصيرُ

ذكر الفتى عمره الثاني ... هكذا قال المتنبي ، ومن أحق بالذكر من أمين تقي الدين الذي خلف لنا أسرتين أدبيتين : أسرة عامة وهي هذه الذرية الأدبية التي كان لها الأمين أباً بالمثـَل ، وفي ذلك يخاطبه الشاعر الملاط :

أجبني ، هات . أنشدني جديدا أتسكت يا أمير الصادحات !!

نعم ، كان أمين أقدر شعراء جيله على إخراج موضوعه المبتذل بشكل يستهويك ويغريك . يسلـّم مخروقـاً ويعطي مجدداً ، وهكذا ينجو الشعر وتنفرج الأزمة ولا يبرح الشاعر من قمته . فأمين طاهٍ فنان يعدّ لك من إدام ضئيل ، ومؤونة هزيلة ، مأدبة تشبع العين والقلب .

كان شاعرنا نفاثاً في العقد البيانية التي يستعاذ بالله منها ، يزاوج بين الألفاظ ويقرنها قراناً مباركاً داعياً لها بالرفاه ، فتعيش أهنأ الأعمـــار وأطولها . أدّى رسالته في القطرين مبشراً بعهد الفصحى القديم الجديد ، فجمع في مجلته محصولاً نقياً يوم كان البيدر خليطاً من قمح وزوان وشيلم ... قالوا عن أبي تمام انه في انتقائه شعر ديوان الحماسة أشعر منه في ديوانه ، واني لأظلم الأمين اذا قلت ذلك في مجلته « الزهور » فقـــد اعتدل ميزان انشائه وانتقائه ، فما انحرف القب ولا مالت الكفة .

أما الاسرة الخاصة فينكشف لك سرها متى عرفت ان امين تقي الدين هو الأرومة التي نبتت عليها فروع اسرة تقي الدين الأدبية المشمخرّة . أما قام الى جانب امـين ابن عمه أحمد فكان شاعراً مجيداً من الطراز الأول ، ولا ننسَ أخا الأمين رشيداً فهو لو لم يطلّق الأدب لكان بزّ أبا نواس في الظرف والنكتة . ثم شبَّ في كنف امـــين ابنا أخيه الأديبان الكبيران الاخوان خليل وسعيد تقي الدين وهما اليوم ملء عين الزمن .. كسيفنا والقلم .

هكذا كان امين باكورة الادب اللبناني في حقليه العام والخاص ، وقد رفعت هـذه الباكورة قبل ابانها قرباناً لآلهة الشعر والادب فكانت كقربان هابيل برغم أنف قايين .

كانت نفس امـين الأبية حِملاً ثقيلاً عليه ، فكبرت همومه ولازمته كالتوابع ، فوصفها وأجاد . ذكرنا بالاعشى والمحلق حين قال :

أنا والهمُّ صاحبان كلانا صادق الود حافظ للعهودِ
ما افترقنا حيناً من الدهر حتى جمع الدهر بيننا من جديدِ
نسهر الليلَ صامتـين لئلا يكشف الليل سرنا لحسودِ

وكيف لا يهم رجل هو مثال الطموح اللبناني والاباء العربي ، فيقول من قصيدة لصديقه حافظ ابراهيم :

خلع الشقاء عليَّ كل لبوسهِ لمـــا خلعت عباءة الاعرابي

أليس امين ابن بعقلين التي تؤلف مع دير القمر وبتدين مثلثاً يذكرنا ، كلما ذكر ، بالامراء فخر الدين ويوسف وبشير ؟ ان شاعر لبنان يحس مجد لبنان لأن منظر وكري نسريه القشعمين يصبّحه ويمسيه . سمع امين من آبائـــه وجدوده أن اللبناني ، في ذاك الزمان ، كان لبنانياً فقط ، فآلمه تبدل تلك الحـــال فقـــال :

وجعلنا الدين فينا فارقاً فتفرقنا به أيــدي سبا
ويح لبنان اذا داعٍ دعا فبنـــوه عن بنيه غربا

ولما طغى الأدب على مخيلته حدد لبنان ببيت عندما رثى الشاعر اديب مظهر فقال :

ذكرتك في بـــلد يزدهي بالادب الغض على فقره

ولما صدرت فتوى فرساي وعدّ لبنان بالغاً غير رشيد ، لم يذعن شاعر لبنان لهذا الحكم، وكيف يخضع وهو ربيب شماريخه ملاعب الحرية ، وابن بعقلين تلك الجنة المعلقة بل الحورية المتيّمة بفتى احلام حريتها. كيف يعد لبنان قاصراً ويسكت شاعره ومدرهه ؟ ما كان جدود امين بكاذبين ، ولن يكون ذلك ؛ ودينهم ومعبودهم « الصدق » . فاسمعه كيف يحتج بعنف واباء بني معروف ، ويهتف بحضرة اول رئيس جمهورية لبنانية ، الاستاذ الدباس :

هل أرادوا بالرشد أن نملأ البحر سفيناً ، ونمـلأ الأرض جنداً ؟
أم أرادوا أن نقذف السم غازاً ثم أن نحصد الخـــلائق حصدا
إن يكن رشدنا الذي زعموه فمن الرشد كوننـــا اليوم ولدا

وأخيراً انتفض انتفاضة سموألية وقال :

ليس لبنان للامــــانيّ مرمى فتعدّ النفوس كالشاء عـــدا

ولم تطغَ لبنانية امين على عروبته ، بل آلمه ما يؤلمنا اليوم من تفرق كلمة العرب ، فنظم قصيدة عنوانها « إلى امرىء القيس » قال فيها :

سائل التاريخ عامـــاً ثم عامَا أي يوم خفر العرب الذمـــاما
المروءات هـــدى أعمالهم والوفـا الدين الذي فيهم تسامى
عبدوا الاصنـام لكن عبدوا قبلها العرض فصانوه كرامـــا
حبـذا العرب ومن أوفى يــدا حبذا العرب ومن امضى حساما
حيثما كانوا فهم أهل العـــلى لو هم لا يتحدّون الخصامـــا

انا لو كنت امرأ القيس بهـم   لأجدت القـول فيهم والكلامـا
وقفا نبك حبيباً لم أقـل   بل قفا نبك اتحاداً ووئامـا

اننا نضع قبالة « ان من البيان لسحرا »، ان من الشعر لنبوءة . ثم نسكت ، ومن السكوت بيان وخطاب ، كما قال المتنبي لكافوره .

فليكس فارس

احبّ ان يقرأ كلمتي حيّاً فأبى الدهر إلا أن تقال فيه ميتاً . ما أقلّ عقل الاديب ، وما أسخف هذا الذي نسميه أدباً خالداً ... ماذا يظل بعد تلاشي الذات وفناء الهيولى ؟

استرح الآن يا فليكس ، فلا بكاء ولا رثاء ، فمثلك لا يبكى ومثلي لا يبكي ، فالبقاء لله ، ولعبديه إيليا وأحنوخ ... حننت إلى هذه الكأس شاباً فشربت بها كهلاً ، اما أنا فأرى اليد الأزلية تلوّح لي بها وأصدف بوجهي عنها ، لأني غير عطشان ، وسوف لا أشربها إلا غصباً عن رقبتي . فلا قرب القضاء نوبتي ، وليتني افلت من يد القدر لأعلم زهيراً كيف لا يسأم المرء تكاليف الحياة .

كم تساءمت يا فليكس ، وكم تشاءمت، وها أنت تبلغ ما تمنيت فقل لي كيف تجدك الآن ، أأنت أرفه حالاً ؟ هل اخترقت عيناك الثاقبتان سجف الابد ؟ وهل للشوق والحب من معالم في دنيا الخواء ؟

هيهات ... لا تقل لي ، ولا أقل لك ، أيها اللاشيء ، لا تحدّثني عن اشياء لا وجود لها إلا في مخيلة البشر . وهنيئاً لمن يموت على رجاء .

غداً يرحّب بجثمانك الثغر ، وتنتصب حول نعشك جبابرة الجبال ، ويضمك

إلى صدره السهل . غداً تستحق شكر لبنان ، ويختم تابوتك بتلك القطعة التي يسمّونها وساماً ، فأي غد تنتظر ؟

كل هذا لا يساوي ساعة متعة أخلصت فيها للحياة فوهبتك من عطاياها أثمن الكنوز ... إنها لا تهب إلا نفسها ، تهب وتستردّ وفي هذا بقاؤها ، فهل تعقم مثلنا في غد ما فتنتقم لنا من نفسها ، ولا نعود نسمع على ظهرها من يعزينا بقوله : « سبحان الباقي » ؟

١

متى تقدمت السن بالمرء يتغذّى بذكرياته كما يتغذى الجسم بخلاياه . كان فليكس اعسى مني يوم تعارفنا ، فقد كنت جذعاً وكان قارحاً ، وما عساي اذكر من فليكس غير نفخات وآهات ، غير تشاؤم مرّ ، غير تلك الابتسامة الواضحة الغامضة التي كان يستقبلني بها ، أو يحملها اليّ في الغداة والعشي ؟

كنا نجتمع غالباً في غرفتي المعلّقة الواقعة جنوبي ما يسمّونه اليوم « تباريس » وكانت على صغرها بجمع الخلّان – ادباء ذلك الزمان – وهذه واسطة عقدهم قد انفرطت اليوم . جاءني يوماً فرآني معلّقاً صورة نيتشه وقد كتبت تحتها : فليفنَ الضعفاء والمخذولون ! ايتها الأم كلي ابنك . فاعجب بهذه الفلتة... وكنا كلانا نكبّر فرح انطون الذي عرّف الادب العربي بهذا الفيلسوف الغربي ، وكنا نقرأ معاً ما يترجمه فرح من زاراتوسترا مسلّمين ومميّزين ومفكّرين ، فراريج تحتكّ بديك .

كان فليكس يحبّ الفلسفة ، وهو ابن اب كان شيئاً في زمانه .

كان والده حبيب محامياً مدرهاً وله كتاب « صراخ المظلوم في بوق الحرية » يحمل فيه على اليهود ، وكان عمه انطون فارس صاحب جريدة

« المرصاد » الحرة .

أما ام فليكس فراقية مثقفة ، في وجهها سيماء المرأة الفاضلة . عرفتها ببيتها في المريجات حيث نزلت عليهم ضيفاً أياماً ، فوقعت عيني أول مرة على بحر البقاع الأخضر ففتنني . لا أدري كيف اصف ذلك التأثير البالغ الذي استحوذ عليّ ساعة وقفت امام بيت حبيب فارس ورأيت الزرع يتعانق تحت أذيال النسيم .

نشأ فليكس في ذلك البيت الملهم الذي تسوسه ام مثقفة كانت لأبنائها كالأخت الكبرى يشعرون انها تحبهم وتحترمهم . وجاء القسيس في ذلك الزمان ، واعدّت مائدة الفصح ، فجلس القسيس وام فليكس اليها ، وقعدت وفليكس على صفة قبالتها . وتلا القسيس حكاية عليّة صهيون وكسر الخبز وتناولا صانعين ذلك لذكر يسوع فاعلين كما فعل ، اما انا وفليكس فكنا بين بين ، لا بطرس ولا يوضاس . شهدنا الوليمة التي انتهت ولما نذق كسرة من خبزها لاننا لسنا من المشتركين ...

لا يعنيك ولا يعنيني ان كانت ام فليكس بروتستانتية وابوه مارونياً ، ولكن الذي يهمك ان تعلمه ويهمني أنا خاصة هو ان فليكس « مطعّم » فأمه اجنبية لا اعرف جنسيتها بالضبط ، وخاله كما اذكر رجل دين ذو شأن في ملّته ، وهو من رجال العلم والفكر .

لم يكن فليكس متبسطاً في نكتته ولا منقبضاً ، كان يرسلها موجزة ويترقب تأثيرها فيك . وكثيراً ما كان ، حتى في عز شبابه ، منقبض الصدر تأتي ابتسامته كشق حديث في ثوب من عصب ، كأن صدره ينطوي على ألم ممضّ يكتمه ولا يبديه ، ينظر الى الدنيا كمن يراها على ضوء القمر ، وقد عرفته في موعة الشباب ضئيل الأمل يائساً ، كثير الاحتجاج على النواميس الغاشمة التي تسيّر البشر .

واول كتاب قرأتـــه له – يوم كنت تلميذاً – مطبوع في اميركا ، وقد بحثت عنه في مكتبة عاليه فما وجدته ، فخفت ان اكون بعته مع ما بعت من مكتبتي الاولى والثانية قبل الحرب وفيها . ولكنني لحسن الحظ وجدته في مكتبة عين كفاع ، ولكنه بلا عنوان .

ما يهم العنوان ففليكس يسميه في المقدمة « مجموعة » ، وهو كذلك ، ففيه بضع قصص اظنها مترجمة وفي آخرها قصيدتان قصصيتان . ان فليكس قال الشعر كثيراً في شبابه ، وقد عارض احمد شوقي في التسمي : ذاك كان شاعر عباس خديو مصر ، وفليكس شاعر ناظم باشا والي الشام . ولكن يد فليكس بقيت فارغة وشوقي أثرى ثراءً عظيماً .

فمن مقدمة هذه المجموعة التي اهداها فليكس الى نفس فريد عوض ، وهو لا يعرفه ، نرى كثيراً من فليكس بل نرى فليكس كله . لم تكن هذه المجموعة بنت قريحة فليكس البكر ، والدليل على ذلك قوله لفريد :

« كتبت كثيراً يا فريد ، وها انا على منحدر قمة الصبا أرى الأفق لا يزال بعيداً امامي ، ونجوم آمالي تترجرج في سماء مدلهمة يغطيها سحاب الجهل في أمة مـــا زال فيها الألمعي غريباً . اتخطى الصراط الى شفير الهاوية ، بجسد نحيل يحمل ما كتبت يمناه ويشد به شماله الى حيث يسود السكون .

« انا احد اخوانك ، غصن من ذلك الروض الذي حصدت منه . أنا كاتب للحق ، وشاعر لنصرة الشعائر الطبيعية السامية التي بها سر السعادة ، وقد اصبحت متلاشية امام الألفـــة التي يفسدها التصنع ويقتلها الطمع والاستعباد . وهذا القلم الذي يخط لك ذكراً يدوم قليلاً ويتلاشى ككل شيء على الارض ، هذا القلم المتعب الذي تديره يد أنحلتها الادواء ، ويملي عليه فؤاد برّحتـــه المصائب لهو كقلبك من قبل ، جنح مكسور يرفرف

الى العلاء ، ولكنه لم يزل معذباً على الارض .

« يكفي أن أغمض اجفـــاني وارتقي بالفكر الى عالم « الكل » الذي ألفته لاراك » .

في هذه الكلمات على بساطتهـا صورة مصغـّرة للحبيب فليكس ، فهو تارة من المؤمنين بـ « عالم الكل » وحيناً صوفياً كبيراً يقول ولا يهاب :

وطني الدنيا وديني شرفي   واخي كل تعيس في البشر

وما رواية الاستاذ ابو شبكة – وديني خـــالقي – الا كما سمعها مؤخراً من فليكس بعد ان تطور لأجل الوظيفة وقوت العائلة ... ففليكس تلفلف بألف برد سعياً وراء رزقه ، فمن معلم في عبيه ، إلى فاخوري في المريجـــات ، الى صحافي ، إلى محام ، إلى وظيفته الاخيرة التي نعم بها زمناً ولأجلها قـال : وديني خالقي . والصديق ابو شبكه ، وهو الشاعر الكبير المرهف الحس يعـــلم جيداً ان « خالقي » هنا لزقة ...

ان حملة الريحاني على فليكس لفي محلها . تعجب امين من ان يتقهقر فليكس هذا التقهقر ، في رسالة منبره وغيرها ، بعد ان كان في طليعتنا جموحاً وحرية تفكير . ولو درى امين ان فليكس صار ربّ عائلة ولم يعد خفيف الظهر ، وان في هذا التذبذب بقاء الجراية لعذر ...

كان فليكس اول من عرفت وصادقت في فجر حياتي الادبية . كان يحبّر الفصول الطوال فأنشرها له في جريدة النصير ، سنة ١٩٠٨ ، وكان فليكس مندفعاً وراء مواضيع بعينها ، يؤثر البحوث الاجتماعية ويثير قضايا يشتدّ حولها الجدل ، فهو مطبوع على المناقشة يستدرج اليها الناس .

وهذه جريدة النصير المحفوظة عندي تحفظ ما وقـــع بينه وبين داود النقاش حول موضوع « الخائن والخائنة » وأيهما افظع جريمة . كان النقـّاش يدافع عن بلواه وفليكس شاب يرى في الحب كل شيء ، فيصحّح ما يزعم ،

ويبرىء ساحته ...

وما ظهر ثالث عدد من النصير ، بعد ما عهـد إليَّ بتحريره ، حتى كان لفليكس فيه قصيدة عنوانها « ملاك ساقط » ، واليك منها بعض ما يصوّر لك رأي فليكس في الحب :

يا حب ، قالوا لي بانك ترتقي	بالنفس نحو النعمة السمويـة
يا حب ، كم طالعت عنك مقالة	رسمت لنا الدنيا بأجمل صورة
والآن قـد ضيّعت آمال الصبا	وغدوت شيخاً في ربيع فتوتي
فرأيت فيك شقاوة لو سطّرت	لمحوتها عفواً بآخر دمعـة
يا حب أما ان عصرك قد مضى	ام انت لم تجتز لباب الجنـة
يا رب عفوك ، كلنا في ذا البقا	نجني ومن منـا بدون خطيـة
يا رب ألفتنـا تناست « كلما »	اعطيته لبني الورى بالفديـة
يا رب عـد للأرض ثانية فما	لسواك في رفـع البلا من قدرة

...

ولقد بكيت على المصائب في الورى	حتى ذرفت لهـا بقايا دمعتي
وغدوت لا اخشى الجراح من الاسى	فالسيف لا يـدمي فؤاد الميّت

ففي هذه الابيات المنقولة ، بكل امانة ، تهب عليك نفحات ألم وشكوى فتى شاخ في شرخ الشباب ، وروح مسيحية في دم فليكس منها خمسون بالمئة ، ولا شك انه رضعها من ثدي امه البروتستانتية التي ترى في الناصري كل سعادة في الدارين ...

ولا ننتقل إلى العدد (٢٠٠) حتى نقع على العش المهجور ، والعشّ المهجور قد يكون صورة حية لبيت حبيب فارس في المريجات ، الذي نظرت اليـه مراراً في ذهابي وايابي ، فرأيته كما وصفه فليكس في هـذه القصيدة التي

يختمها بقوله :

وسمعت الشحرور يبـكي الطيورا قرب عش منهـا غدا مهجورا
ليس شيء في الارض اشقى غرورا من سرور الآباء بالأبنـاء

وفي العدد التالي خطاب له موضوعه « الصنائع والفنون » القاه في كليـة القديس يوسف بمناسبة قيام الأب ميشال بمدرسة صناعية . هل نسيت كلمة « فاخوري » التي مرّت عليك ؟ قـد أحدث حبيب فارس معمل قـلال واصص كان فليكس فارس يديره ، وقد عرّج ناظم باشا مرّة فرأى يد شاعره ملوّثة بالطين فأبى عليه تنظيفها قبل السلام وقال له : ان يداً ملوّثة بهذا الطين لهي أنظف من أيدي الوزراء والأمراء .

وفي العدد الذي يليه قصيدة غزلية عنوانها « عاطفة » ، ومما قال فيهـا يخاطب الحبيبة :

وأنت زهرة حسن لم تمرّ بهـا عواصف الدهر حتى تدركي حزني
وأنت اكليل قلبي باقة وضعت فوق الضريح تغطي رهبة الكفن
وكيف يدرك زهر الواد كم أسف وكم دموع ثوت في ذلك السكن

• • •

فليس شعريَ إلّا النفس صارخة كالطير يبكي غريباً خضرة الدمن
فليت نفسي لم تأتِ الحياة ولم تلق اغتراباً وليت الناس لم ترني
أتيت للأرض روحاً لا تريد سوى مـا قد رأته قبيل الخلق في عدن
فصادفت من خداع الناس ما سئمت بـه البقاء ولم ترضخ لدى الإحن

واليك تعليقي عليها لتدرك عقليتنا في ذلك العهد :

« النصير » : ليس من مبادئنا نشر القصائد الغزلية لاعتقادنا خروجهـا عن الدائرة التي خططناها لنفسنا وهي النفع العـام ، ولكن قصيدة كهذه يقف

عندها فكر الشيخ ، وتخشع لها الصبية ، وتدمع لها مقـلة الشباب ، لهي مما يتعلّق بأهداب الفلسفة ، فكأن هذا الشاعر قـد آلى على نفسه ألا يقول شعراً — حتى في الغزل الخاص — لا يدوي فيه صوت الإنسانية ، فكأنه يفكـّر مع كل دماغ ويشعر مع كل قلب » .

وزاد صاحب النصير عبود بك بو راشد صفحات نصيره أربعاً ، ولم يكن ثمة جريدة بهذا الحجم ، فأعجب ذلك صديقي فليكس ولم يرقني طبعاً لأنه زاد في عملي ، ولم يزد في أجري ، فكتب فليكس لعدد ٢٠٣ مقـالاً عنوانه : « كلمة عن النصير » أنقل لك فقرات منها تدلّ على فليكس وعلى زماننا الأسود كما ينبئك التعليق ، قال فليكس :

« النصير وهو الناظر إلى أحوال البلاد بعيون كتابها ، والمفكرين بها ، لا أراه منتشراً بيننا بأعمدته الحافلة إلا لغاية واحدة وهي تنوير الأذهان بأذهان البلاد ، وترقية عواطف الوطن بعواطفه ، فهل يبلغ الأمنية أم لا يزيد اتساعه غير زيادة الخسارة ، خسارة نفثات الاقلام وضياع الارواح السائلة على ثلة هذه القصبة المجاهدة بلا عزاء » .

إلى أن قال :

« هنالك في البلاد الناهضة — أي في أوروبا — كان أبطـال السيف يعملون قبل أبطال القلم . أما هنا حيث العرش الحميدي الأبدي القرار ، والعلم العثماني المظفر يرف بكلّ معنى السلام فلا يطلب منا شهداء لسن نظام وترقية حكم ، قانوننا عدل ، وسلطاننا ربّ الرحمة ، فلا ابطال عندنا غير رجـال الفكر ، ولا قتلى غير قاتل نفسه في سبيل العمل المقدس » .

« مدنيتنا أسيرة يجب فكـّها من قيدين ثقيلين يغلّان الأيدي والفكر ، القيد الأول الحاجات العمرانية ، والقيد الثاني النظام الاجتماعي . الأول يجعلنا عبيداً موثقي الاكتاف ، بخشب ، بحديد ، بنسيج ، بإبرة ، بخيط ، بنحاسة صفراء

توضع على أحذية الأولاد ... ذلك استعباد هائل يدمي مقلة شيوخنا ويضيع ثقة نسائنا بنا ، ويحني ظهور شباننا باليأس ويموّه جبين الشبيبة المملوءة نشاطاً باصفرار القنوط .

« القيد الثاني هو ذلك التقليد الذي نأخذه عن الأجانب ونريد أن نجعله نظاماً لالفتنا ، مع اننا لا نلائم لحمله ولا يلائم طباعنا ولا الاستعداد الغريزي الذي يجول بدمائنا يرتضي به . يجب ان نرتقي يا قوم ، ولكن من يرقّينا ؟ تقدمي أيتها الصفحات الحاملة آخر جهاد لأول انتصار ، انتشري بين شعب فتح عينيه للنور بفضل من تقدم من الادباء ، لقد مضى زمان كان صوتهم يضيع مع الدوي ... اما الآن فقد أصبح القسم الاعظم من البلاد يفهم لغة البلاد ، وقد لاحت بعض شرارات على ذلك الرماد البارد منذ اجيال ، فإلى الأمام ايها النصير ، ناد وانفخ ، فما انت نافخ في رماد ولا مناد ميتاً .

« لج الابواب العالية ... لج الاكواخ الصغيرة ... لج ... ادخل ... قل للكل ان مفتاح السعة مطمور في هذه الأرض المحبوبة فليفتشوا عنه . ادخل . ناد ... قل ... اصل حرباً عواناً ... استنهض همم الرجال ... قوّ تلك النفوس القانطة ، ادخل إلى خباء العذراء ، وإذا مررت امام بابي فلا تنس ان تلجه لأن هنا نفساً تمتزج مع كل نفس تحب الوطن ، وتحن إلى إعلاء شأنه . هنا قلم مكسور يجر نفسه قسراً بيد انحلتها الادواء وبرّحتها النوائب ، ولكنها لا تزال تجد بقية قوة مضمحلة لتعمل هذا الواجب المقدس ، واجب الانتصار لنصير الوطن » .

اما تعليقي على هذا المقال الذي قرأت فقرات منه فهذا نصه : « النصير » يشكر لفليكس افندي ثقته به ويسأل الله ان يأخذ بيده ليخدم الامة والوطن بظل العلم العثماني المظفر .

في هذه الكلمات التي نقلتها ظواهر شتى ، فهي تدلك كيف كنا نحتال على اخراج الكلام من صدورنا ، فلا نستطيع قوله إلا ممزوجاً بالدعاء لظل الله على الارض ، سلطان البرين ، وخاقان البحرين ، ولي نعمتنا بلا امتنان ... فكلمة حرية وعبودية ووطن واضرابها كانت محرمة علينا كتفاحة آدم . كنا في ذلك العهد كالجزار نذكر الله ونذبح ، وهيهات ان نسلم من المؤاخذة . فقد كتبت مرة مقالة عنوانها « اين انت » والضمير راجع إلى الحقيقة فقضت المشيئة بوقف الجريدة ، وكنا نعرض كل كلمة على المراقب ولا نطبع حرفاً قبل السماح لنا . وهي تدلك ايضاً على ان الصدور كانت تجيش والنفوس تحلم ، فنحن الآن في شباط سنة ١٩٠٨ ، فما اطلّ تموز حتى كان فليكس امير المنبر ينادي بالويل والثبور ويلعن العهد البائد عهد الاستبداد والظلم ، ويدعو بطول بقاء انور ونيازي ... وهي تنبئك ان النهضة لا بدّ ان تتكوّن كالجنين وان تحبل بها ادمغة كثيرة في ازمنة وعهود عديدة حتى تولد جنيناً كاملاً من ابناء السلامة ، وهي تدلك اخيراً على ان فليكس كان أليف آلام وطريد وساوس وانه يشكو ألمين : ألم النفس وألم الجسد . وما برح كذلك حتى على رجاء ان يحب في العالم العتيد ، كقوله :

يا ملجأ الانفس الأعلى لديك أرى ... مبدا هيامي فعشق الارض يطردني
هلا رجعت إلى حضن الخلود فقد ... تاقت بي النفس نحو الحب في وطني

٢

كنت مستأثراً بالمقالة الافتتاحية لا اتنازل عنها لافلاطون لو بعث ، وقلما وضعت كلمة لكاتب أو شاعر في الصفحة الأولى . وشاء فليكس غيرةً منه ان يكثر اعواني وانصاري على تحرير صحيفة ضخمة فحمل إليّ « غصن ورد » لأمين الريحاني ، وكان الريحاني في ضحى شهرته ، وقد

نبه ذكره ، وهبّت ريحه ، بعد اصداره كتابه الشهير « المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية » ، وقد ارفق المقال باهدائي نسخة من هـذا الكتاب التي استرجعتها من احد اصدقائي الكهنة « ي . ع » بعد مرور عشرين عاماً على غيبتها عن مكتبتي .

كتب فليكس مقدمة لغصن ورد الريحاني ، فنشرتها بالحرف مع المقال واليك ما قدم به فليكس :

« غصن من الورد هو عنوان لمقـالة أو لشعر منثور كتبها صديقي أمين الريحاني .

« قليل من الادباء من لم يسمع بهذا الاسم الذي تتألق عن جوانبه اشعة الشهرة ، وتحتاطه هالة من الافكار السامية ، فلا ازيده تعريفاً لقراء العربية خصوصاً واني لا اكتب عن الشاعر بل اكتب عن قطعة اهداني اياها وفي يقيني انها اجمل ما خطه يراعه .

« للريحاني كتابات كثيرة على هذا النسق ، وقد قرأت له ما هو اجمل تركيباً واعمق تصوراً من غصن الورد ، ولكنني لم اجـد الشاعر بكل شخصيته وعواطفه ، كما وجدته في هذه الاشعار المنثورة ، فانها وان كانت لا تتضمن كل القوى التي اوجدها التأمل بفكره فهي ، بلا ريب ، جامعـة كل الحب الذي سكبته الطبيعة الشريفة بقلبه .

« حكم الريحاني بأن غصن الورد هو اجمل ما كتب،هو حكم انتصر به الشاعر على الفيلسوف ، انتصر به القلب الخافق بالحب الأزلي على الدماغ المتشتّت والمفتش عبثاً امام نهر الفلسفة الراكد .

« هذه هي الأشعار المنثورة اقدّمها لقراء النصير ، وسوف اذيّلها بكلمـة واتبعها بقصيدة لي ترمي الى ذات المعنى ، افعل ذلـك اجابة لطلب صديقي الريحاني ولأهدي إلى القراء ما لا يضيعون به وقتهم عبثاً » .

هذه هي المقدمة ، اما الذيل فعلى نسقها ومما جاء فيه :

« اي حب اجمل من هذا الحب الرفيع بعطفه السامي ، بجهاده وبأسه ؟ كل شيء في هذا الكون يعذب الحب لان هذا الشعاع الباهر المتلألىء على القلوب المرتقبة من شمس الازل يترجرج ضعيفاً في ظلمة الجهل وتنازع البقاء على غير هدى الخ » .

المقدمة والذيل نشرا لأنهما في قبضتي ، اما القصيدة التي وعد بها فليكس قراء « النصير » فحرنت في الطريق ولم تصل إليّ لأن اخي فليكس حرد ايضاً وكتب إليّ يلومني بشدة وعنف لانني نشرت مقال الريحاني في الصفحة الثانية ، وعتب عليّ لانه هو يؤلب الادباء المشاهير حولي ، وانا متعجرف انظر اليهم من عل . وكانت جفوة قصيرة جداً ، فضّها ابو فليكس وأصلح ذات البين بين ولديه .

ذهبت يوماً ومعي الاستاذ اميل افندي خوري — لا ادري اين هو اليوم — لزيارة الصديق الريحاني فوجدنا عنده زائرة انكليزية فكان ظلنا طويلاً ثقيلاً عليها في ذاك الضحى. وكذلك يكون الظل فيه ،فاستطولت زيارتنا تلك السيدة فسألت الريحاني : متى يذهب هذان الظريفان ؟ فأجاب امين بما لا يلائمنا ، فغمزني اميل خوري ، فودّعنا وانصرفنا ، وخبرني صاحبي اميل فحوى الحديث الانكليزي ، فما عذرت الريحاني في ذلك الوقت ، لان بقاء عشر دقائق لا يستحق هذا الوسام الرفيع ... ولكن احوالاً عرضت لي تشبه تلك ، افهمتني بعدئذ ان الوقت يطول ويقصر بحسب الاستعداد النفسي ... وان صاحبنا وآنسته معذوران .

وخبّرت فليكس بما وقع ، فهزّ كتفيه كعادته ، تلك الهزّة البلهاء ، وعذر لانه كان أعرف مني ، في ذلك الزمان بقيمة الرزق ...

٣

آخر عهدي بفليكس

وكتب فليكس مقالاً عنوانه « خطرات أفكار » (نصير ٢١٠) جاء فيه : « شيء افتكرت به ملياً ولم أصل لاقناع نفسي به : « الرجل الخائن زوجته يعد خائناً لها فقط ، فلا تعتبره الالفة محتقراً للالفة ، أما المرأة فأقل شطط ترتكبه يعرضها للهوان ، بعرف الناس . الرجل الخائن يلهو ويلعب ، والمرأة الخائنة ترتكب جريمة هائلة ضد البشرية .

« لا أقصد أن تبرر المرأة كما يبرر الرجل، بل أريد أن يشجب هذا كما تشجب تلك ، أو يقنعني باحث بامتياز الرجل على المرأة حتى في الشر ، فهل من كاتب يركب هذا المركب الخشن ؟ » .

فركب المحامي داود بك النقاش هذه السفينة ، سفينة بلا قلاعة كالتي أركبتها الجدلية يوم أبعدت عن أورشليم المقدسة بعد موت حبيبها ونصيرها . وانقضت أسابيع بين خذ وهات ، داود وفليكس يتساوران ، كلاهما يدافع عن قضية شغلت فراغاً عظيماً من عقله ، وقلبه وحياته ، وقد خالطت اللحم والدم وعشّشت وباضت وفرّخت كما قال الحجاج . وطال صراعهما حول الموضوع : قلبان ممتلئان : زوج غير مرغوب فيه ، وشاب يرى ان المرأة خلقت للحب كما قال :

« أما حق المساواة بالعمل فلست منتصراً لها به ، لأنني اعتقد بأن المرأة

خلقت لتعزية الرجل وإراحته بالأدب والجمال من شقاء العمل، فإذا هي أصبحت عاملة ، تحوّلت من الجميل إلى المفيد ، وفقدت السطوة الملائكية التي تجعل الرجل خاشعاً أمامها .

« إن المرأة لا يمكنها أن تقتبس الرجولية دون أن تفقد صفة المرأة أمام الرجل وفوق سرير الطفل . »

أما خصمه داود فيرى ان المرأة أكثر مسؤولية وأشد جرماً ، لأن رجل الخائنة يتعهّد ما لم يزرع ، ويسقي ما لم يغرس . وكاد يتسع الخرق فأقفلت الباب على دخول العلّامة الأب الخوري جرجس منش الحلبي ، فكانت كلمته الحكم المبرم ، فقضى على صاحبي فليكس . (نصير ٢١٨) .

وعدت من الحدث في القطار ومررت ، كعادتي ، على مخزن العلّامة الشيخ مصطفى نجا – المفتي بعدئذ – فاستحسن عملي وأثنى على فيلكوس – كذا كان يلفظ اسمه – واعجبه نفسه وحرارة إنشائه . أما أخي فليكس فغضب لأنه يحب الجدل وطول المجال . فهو واسع الاطلاع مولع بأبواب النساء يحب ان تظل مفتوحة على مصراعيها ... وحرد اسبوعين فقط ، ثم راضيته فوردتني خطرات أفكار أخرى منها :

« منذ أشهر قلائل لم أعرف بارون افندي عبود غير مفتكر مجتهد تنبأت له الوصول إلى المحجة ، ولكنني لم أحسب قط ان سيثب وثباً لنقف بغتة بين كبار أدبائنا وأفاضل المفكرين بيننا . هو كاتب « احترموا المعابد » و « المأساة الهائلة » . هو منشىء « بين القبور » تلك المقالة الرائعة التي تدلّ على قوة الابداع في موضوع مبتذل يكاد ألا يترك مفازاً لجديد » .

ومن الغريب ان يكتب مثلها ايضاً بعد عشرين سنة على كتابه « اعترافات فتى العصر » الذي اهداه إلي مع كتابيه « زاراتوسترا » و « رسالة المنبر » .

وكان لنا صديق كاتب مجيد هو الشيخ شاهين الخازن صاحب « كنوز لبنان المرصودة » ، وكان في تلك الأيام يحث على مناصرة الحياكة الوطنية حتى لبس في ذلك الزمان ثوباً لا يلبس الحبساء من رهبان لبنان أخشن منه ، فقـــال فيه فليكس أيضاً :

« الشيخ شاهين الخازن حامل تحت ابطه مساطر مصنوعات وطنيـــة يعرضها لكل ناظر . قطع صغيرة من حرير الزوق ، ونسيج دير القمر ، وقد لبس هو نفسه من ذلك النسيج . تلك المنسوجات الصغيرة فيهـــا حياة لبنان ، وطالما حامت حولها اقلام الكتاب ولكن لم يقم بيننا غير المتكلمين فقط » .

وكان فليكس اذا لم يوفق بمقال موافق لمقتضى الحال ينفحني بقصيدة . ان نثر فليكس اطيب من شعره ، وهو محلق في المعاني مسفّ في المباني واتفاق الامرين في شعره فلتة . ولكنه في كل ما يكتب يتبع فكرة يحبل بها قلبه وتلدها قريحته ، فهو لا يحول عنها ولا يزول . وفي قصيدته « الاحياء والاموات » التي نشرتها في نصير ٢٢٣ يقول في ختامها :

يا الهي انزلت حكمك فارفق   بنفوس تشقى لحفظ الوداد
صيّر القلب كالجسوم جماداً   او فخفّف وقع السهام الحداد
عفوك الله لست ابدي اعتراضاً   حكمة الخلق نقطة في سواد
غير اني ارجو العزا لقلوب   البستها الاقدار ثوب الحداد
اطلب الحقّ لا ارى من عزاء   غـــير سر مضيع للرشاد
لا أرى للعزاء غير صليب   غارق في دموع أم الفادي

حقق الله رجاءك يا حبيبي ... ليت لي ايمانك فلا احزن عليك كما قال بولس الرسول : ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي لـكم ان تحزنوا عليهم كسائر الناس الذين لا رجاء لهم .

واذا فسح لي في مجلس الحيـــاة واستطعت الخروج من عين كفاع فلأزورن قــبرك وأضع عليه حزمة من أغصان أرز لبنان وسنديانه وزيتونه ، فقد كنت صلب العقيدة والمبدأ ، جبـــار الفكر ، مسالماً تفارق بالتي هي احسن . ان لم تترك للعربيـــة الا تجديدك في تفكيرك العذب ورسالة منبرك ، وزاراتوسترا نيتشه ، لكفاك .

كان فليكس وفياً صادقاً ، محباً لاحبابه جداً ، غير مبغض احـداً ، وأشهد اني لم اسمعه يذم مخلوقاً او يسب انساناً ، بل كان يكتم في قلب قامته المنحنية اشجاناً قلما اطلعتُ على واحد منها .

وقد دفع الي قصيدته « ملام » فنشرتها بعد نقاش حولها بيني وبينه وخصوصاً حول هذه الابيات :

رأيتك في روض الحياة فتية	على وجهك الباهي سنا النفس يسطع
وفي لحظك الفتان صورة ما ارى	بروحي وروحي بالجمـــال تولع
وسوف اذا شاهدت زهرك ذاويا	يهف بـــه نحوي شذاء مضيع
وسوف اذا شاهدت ظهرك ينحني	يحنّ له مـــني فؤاد واضلع
وحين يخط العمر آخر لثمة	على وجهك العاجي كطرس يبرقع
اذا شئت في التجعيد ألقي قبلة	فلا يعتريها في المشيب التصنع
فمن كان مثـــلي لا يودع حبه	ولو كان قرب الرمس شيخاً يودع

أما انا فما صدقت ان فليكس يقبلها مجعدة ، أمـــا هو فحلف مؤكداً ما يزعم . ولم أعـد أراه في هـذه الايام الأخيرة لأرى رأيه فيما اختلفنـا عليه ، ولكنني واثق انـه كلام شعراء . قد يفعل ذلـك إذا انقطع الرزق وضاقت به الدنيا ولم ينفتح له باب فرج ...

وآخر مـا نشرته لفليكس في « النصير » قصيدة عنوانهـا : « ضلال » ، وختامها يصح ان يكون شعاراً له :

اما الشريف فلا يطأطىء رأسه الا لمن من عنـــده الانعـام
فالمرء تكفيــه لعيش كسرة والمجـد وهمٌ والحياة منـــام

وهبّت عاصفـــة الدستور على البلاد ، فهللت المملكة العثمانية بعدئذ وكبّرت ثم صار كما كتب الاديب الظريف « حداد » صوت الجامعـــة الغرّاء ، بعد ان تصافح الكاهن والشيخ على المنبر المنصوب في ساحة البرج شرقي المنشية ، وخطب النـــاس يحثون على الاخاء والحرية والمساواة ، وصار اسم انور ونيازي حبيبـــاً إلى كل قلب ، بعد ان زحف احرار البلاد الى بتدّين مركز متصرفية لبنان على عهد يوسف باشا ، فاسقطوا رجال الدور البائد من المير قبلان إلى نصيف الريّس الى ... وعـــدنا مبتهجين ولكن فرحتنا لم تطل ، فعاد هؤلاء الى مراكزهم ، وبعد ان كان يوسف باشا يؤمن على كل « اسقاط » طائعـاً ، تنمر واحتلّ انصاره كراسيهم التي انزلناهم عنها .

اما فليكس وصديقي الآخر داود مجـــاعص فاحتلا المنابر من تموز إلى تشرين يقفان على كل خشبة تنصب فيهزّان القلوب ببيانها وشاراتها ، وقد ذكّرني داود إذ كتب إلي مرة من المانيا بيوم عين المريسة — محـلة في بيروت .

وهكذا صار أدب فليكس منبرياً يهلل له العوام ويرضى عنه الخواص . كان فليكس يحـلق كالنسر وتراه العين كبرج فينيسيا المائل إذ يقف في الناس خطيباً . عاف الكتابة في ذلك الصيف ولم تظهر له كلمة واحدة في « النصير » .

ثم صار « اتحادياً » فأنشأ جريدته لسان الاتحاديين ، ولكن الاتحاديين لم يقدّروه فظل حيث هو ، وحـلّ والده المرحوم حبيب محله ، فكتب بعض فصول نشرتها في « النصير » ، اولها تقديس نظام لبنان وآخرهـا

حملات على مجلس إدارة لبنان الذي له صلاحية مجلس النواب اليوم .

وفي نهاية عام ١٩٠٨ تركت النصير لأحرر جريدة الحكمة في جبيل – فاضت روحها يوم شبت الحرب الكبرى – وفي هذه الفترة من العمر وفي ايام الحرب لم أرَ الصديق فليكس ، وقد رأيته بعد الحرب ، فكدت لا أعرفه لانه كان قد أخذ قسماً كبيراً من شاربيه اتباعاً للزي . ثم تلاقينا مرات على غير ميعاد وظللنا على ولاء ووفاء حتى الساعة الاخيرة .

قد تهوّسنا كثيراً عند سقوط السلطان عبد الحميد ، وامتلأت البلاد جرائد ومجلات . اما أحلامنا فلم يصحّ واحد منها ، وأذكر كلمة قلتها لفؤاد باشا – الدالي فؤاد – حين استقبلناه على المرفإ استقبالاً شعبياً : الاستبداد كالعليق يصعب على الفلاح استئصاله ، فضحك لها لانه كان ظريفاً يحب النكتة ، وهو الذي قال له السلطان عبد الحميد : ابو الهدى يبلع السيف . فاستضحك وقال : لا عجب ، وزير الحربية بلع الدارعة . فأغضب السلطان هذا الجواب البديهي ، فضرب فؤاد باشا كفاً على رأسه ثنى طربوشه ، ثم صدرت الإرادة السنية بنفيه إلى دمشق وبقي فيها إلى إعلان الدستور فجاء بيروت يلبس الطربوش المبعوج .

كان فليكس محباً ومحبوباً ، وما شبهته إلا بشفاليه مانون لاسكو . كانت حياته مأساة مؤلمة لولا ختامها الذي اراحه من عذاب القلب . لقد أكل الحصرم فضرس هو .

هذه واحدة من نكات ذلك الزمان :

كنا ثلاثتنا أنا وفليكس وداود مجاعص ، اما الرابع وهو الشيخ شاهين فكان معنا كشاهد زور ، كنا في مسرح التريانو ، كان موقعه شرقي ساحة البرج محل قهوة الجمهورية او تحتها بقليل ، وكانت هناك غانية مغنية

راقصة كوحيد ابن الرومي . البنت غسوية التبعة سحر جمالها بيروت فأقبل على لياليها كبار الموسرين ، فاحترنا نحن الادباء في ذلك العهد — والطفر يعمي البصر — كيف تنعم بجمالها ، والجيب فارغ .

حضرتني حيـــلة لا اعدم مثلها في كل ساعة حتى بعد هذا التقهقر الجسماني او الجسداني كما يقول رجال الدين ، فأنكرت اني افهم العربية او الافرنسية ، ثم هبط الوحي وتطوّرت الفكرة فـــاذا انا امير سرياني ، فعرّفوها اليّ كذلك فهزّت المحروسة كتفيها ، واشتدّ بها الفضول إلى سماع اللغة السريانية وأوهمها فليكس اني ذو ثروة جبّارة ، وكالمرحوم ابن ابي ربيعة انتبّع الجمال . صدّقت المسكينة انني ازجي الليرات التي تكرج على حفافيها لا التي تطير في الهواء ... فانجذبت نحوي وألحّت الحاحاً عنيفاً استفدت منه قليلاً ...

ثم تركتنا على ان تعود بعد نهاية الحفلة لتتمتّع بفصاحـــتي السريانية ... وفي نيّتها ان تتعمّق وتغوص في جيبي حيث الكنز الذي لا يفنى ... ذاك الذي اختارت مثله الجدلية دون اختها المهتمة بامور كثيرة ...

وكان نصف الليل فما اخلفت الآنسة الميعاد ، رأى الناس تلك الجميلة التي تتدلّل وتتغنّج أمام آل بسترس وثابت وسرسق وبيهم قاعـــدة حدّ محرر النصير ، فاتجهت الانظار صوبنا . وكان ترجماني داود مجاعص . تهجّى داود الابجد سريانياً ، فتظاهرت انني فهمت ، وأجبت بالأبانا ، ثم تهجّى داود هوّز فأجبته بالسلام عليك يا مريم ، ثم ثم ...

وأرادت الست ان تسمع اللحن السرياني فانشدتها « ميمراً » من مار افرام بصوتي الذي جاء ذكره في الكتاب الكريم ، ثم آخر من مـــار يعقوب ، فقامت ترقص . ولم احرمها نشيد الاموات فطفرت الدموع من

عينيها ، فخلت اننا في مأتم ، والدفن قد قرب ، وسيعقبه «شيل البخور».
وأخذت تطرح عليّ اسئلة غريبة كأنها احد علماء الاجناس ، فيوهمهــا ترجمــاني داود انه يكلمني وهو لم يزد على تهجئة حطّي وكلمن وسعفص ، وهكذا قضينا سهرة غير قصيرة لم نسقها في خلالها كأس ماء بارد ...

ولا تسل كم كانت خيبتها مرّة إذ ودعتهــا بالافرنسية وداعاً مقروناً بعبارات اكبار للطفهــا ، واعجاب بجمالها الساحر ، فاصفرّت وتبسّمت قائلة : أنت وحدك غلبتنا ، كنت اخبث وادهى منّا ، سأنتقم منك في الليالي القادمة .

فأجبتها لا يا سيدتي ، لأنك لا ترينني . قليلاً ما اجد في كيسي بدل الدخول ...

فأنستها هذه الكلمة ألمهــا وامتعاضها ، وقالت : تعال على حسابي ، شرط ان تفعل ما هو ألطف ، فهذه النكتة تزعج ، ولاسيما ان عرفت بها زميلاتي .

فقلت : انك تزعجين بــــلاداً بأسرها ، فما عليك لو غلبك واحد منها ، واخذ بثأرهم من دولتك ... انت مــــا دفعت حق جمالك . أمسيحية انتِ ؟

فأجــابت بعبــــارة التعليم المسيحي بالحرف : نعم بنعمـــــة الله أنا مسيحية .

قلت والمسيح قــــال : مجّاناً اخذتم مجّاناً اعطوا ، انا لم آخذ من رأسمالك شيئاً .

وان كنت وثنية فمثلك تذهب الى الهيكل وانا ابن بلد ادونيس ...
ورأيتها بعد ذلك مرّات ، فكانت تقابلني بابتسامة وهزّ السّبابة ،

ولكنها لم تعلق على الدبق .

وظلّ فليكس طول حياته يسألني كلما التقينا : كيف السريانية في هذه الايام ؟.. فتنقبض اسرتي واسرته ، ونقبع كلانا في الزاوية كالرتيلاء في بيتها تنتظر ذبابة مارقة لتدعوها اليه ...

ديوان الشبيبي

إن كنت ، ممن تستهويهم الالقاب الداوية ، فالحديث الآن عن وزير خطير صاحب معالٍ ، وعين من اعيان الدولة العراقية الجليلة . امـــا الذين لا يذهب بوعيهم افيون المناصب الخطيرة ، فسأحدثهم عن محمد رضا الشبيبي الشاعر فقط .

هب ان كرسي الشبيبي وسع السموات والارض فهو ، لا محالة ، زائل ، اما ديوانه فباق . وهل يعنينا اليوم من ان الطغرائي غيَّر لامية العجم ؟ ان لقب ذي الوزارتين وصاحب المعالي زائلان ، امـــا اللامية والديوان فميراث الذرية .

الشبيبي واحد ثلاثة من شعراء العراق ، وكأن الثالوث — ومهده الشرق — يتجلى عندنا دائماً حتى في الشعر . ففي الجاهلية والاموي والعصور العباسية حتى ايامنا والتقسيم مثلث ، والشعر مدرسي كله ، وهذا ما نواجهه في ديوان الشبيبي . إذا قلنا الزهاوي كأبي العتاهية ، والرصافي كالبحتري ، مثلاً ، فالسيد الشبيبي كالشريف الرضي .

الشبيبي شيخ معمَّم . لست اعرفه معرفة عين ، ولكن البادي من رسمـــه الوقور انـــه في خلقه وسمته اشبه بشاعرنا الكبير امين بك ناصر الدين ، المنزوي في كفرمتى ، وفي الزوايا خبايا . فهذه الديباجة العباسية المتماسكة كالدمقس ،

اللماعة كالارجوان تقرب ما بين الرجلين ، وهذه الثورة الملتفة على نفسها التفافاً لولبياً كالإعصار هي هي في ديواني الشاعرين .

رأيت رسم الشبيبي فخلته ينشدني : كليني لهمّ ، يا اميمة ، ناصب . وتخطيت الى الديوان فاذا فاتحته :

لم يبقَ لي إلا الشباب وانه ديباجة ضمن الاسى إخلاقها

وايقنت ان الليل الذي يقاسيه بطيء الكواكب حقاً ، إذ قرأت :

كلاني اكابد في العراق بلية وليلاً بأرجاء العراق بهيما

ولكنه يصرح بعد تهدار فينفّس عن آلامه المقهورة :

ألا مدرك هذي البلاد واهلها فقد لقيت من جور ساستها جهدا
تفرّغ أيدينا لتملأ جيبهـــا وتنهكنا جوعاً لتشبعها حمــدا

وتزول الشبهة متى قلنا انها من نظم سنة ١٩١٤ . ويبدو له تخــاذل قومه فيقول :

وقيل تقاربنا وهــا نحن جيرة ولما بدا الصبح انثنى قربنا بعدا

وكأنه قد آيس من كل ما رجا فقال :

كيف اتحاد بني الدنيا وهم بشر موزع بين اشــكال واقسام
العلم عــلم خرافات وشعوذة والدين دين منامات واحــلام
موحدون ولكن عز انــكم تمّ وقد نهضت عبّاد اصنـــام
وان مــا بين آرائي وبينــكم بعدا كما انفسحت ابعاد اجرام

والشاعر كالنبي تشغله شؤون الجماعة كأنه وصي عليها ، وهذه احــدى طبائــع الشعراء الكبار ، فهم وكلاء الامة الجبريون ، والمسخرون ايضاً . ولولا ذلك ما عناه من امرها ما عناه :

لولا التفكر في مصير بلادكم تالله مــا ضاقت عليّ بلاد

والسيد الشبيبي على رأي بطاركتنا القدمـــاء الذين رأوا في شق طرق

المركبات انتهاكاً لحرية الجبل ، كما رأى شاعرنا في خط بغداد فقال :

مدوا الحديد وما اهتززت لمده   سكك الحديد بأرضنا اصفاد
طرق الحديد إذا التوت وتشابكت   شرك به شرف العراق يصاد

وللشاعر في هذه القصيدة المسماة « الباكية » زفرات حرى ولاسيما حين يرى الزعامة سلمت لزعانف :

انظر الى الاعجاز كيف تصدرت   وعمائم السادات كيف تساد

ثم يهيب بقومه النيام :

غفوا وعيوني للعراق طوامح   وشابوا وودي للعراق صراح

ويرى سوء فهم الدين علة ما هنالك فيهتف :

ولو انصف الناس الديانة أجمعوا   على انها فيهم نتيجة وجدان
ولكنهم حق ذويها وأهلها   بعيدون عن عرفانها بعد كيوان
كأن لم يكن انجيل عيسى بن مريم   ولا أوحيت توراة موسى بن عمران
انا شافعي ان لم يكن لي شافع   إلى الله ، ثم الحق حبي وايماني

وفي البيت الأخير معارضة للذي قال : الحب ديني وايماني . أما هذا الانكماش فلون محلي يخلعه الاستيطان على الشعراء كما يخلعه على الطيور ، والشعراء طيور خالدة .

ولا يسكت الشاعر السيد – كالامام علي كرّم الله وجهه – وفي الحلق شجى وفي العين قذى ، بل يصرخ :

يا قوم ، ما الدين عادات معطلة   وانما الدين تحليل وتحريم
لا تجعلوا آلة التفريق دينكم   فالدين عن وصمة التفريق معصوم

وعملاً بالقاعدة الذهبية : ابدأ بنفسك ، يعنّف النجف الاشرف بقوله :

متى اذا حثّ اقليمي شقاشقه   عجت ترد صداهن الاقاليم
اظهرت بعض عناء لست اكتمه   لكل جلّ عناء النفس مكتوم

اللهم فرجاً. وكأنه يئس من تقويم الحطب فعاد الى الغصون ، فقال يخاطب الشباب في صيداء :

انتمُ جيل جديد خلقوا لعصور مقبلات جـدد
كونوا الوحدة لا تفسخها نزعات الرأي والمعتقد
انا بايعت على ان لا ارى فرقة ها كم على هذا يدي

ثم يصفر مخضوضر الرجاء فيقول في ساعة سوداء ، وللشعر ساعات :

شبـاب طـائش نزق وشيب ما بهم رمق
وشعب طالب ثقـــة فـدلوه بمـــن يثـق
ففي آرائنـــا شيـــع وفي أحزابنـــا فرق
قـد استشرى خلافكم الا يا قوم فـاتفقوا

وسئم عنعناتنا وتفاخرنا بالقديم كأننا البطاطس خير مـا عندنا تحت الارض ، فقال :

زلت حديثـاً أمـة ابـداً تفاخر بالقـدم

أما المرأة فما منحها الشبيبي طرف عينه الا ليقول لها : إلزمي البيت :

بتدبير المنازل هن أولى وهم أولى بتدبير النزال

وفي قصيدته « روح الرسول » نفحة من اخوة كرامازوف إذ يقول :

واكبر ظني لو أتانا محمـــد للاقى الذي لاقاه من أهل مكة
اذن لقضى: لا منهج القوم منهجي ولا مـلة القوم الأواخر ملـّتي

ومن عين شمس اليقين ضياء ينتقل الى ظل شك عابر فيقول :

فيا عالم الليل هل رجعة الى عالم منك اوفى سنى
ويا ايها الازلي القـــدير أساراك نحن فرفقاً بنـــا

وتتوالى المحنة فيقول :

يظنون هذا العصر عصر هداية وأجدر لو ندعوه عصر ضلالات

فان خرافات مضت قد تبدلت　　حقائق الا انهـــا كالخرافات

ثم تظلم الفكرة وتضيء في وقت معاً :

خبرونا عن السماء وقـالوا　　فلـك دائر وشكل كريّ

ربما صحّ ما رأوه ، ولكن　　خير رأييك ما يراه النبي

وينزع نزعة صوفية في قصيدة بين العقل والقلب ، ولا يحجم عن لزوم ما لا يلزم ، ثم يصرخ من وجد اللحم والدم :

يا واردي ماء الحياة　　تذكروا أنـّا عطاشى

ويشتدّ به الوجد فيخرج من جلد رصانته ، والحبّ خدّاع يصغـّر العظائم فيقول :

لولا انفراد أحبـتي بخصالهم　　ما سار لي في الدهر بيت مفرد

يتجسد الطـائي بي وقريضه　　والبحتريّ من الفحول واحمـد

وتتراءى له الدنيا كعفطة عنز فيلقي — كالإمام — حبلها على غاربها ويقول قبل ان يختم باب الوجدانيات :

انا من سيّر الكواكب شعراً　　تتوالى بـكم فيمـلأن كتبي

ربمـا جـــاء في القريض نبي　　همـــه نسخ آيـــة المتنبي

بيد ان تلك الآية لم تنسخ ، ودليلنا على انه كان يمزح ، هو قوله لسيد الشعراء في ذكراه الألفية :

يا شاعراً قـاد القلوب لغاية　　لم يدنُ منهـا شاعر او قائد

اما رأي السيد الشبيبي في الشعر فكرأي بشار :

متى خيروني في الكلام ونسجه　　رضيت بسيط القول لم اتأنق

وأحزنه تقصير المتأخرين فقال :

أهيم بسرّ الابتــكار لانني　　وقد طال عهدي لا أرى غير ناقل

فما حبسه يا ترى في حصون القدماء حتى لم يحد عن دربهم قيـــد

شعرة ؟ لعله رعيه الحقوق كما قال :

ولولا حقوق رعيها لي عادة لـكان لمهري أينما جال ميدان

ورياضة النفس على الاخلاق الفاضلة تحـــل المحل الاول عند السيد حق قال فيها :

أصحّ عبـاد الله دينـاً ونحلة مجاهد نفس لا المصلي المسبّح

ولا بدّ من القول ان براغيث الحب اكلت الشاعر الشبيبي حق قال :

تفاهمتا عيني وعينك لحظة وأدركتا ان القلوب شواهد

وكأن الحبيبة اعجبها منه ذلك ، فقالت له : ثنّ ، فـلم يجعلها بيضة الديك فقال :

وأسهرتنا الشهب الحاكيـات عيوناً يشاركتنـا في السهر

هذا البيت من قصيدة عنوانها : « حديث القمر » ويا له حديثـــاً طلياً لذيذاً فاقرأوه في الديوان .

وخير ما نختم هذه الكلمة عن الشاعر هو قوله :

فتنة الناس ، وقينـا الفتنا باطل الحمـد ومكذوب الثنا
كلنا يطلب مـــا ليس له كلنـــا يطلب ذا حق أنا !
ايهـــا المصلح من اخلاقنـا ايهـا المصلح ، الداء هنـــا

صدق الشاعر ، وعجز الناقد عند هذا الطمع الاشعبي فصيّر خلانـــه اعداءه . أما السيد الشبيبي فحسبنا وحسبه ان حمدنا له حق وثنـــاءنا عليه غير مكذوب فيه .

أحمد الصّافي النجفي
في تيّاره

١

في ثاني نيسان لا في اوله حمل اليّ صاحب البريد كتاباً على غلافه اسم احمد الصافي النجفي ، فراعني ان يكون « التيار » لأنني كنت قرأت في السياسة الاسبوعية ان الشاعر قال لواحد — نسيت اسمه — إن تياره سيجرف الشعراء اجمعين ...

وقفت عند هذا الكتاب وقفة النابغة في دار مية بالعلياء فالسند ، فعنوانه مكتوب بالقلم الكوفي المشجّر فكان كقرص مشبّك ، ولولا ان هناك عنواناً في قلب هذا ، لما قرأته وبرد قلبي . شكرت ربي لأنه الامواج ، فالامواج قد نماشيها أما التيار فمن يجاريه !..

ثم حالت شؤون هزل اشغالها جدّ دون مطالعة الديوان حتى ذكرت ان للصافي مقاماً بين المعاصرين لا يبعد أن يظنه هو كمقام المتنبّي بأرض نخلة ... وظللت أروح وأجيء حتى خفت أن يموت العام ولا أقول كلمتي فيه ، ولاسيا ان الكتب تتكاثر على الرفّ فأخذته . لم أطوِ أول صفحة منه حتى عرض لي عارض وكانت التجربة . قلت لنفسي كأني أحدّث

شخصاً غريباً عني : بأي وجه تقابل عبارة الصافي الكيّسة وثناءه العاطر عليك ؟ قاتل الله النقد ، انه يسوّد الوجه . تذكرت التقائي بالصافي قبالة السراي الصغير في بيروت وتعرفي به ، وما أغدق من عبارات اعجاب ، فما كدت أمسك القلم حتى أفلتّه . لا أفكـّر بما أقول في الديوان حتى يتراءى لي شبح الصافي اللذيـذ فأتمثّل نظراته التائهـة البريئة ، فوقفت كالغريب في مفرق الطرق ، حائراً .

ويقيت هكذا زمناً حتى قالت لي نفسي : ما تراه يكون لو ضحيت باخلاصك للفن والشاعر ؟ ثم ما قيمة هــذه العاطفة السامية ... وهي سكوت ونوم ؟ أتباع بفلس لو نادوا عليها في اسواق الادب ؟ ولماذا اهدى اليك الشاعر ديوانه ؟ اليس لتقول كلمة فيه ؟

فتنبهت اذ ذاك لعهد قطعته ، يوم كتبت الكلمـة الاولى ، فقهرت عاطفتي والقيت قاربي في « امواجه » ، فعسى الا اغضب الصافي كما أغضبت سواه من رفاق واصدقاء وخلطاء صبا وشباب .

٢

حقاً ان ديوان الصافي امواج فيها من كل شيء . ومـــا اشبهه بليل امرىء القيس ...

الصافي بائس حقاً ، وشعره بله المبالغة ، ينم عن بؤسه . ولكن البؤس ، وحده ، لا يعمل الفنان . اما البائس فيعمل شعراً ان كان ذا قريحـــة كالصافي ، وبين الشعر والفن مسافة لا يجوزها الا من يؤمنون ، ولا يشكـّون كالصافي . ان في الشعر فناً يثقـّف بُنيـّات القرائح ويهذبها .

ومشى القلم رويداً رويداً فأخذت انسى انني عرفت الصافي ، ثم بعدت

الشقة بيني وبينه فنسيت كل شيء ، إلا ان للصافي ديواناً أهداه إليّ ، وقد خرج هذا الأثر من يده وصار ملكاً للأدب العربي ، فعلينا ان نصدِق صاحبه القولَ ، كما نصدق النصيحة سواه ، ليعالج شعره العتيد فيستقيم له الفن والشاعرية ، ولا يحيا شاعراً بلا فن .

وسألت نفسي : أتعرفين يا هذه ، بماذا يحرف الصافي الشعراء اجمعين ؟ فعيّت جواباً . فرحت أتساءل : أبالمواضيع ؟ انها وحدها ، لا تعمل شاعراً ، فقد يكتب ناثر أروع منها وارقص . أبالنظم ؟ فهو يعترف انه لا يصنع شعره بل يرسله كما خلقتني يا رب . فهو في الفن على دين الشاعر القائل :

ان المليحة من كانت محاسنها   من صنعة الله لا من صنعة البشر

هب الصافي « لامرتين » اما عاب عليه نقاد الفرنجة استسلامه لفطرته ؟ وهل يظن الصافي ان الاغراض وحدها تجعل الرجل شاعراً خطيراً ؟ قد تجعله فيلسوفاً اما شاعراً فلا .

فشاعرنا المعرّي نظّام في أكثر لزومياته ، وان أغرق في حبكها وتقييدها بالقيود والاغلال . اما شاعريته الفذة ففي نثر « رسالته » . ما أشبّه منظوم فلسفة « لزومياته » ، من بغض انسان وحب حيوان الا بألفية ابن مالك . ولولا ما فيها من شعور يكاد يتقد لبرئت منها الشاعرية . والشك ! هل يعمل الشك شاعراً ؟ فكم من أناس شكوا حتى قتلوا ، كابن القدوس مثلاً ، ولم يرفعوا إلى سرر الشعراء الكبار لانهم شكوا وقتلوا ليس غير ...

بيد ان هنالك موضعاً آخر لشاعرية المعري هو في شخصيته . والصافي من هذه الناحية ، شاعر أيضاً لو انه تأنى كالشعراء وهذب شعره كما هذبوا شعرهم . فحب الحيوان لا يعمل شاعراً ، اذا لم يتكلم

الشاعر والحيوان معاً بلغة الشعر ، اذا لم يجسّد الشاعر معانيه الطريفة بألفاظ تأتلف حتى تكاد ترنّ وتطن . فالشعر موسيقى قبل كل شيء آخر ، والا فالنثر خير منه وابقى . ولو كان ملاك الشاعرية الكبرى عطفاً على الحيوانات لكانت جمعية الرفق اعظم شاعرة عالمية . ان ما كان بدعة في زمن فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة صار اليوم مبتذلاً ، والشعر لا يحيا الا بالطرافة .

وبعد فليس للناقد ان يعارض الشاعر في اغراضه ، بل ان ينظر فيها . وقد فعلنا فرأينا ان العناصر التي تتألف منها شخصية الصافي في أمواجه ليست جديدة ، فهو لم يكتشف اقليماً جديداً ولكنه توسّع وتبسط في وصف اقاليم عرفناها فأتانا بشعر هلهل النسج ولكنه صادق. الصافي شاعر ولكنه لم يحذق فن الشعر بعد ، فما احوجه الى ديباجة متينة مشرقة كالتي للرصافي — لو قلّت رواسمها « الكليشيهات » — اما اذا كان يطمح الى شاعرية كالتي للزهاوي فليسترح ، لقد وصل . إلا ان هذه الشاعرية العتاهيّة — لا يعمر منها طويلاً إلا القليل مثل قوله :

يا للشباب المرح التصابي　　　روائح الجنة في الشباب

وهذا قليل بل ندر في شعره الكثير . أما ما كتبه ابو العتاهية على كسر الجرار للفتيان والغلمان فقد هلك ، كما تهلك الاعشاب اذا اشتد القيظ فلا يبقى الا الزرع يرتقب الحاصدين ليفضّض مناجلهم .

ان اكثر الذين حدثونا عن الصافي ودلونا على شاعريته لم ينظروا إلى فنه بل عبروا لنا عن تأثرهم باغراضه . فخلعوا على الشاعر جبباً فضفاضة لا يشبهها شيء غير أعطيات ملوكنا ، في ذلك الزمان ، اجريت على الشعراء الوفاً وكرّات ، واعطوهم من الجمل اذنه .

قال رينه دوميك الناقد الفرنسي بمعرض كلامه عن جيل لامتر الناقد

الآخر : « كل حكم فني ليس له مقاييس مستقلة عن شخصيتنا تبطل قيمته متى انسلخ عنا وانفصل ، فلا يكون الا وصفاً للذة شخصية قد لا يشاركنا بها احد . وقد نرى نحن رأياً آخر اذا قرأنا ذلك الاثر الادبي مرة أخرى ، وذلك لاننا نحن نتغير . فمقياس الفن يجب ان يكون غير التأثر والعاطفة . أما اذا كان النقد هو ما نتأثر به نحن لا غير ، فتلك هي الفوضى في الادب » .

٣

ينبئنا الصافي انه لا يُعنى بشعره ، فهل هـذا يعفيه ؟ فللشعر لغة غير لغة النثر لا بد من امتثال طريقتها لمن يقوله . وان نسأل شعراءنا شيئاً فهو الخلق والابداع ، ليس في الاغراض وفي المعاني فقط بل في التعابير التي تتغذى من حياتنا الحاضرة ، فنحس بها كما فعل شعراء العرب في كل طور . ان التعابير صور اجيال مضت تفرضهـا عليك كتب الادب ومعاجم اللغة ، فاقتبس منها ما لاءم اذواقنا ودع التعابير الشائخة الهرمة كالاغصان المكرفحة . ان القضب في اعمال البستاني كمخافة الله في حكمة الاقدمين ، ولهذا نطلب من هواة التجديد في ادبنا المعاصر ، تعابير حية لصور ومعانٍ حية .

ولم لا يكون للشعر لغة خاصة ما زال للسهرات أثواب ، وللمراقص لبوس ؟ فهل من يلومنا اذا اوعزنا إلى اخينا الصافي بأن لا يدخل ديوان العرب ببذلته هـذه ؟ فأي عذر لحسناء ، ونحن لم نستعجلها حتى تدخل علينا منبوشة الشعر ، دسماء الثياب ، تفوح من اردانها رائحة المطبخ ؟ !

فالادب لا يثبت إلا إذا استقام له اسلوب وتعبير رائعان بعيدان عن التقليد والابتذال ، تستقر بهما العاطفة الانسانية بجانب العقل الرشيد . اذا كان الالماس يثمّن ويسدّس ويخرط ليغوي ويغري ، ثم ينحت ويصقل حتى يكوكب فكيف بالشعر ؟ هب المعنى الماساً ؛ فمن رأى رجــلا تحلّى بالماسة فصرّها في طرف منديله ؟ انه يجعل لها ظرفاً من الذهب الابريز ويغالي في زركشته . ثم من رأى زهرة بــلا كمّ ؟ هب المعنى عبيراً فهو لا يطيب لنا محبوساً في قــارورة كما نشتاقه ابتسامة في فم الزهرة .

فلا يتوهمنّ احد اننا ندعو الى جمال التعبير على حدّ قول الناظم :

ومــا مثله إلا كفاقع حمّصٍ خليّ من المعنى ولكن يفرقع

فما هذا غرضنا ، اننا لا نبتغي إلا معنىً طريفــاً في قالب ظريف تتّحد فيه كل الفنون الجميلة ، فالموسيقى والتصوير والمثالة والعمارة كلّهــا من اعمال الشاعر ، وان ظن انه لا يتكلّف شيئاً منها . يا له حمــلا ثقيلا يلقيه الفن على ظهره ، فكم يجب أن يكون قوياً !

أجل يجب أن نحسّ الموسيقى والتصوير والمثالة والعمارة في قصائــد الشعراء ، والا فهي كلمات مرصوفة لم ينفخ فيها الفن من روحه . الأثر الأدبي تصوير قوامه الشعور وتوافُقُ الألحان وموسيقاها ، والشاعر بنّــاء استاذ يهتم بالتآلف الفني بين بنيانه حجراً حجراً ومدماكاً مدماكاً ، ثم البناء بجملته . ومثّــال حاذق ترقص الحياة تحت ضربات ازميله وتشرئبّ كلما رفع مطرقته .

إن مهمّة الكتّــاب وخصوصاً الشعراء شاقة جداً ، ولهذا لم أتعجَّب حين قرأت في مجلة « الطليعة » كلمة كاتب افرنسي هذا ملخصها :

« نحن الكتّــاب أقل الفنانين عملاً ، فالمصوّر والمثّــال يصرفان نهارهما

في معملها ، أما الكاتب فلا يجلس الى مكتبه إلّا هنيهة ، بعد أن يحوم حوله ساعات ولا يقع ».

تلك حقيقة لا تجحد ، فالكتّاب كسالى والشعراء عجالى . نتوهّم ، كلّما سوّدنا ورقة ، اننا نسطّر وحياً بلا جبريل ، ونخضع لمشيئتنا الإلهيــة والإنسانيــة ، الف سطنائيل ... ولا يُجرؤنا على هذا إلا قلّة النقد : بالمعنيين .

وعندي ان أدبنا هذا لا يهتدي الصراط المستقيم مـا لم نقم عليه وصاية نقد صارمة ، فنحن اليها في الأدب أحوج . السياسة عَرَض أما الادب فجوهر ، والأديب الحق المخلص لبشريته يخلق أمة ، إن لم يكن الآن فغداً . ومَن يعترف بكفاءة وجدارة أمة ليس لها أدب صحيح ؟ ألم ترَ الأمم تشهر الحروب اليوم بإسم العلم والثقافة بدلاً من الدين ؟

نحن في حاجة الى أقلام لا تراعي في المنام خليلاً ، وأول واجباتها تقدير الموهوبين كالصافي مثلاً ، ليبدعوا مبنى ومعنى . وهناك واجب آخر أقدس وهو الدفاع عن الأدب ضد الدجالين المغرورين ، فأيّ سوق بلا مراقب ؟ ان سوق الخضرة له شيخ ...

وقبل ان نكون فنّانين وكتّاباً يجب ان نكون رجالاً — كما قـال برونتيير — أما الرجل والشاعر فوجدناهما في صاحب الأمواج ، فعسى أن يقذف تياره الى شط العرب درر الشعر الخالد ، ونرى فيه الشاعر والفنان معاً . الشاعر الفنّان من يقطع المسلك الوعر ويشتقّ طريقه في الغابـة العـــذراء ، أمـا من يسلك السكك ويماشي القافلة فلا رأي لي فيه ، فليسمِّ نفسه ما شاء .

« لا يكفي أن نقول شعراً — والكلام لـ « فاغيه » عن لامرتين — يندر الحصول عليه من عمل السجية والقريحة ، بل يجب أن نقول شعراً من

عمـل الفنان لا من وحي الجن كما اعتقد المرحومون اجدادنا وغيرهم من شعراء الشعوب . وبكلمة أوضح ، يجب ان تقترن القريحة بالفن لتـلد الشاعر . ويمكن الصافي أن يكون شيئاً من هذا ولا يكلّفه الا أن يعرج على منسج دمشقي ويقف متأملاً ...

لا بأس على الشاعر أن يكون كجواد امرىء القيس حين يقيّد أوابد موضوعه ، أمـا اذا بلغ العمـلُ التهذيب فليستعن بالصبر والاناة ، بل فليكن أبلد ستة الشاعر جميعاً ...

أما جمال الشعر فجمال داخلي ، جمال نفسي ، يشعّ من الألفـاظ كالخمرة في كأس بلورية ، فتتحد الالفـاظ بالمعاني اتحـاداً كلياً فتصير كخمرة الصاحب بن عباد واناتها . ومن هذا الجمال الذي لا تحيط بوصفه الكم والكيف يأتيه السناء الفـائق كالذي يلوح في « المحيا » الساحر « بارقاً » لو رآه الأخطل الصغير لمـا أرسل دمعه فقط ... وليقـل الريحاني ما شاء .

٤

قلنا في الفصل السابق ان الصافي توسّع في اغراض قديمة — ومن شاء فليسمّ هذا تجديداً — فضعُف تعبيره وتشوّش عليه التركيب . وقد أدرك هذا قبلنا أحد النقّاد الافرنسيين — أظنه برونتيير — فقال : « ان التجديد يتعب الفنان ويعجزه » . فكما ان المثّال لا يستطيع ان يصيّر الصخرة من الروائع بضربة واحدة ، كذلك لا يقدر الشاعر ان يبدع في أسلوب مـا لم يتأنّ كثيراً . الى هذا أعزو ضعف التركيب في شعر الصافي . فالأسلوب القصصي الذي يتعمّده تعوزه تعابير جديدة وأنمـاط حديثة ،

وقوالب طريفة ، يصوغها من معدن الكلمة ، فهو لا يحتاج فقط الى كلمات يبحث عنها الشاعر ويضعها حيث استرخى شعره فيشتدّ ، بل يحتاج أيضاً الى ألفاظ سائرة لا يغني عنها غيرها ، ولا يتمّ المعنى إلا بها . واللفظ السهل لا يشتدّ ولا تأتلف ألحانه إلا إذا كان قائله كالبحتري أو كالأعشى حين قال بلسان السموأل :

فشك غير طويل ، ثم قال له اقتل أسيرك اني مانع جاري

فهل رأيت لفظة غريبة او شديدة ، فمن أين جاء الشعرَ هذا الاسر ؟ هذا هو سر الأدب الرفيع . ومن هذا المنفذ تتسرّب الركاكة إلى شعر الصافي كما يلج الميكروب جسماً غير منيع . ويفضح هذا العيب فيه تقارب اغراضه وتماثلها ، فيبدو لك من بعيد كالعنزة البلقاء ، ففي تنوع الاغراض سترة الشعراء .

اقرأ قصيدة الصافي « الليل والنجوم » التي مهّد لها الزهاوي فقال لنا : « انه اكتشف نجماً جديداً » ... ففي هذه القصيدة ترى ديباجة رصينة بل عبارات ألفتها وتعوّدتها ، فمن أين هذا ؟ إنه أتى من تقليد الصافي للمتقدمين في المعاني والصور ، فتوفـّر على تعبيرهم ، وأتاك « برواسمهم » التي يجترّها كل شاعر فقال لك : بحر الغسق ، ونبل الحدق ، ورث الحبل وخلق ، ونهر المجرة انبثق ، وفحمة الليل ، وقرن الشمس ، وعمـود الفجر ، وقدح الزند ، والفرقدان صاحبان ، والأفق درع ، وأحمر قان ، وأبيض يقق ... وهلم جرّا من هذه البضاعة التي كبّلت وتكبّل الفكر العربي .

ليس يضير الصافي قولنا إن اغراضه غير جديدة ، فأمثاله كثيرون ، وحسبه هذا التوسع لولا الذي فيه من رخاوة . فالفكرة لا تنمو في الزاوية التي ولدت فيها ، بل تتجاوز حدود القرية وتخوم البلدان وتهاجر كالناس ، ولكن بلا جواز ... فدولة الأدب لا قناصل فيها ولا سفراء

للتأثير ، وكل فكرة « مرغوب فيها » لا تبعـــد ولا تنفى بل تتطور وتتكيف وتثري من هجرتها . وهكذا تتلاقح الادمغة الخصبة وتتوالد ، كما رأينا بين ألفرد دافيني وسعيد عقل في بنت يفتاح ... فلا يخشى الصافي ان يصير جدّاً بلا احفاد ، كما قال ، فالأفـكار تتناسل وتحيـــا وتبقى ، وأخلدها اصلحها .

واذا قلنا : ان هذا تأثر بذاك ، فلا نعني ان هذا الزواج المبارك يعقب دائمــاً ، بنين صالحـــين من ابناء السلامة ... فالمعري ودانتي واغوسطينوس ، ومن لفّ لفهم تأثروا برؤيا يوحنا حين حدثونا عن نعيمهم وجحيمهم . اما اولئـــك النخاسون الذين يسرقون اولاد الناس بشحمهم ولحمهم ويدمون آذانهم — لا عفا الله عن آذانهم الطويلة — فما هم الا قرصان بحر وصعاليك ليل .

اما الصافي فلا يقفو اثر أحد ، وليس في شفقته على الحيوان تقليـد للمعري ، كما ان تبرمه بنا نحن البشر ليس كتبرم ذاك . وإن تمادى فرأى الحيوان خيراً منا ، فقد قال شاعر قبله : .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب مذ عوى
وصوّت انسان فكـدت اطـير

تلك ساعات سوداء ، أوحت إلى الصافي ما قال ، وما أكثر سويداء المريض . اقرأ له من قصيدته « البرغوث العاشق » :

وإن أَصِلْ ربوتهـا أصلّ في محرابهـا
الثمها من فرعهـا لمنتهى كعابهـا

لتعرف ان عنده ما عند البشر ، اولئـــك القرود الذين انحطوا فصاروا ناساً ، كما قال فيهم :

فالقرد يعمل ما توحيه فطرته والمرء يعمل ضد العقل والسنن

وهل يعمل الانسان يا أخي بغير فطرته ؟ وهل السن غير لجام لها ؟ فمتى صار الرسن شريعة ؟.. اقرأ قصيدة البرغوث ترَ حباً ساذجاً وغزلاً فطرياً ، لتعلم ان اخانا الصافي غضبان علينا وحدنا نحن الجنس الخشن ، الثقيل الدم ، وتدرك ايضاً ان شاعرنا تاعس الجدّ فيختم « برغوثيته » بقوله :

وان تصدني كفّها أمتْ فدا شبابها

حلو هذا الوفاء ... سلمت يا اخي ، وعدت بخير من رحلتك المضنية . لقد صدق العرب : السفر قطعة من العذاب .

والصافي ثائر على كل شيء ، وراض عن كل شيء ، واظنه يفتش عما يثور عليه تفتيشاً ، وفق الله سعيه ، ولهذا يصعب علينا الآن تحديد اتجاهه في أمواجه ، أو نقول من يشبه . فهو لا يشبه إلا احمد الصافي النجفي ، بل لا يشبه ذاته في قصيدة وأخرى . إني لعلى يقين أن الصافي يحلل لنا نفسه في مواضيع عديدة ، ولكننا لم نظفر بعد بصورة واضحة الدلالة بألوانها وخطوطها ، فلا أدري اذا كانت نفسه معقدة بهذا المقدار فلم يوفّق الى تحليلها . فبدلاً من أن يرينا الصافي نفسه أرانا مباذله ، وما عنده من آلة فجاءت وجوه بعض صوره مقرفة ... خبّرنا عن عواطفه خبراً ، ولم يتغن بها كالشعراء ، فكالمقرر عندي انه لم يجد نفسه بعد ، فهو في لبكة عوّاد يصلح أوتار عوده المشوّشة ، أو كالسديم الذي يدور على ذاته ليتم نوره ، فعسى أن نرى كوكباً ساطعاً وشهاباً ثاقباً .

والصافي في أمواجه كطفل يبكي ، فما نحن ندري ولا هو يدري ما يريد . فبينا نراه يحنق على فارة وينصب لها مصيدة اذا به يطلقها ، والعفو عند القدرة جميل ... ثم يزعجه ديك فيتمنى له الذبح ويشتهي ان يكون له ابن آوى لولا السياج المحيط به ، اسمعها شعراً :

فلو أسطيع كنت له ابن آوى ولكن قد أحاط بـــه سياج

العهد بالشعراء يحبّون الموسيقى والجمال ، والديك موسيقار جميل ، فاتنة ألوانه ، وشتان ما بين فارة وديك ، ولكن الصافي مولـــع بالنقائض . اما ما يبدو لي ، الآن ، من اتجاهه فهو ميـله إلى الوصف وخصوصاً ما يخالف منه العرف ، فيستخرج حكماً وعبراً كشعراء العرب الذين توهموا ، أمس واليوم ، ان الحكمة خالة الشاعر ، ومن لم يقـــل الحكمة فهو عندهم كمن لم يزر حلب عند اخينـا بشاره في متنبئيته ... وهذا ما اقصى شعراء كثيرين عن الفن .

وبعد ، فليثر الصافي على كل ما تواضع على احترامه البشر الا ديباجة الشعر وألفاظه والقواعد النحوية ، فان ازدراها ازدرى فنه . لم ارَ له ضريباً في هذا النحو الا فرنسيس مراش الحلبي ، كلاهما حاول التجديد وكلاهما لم يؤدّ اداءً حسناً ، والفرق بينهما ان الصافي لا ينقصه الا الجلد ، اما مراش ففعل ما أطاقه .

اية ضرورة قضت على الصافي ان يقول :

اذا « هِجنَ » الديوكُ « وصِحن » حينا
فـــذا طولَ الظلام له هيـــاجُ

ثم قوله :

وكم « ضعن » مني في خيالي لذائـــذ
فلم تبق لي منهـــا ولا لذة الذكرى

ما لنا وللبحتري ، ولكن أنرضى بها غلطاً ، كأني به يريد أن يتابع عمر بن أبي ربيعة حيث قال :

« رأين » الغواني الشيب لاح بعارضي
فأعرضن عني بالخـــدود النواضر

وكن اذا ابصرنـــني او رأينني
سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

فلو قلنا لعمر مغفورة لك خطاياك لاجل هذه الصورة الجميلة ، أنقول ذلك للصافي وهو لم يخبرنا الا ان الديك يلج في صياحه ... فما أحسب الصافي قد ارتكب هذه الاخطاء الا عمداً ، لانه يحب الاخطاء كما سترى ، أو أن غرفته تذكره دائماً بلغة « اكلوني البراغيث ! » كفى لغتنا هـذا التميّع والتمطط في قواعدها وألفاظها . ثم ما أجبره على القول : « فلو بأية حيوان تبدلني ؟ » وعلى القول :

احشاهمـا باليـــات كما (بلت) احشائي

ما لنا ولهذه الاخطاء الآن ، أفلا أظفر بتعبير جديد في ديوان قرأته من الدفة إلى الدفة ؟ فبماذا تفوق امرؤ القيس وعمر حتى قالوا بهما : أول من قيّد الأوابد ، واول من حيّر الدمع وماء الشباب ؟ الخ ...

ان في الصافي حسناً ولكنه في شعوره لا في شعره ، حسنُ جميـــلة غير مهندمة ، ضاعت معاني جمالها في ثنايا ثوبها المجعد . قلّما نلمس في ديوان الصافي اثراً للشباب بل للرجولية ، وقد قلّت الوانه حتى الندورة . امـا رجولته فتتجلى حتى في أشد حالات بؤسه ، فما هو ذلك البائس الرخو بل بائس صلد كالرخام تحت مطرقة النحات وازميله . اما العزمة العربية في شعره فهي كالبرق الذي وصفه امرؤ القيس ، كلمع اليدين في حـــبي مكلل . والخلاصة ان في الصافي نخوة الفرس العربي الاصيل مهـــما هزل ودقّ . اما حنينه إلى الطبيعة وغضبه على المدن فينبع من نشأته الاولى التي طلقها فصار يرى نفسه كمنفيّ ، ولهذا جاء شعره وثيق الاتصال بحياته .

ترى في ديوان الصافي أشباه صور ، فهي لا تستوقفك ولا تستهويك لأن صاحبها لم يحذق ابراز خطوطها ذوات المعاني ولم يجد تلوينها ، وهو

لو فعل لأرانا جمالاً . يحاول الصافي اجادة الختام كأبي نواس وان لم يحسن جمع نفسه في زوره كأسد المتنبي ، ليقفز ختامـــه قفزاً ويحمز جمزاً . اسمع مله يقول عن التاجر الشامي الذي خال الصافيَ أميراً بدوياً ، وهو مارّ بدكانه :

ثم القى شباكَ بشرٍ ولطفٍ فوق وجهي يرجو بها أن يصيدا
هبّ لما مررتُ بالقرب منـــه قائلاً : ما تريد ؟ قلت : «نقودا»

وبوجه عام ينقص شعر الصافي كثير من الدم ، فهو بحاجة إلى كمية وافرة من زيت السمك . اما هو فيرى الشاعرية كلها في مخالفة الناس ، ولهذا يكتفي بوصف الاشياء دون تشخيصها ، فتبقى كما هي ، أي اشياء . واذكر انني قرأت له شعراً قال فيه انه يريد ان يقول شعراً منطق الطير لفظه ، فيا حبـــذا ، وعسى أن يكون أعذب الطيور ترتيلاً ، ومن يؤتِ هذا فقد أوتي شيئاً كثيراً ...

نحا الصافي في ذكر قبحه نحوَ عنترة ، ولكن الشاعر الجاهلي كان أبرع جداً فاستغل سواده حتى لم يبق غذاء في ذلك السواد الا امتصه ، فأخرج الصور الرائعة مبنى ومعنى . وابيات عنـــترة مشهورة . واذكر شاعراً آخر ، أسود أيضاً ، هو محمد امام العبد المصري ، قد أخرج صورة رائعة لسواده حين قال يعتذر عن عزوبته :

أنا ليل وكل حسناء شمس فاجتماعي بها من المستحيل

وقد حلل أيضاً عنترة نفسية جواده — ولم يتعلم علم فرويد — كسلامه موسى الذي طلع علينا مؤخراً بسادية المتنبي — فأجاد بقوله :

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إليَّ بعبرة وتحمحم

كما حلل الصافي نفسية بعض القطط والكلاب والفـــار ، ففي قوله : « فضحونا حتى أمام الكلاب ! » ختام رائع وسخر لاذع ذكّراني بقصيدة

لأسعد رستم الشاعر الظريف ختمها بمـــا معناه : إن هزّ أذناب الكلاب أصدق من هزّ أيدي البشر .

وأرى الصافي يبالغ جداً في وصف « غرفة شاعر » وغيرها . يرشدني الى هذا الحكم تغنّيه بقبحه . أنا لم أرَ فيه جمالاً ولكني ما رأيت قبحاً كالذي يصف ، فلا قبح ولا دمامة ولا عاهة — خلقة كاملة ، نعمة زائدة — كما يقول المثل . هذا اذا لم أكن مبتلى بخداع النظر يوم لقيته ، او جعلت وجهي مقياساً للجمال الرائع ...

ذكرتني قصيدته « غرفة شاعر » بقصيدة ابن الاعمى في ذمّ دار سكنها ، والشاعران بالغا جـداً . لو كان في غرفة الصافي قيراط مما وصف لأكلته تلك الحشرات ، فالمومياء لا تسلم من تلك الفئران والجرذان . واذا كان الشاعر ينام حقـاً في « أوضه » كالتي وصف ، فقد ظلمناه في تلمسنا الفن عنده وتطلبه منه . اليك ما يقوله في مفرشه وغطائه :

صارا ثمينين لمـــا صارا من القدماء
احشاهما باليات كما «بلت»احشائي
حـــتى كأنيَ شلو أنام في اشلاء

وما زالا من جيل نوح فأعجب كيف اجتاز بها الحدود ..! وأشك أن في دمشق بلدية ...

٥

ان شعر الصافي يشتدّ في القصائد القصيرة الوزن ، وتقل فيـــه : قد ، والكلّ ، وكلّ ، والغير ، وذا ، والبعض ، ووجود ، ومـــا اليها ،

من الالفاظ التي يحشو بها شعره ليستقيم الوزن . قابل اذا شئت ، قصيدة « البرغوث » ، و « سراجي » ، و « الوحدة » ، و « البدر في الهالة » و « إلى العميد » ، بغيرها من قصائد الصافي الطويلة الوزن .

ويشتدّ شعر الصافي أكثر في المواضيع العتيقة ، قلباً وقالباً ، كالليل ، والنجوم ، وقد اشرنا اليها ، والهواجس الثائرة ، وبين الفرس والعرب ، ووصف الشاي ، فيكاد يسلم من حوشي الكلام ، وتلك الطفيليات . والصافي لا يتحاشى تسكين المتحرك — قاتل الله من جوّزه للشعراء — فيسكّن الحيوان ، والخشن ، والنهم ، فيزحف شعره سلحفاة ، والشعر يحمل أن يكون فراشة . فاذا صحّ ان للمحيط تأثيراً بالشاعر ، وهذا لا شك فيه ، فخطيئة الصافي في رقبة تلك الغرفة . فالذي يأوي إلى مثلها لا يبالي بتكردس الفاظه وتدربكها ...

ورب قائل قال : قد فرغ الصافي مما تستجهد فيه ، اما قال في مقدمة أمواجه :

واسكن كوخاً ما به أي زخرف ولكنه كوخ اقامته لي يدي

قلنا اذا كانت البلديات تهدم مثل هذه الاكواخ وتحرقها ، وتسهر على هندسة الشوارع وتخطيطها ، فأحرِ بنا ، أن نفعل مثل هذا للمدينة الخالدة .. وكيف نرضى للصافي بكوخ وهو يقدر على تشييد قصر لو تجلد ؟ فلو لم يكن الصافي شاعراً سليقياً لما أعرنا ديوانه هذا الاهتمام . فالنفس نفس شاعر ، اما التعبير فكذئب البحتري ما فيه إلا العظم والروح والجلد . ومن يكفل لنا ان الصافي لم يقل هذا إتضاعاً كدي موسه . فالشعراء كالنسّاك في السنتهم تواضع عميق .

أما بؤس الصافي فتلمسه في قصيدته « ما اسم هذا اليوم » لا في « غرفة شاعر » ، ولا « في الوحدة » ، ولا في « الحنين إلى الطبيعة »

حيث يقول :

طبيعة الكون في خلقي لقد غلطت فلو بأيـــة « حيوان » تبدّلني
هل جئت دهري هذا في أواخره أم انني في وجودي سابق زمـني

أما أنا فاظن الامرين : الزمان آخر والصافي سابق . امـا الحقيقة فعند صبي المعري الخبيث ... ثم ما لي ولهذا الجهد فحديث الشاعر من باب تجاهل العارف ، وتلك شكوى الشعراء من « أهَيْل » زمانهم فلا حول ولا قوة ...

ويتيم الصافي يذكرني « بأمّ يتيم » الرصافي ذات الديباجة البحترية . اما كيف انشقـَت الارض وبلعت شاعرية الرصافي فهذا ما يحيّرني ...

تملّص الرصافي من قال ، وقالت ، وتقول ، ويقـــول ، وتعثّر الصافي بيقول وتقول ، وكأنه شعر بثقلها فأراد ان يتخلص منها فجاءنا بتدعو ودعاه ، فكانت اثقل وأشنع كما ترى :

فيقول ابن ابي « فتدعو » غائب فيقول غاب اما له من مرجع
ولربمـا وجد الحنان من امرىء «فدعاه» انت ابي وكنت مضيّعي

اما صرخة الصافي في ختام « يتيمه » فموجعة حقاً ، لانها منبعثة من كبد مقروحة ذاقت مرارة اليتم :

ليت الصغـار جميعهم لم يعرفوا آباءهم وربوا معـاً في موضع
كيلا يصيب اليتم بعضاً منهم فيعيش عيشة بائس متسكع

وما اوقع الصافي في تلك الورطـة الا تبسطه في الغث والسمين ، وتفصيله كل حركة كأنه يصف حفلة لجريدة : اقرأ « اليتـــيم » و « انا والدجاج » و « الشاعر والفأر » و « الشاعر والقط » ، فترى ان الكلام لم يَنْقَدْ له في القصص الا في « بين شاعر وصاحب فندق » التي اجـاد الريحاني حلها في « قلب العراق » فأخرجها فكهة رشيقة ككل ما يكتبه

الريحاني في هذه الاغراض :

فبينا تراه يقول ويبدع :

ان رمت في الدهر ان تحيا فكن خشناً
فمنخـــل الدهر لا يبقي سوى الخشن
يعدو الزمان فمن لم يعـــد مستبقاً
امامـــه سحقته أرجـــل الزمن

اذا به يسفّ ويركّ شعره حين يقول :

مـــا ارى المجلس الا حاكياً صوتـــه عن مجلس منعكسُ
ضم آلات بسلـــك ربطت فـــاذا حرك يومـــاً ينبسُ

ألا ترى كيف اخبرك ان المجلس كالحاكي ، ثم شرع يفصّل لك كأنه يشرح للتلامذة درس فيزياء ؟ ... فهـــو لا يوجز ولا يرمز ، ولا يثق بفهم الناس . ورآهم لم يقدرّوه قدره فساء ظنـــه حتى بفهمهم شعره ، فشرح لهم حتى أملّهم ، والملدوغ يخاف جرة الحبل ...

وفي « خيبة الشعب » يخاطبنا الصافي بلغة « الميجانا والعتابا » فيقول :

تالله ما اعظمها من خيبـــة نحن زرعنا الزرع والغير حصد

اما الزجّال اللبناني فقد قال ابلغ من هذا الشعر :

يـ شجرة البالدار ناطورك اسد وتكسروا الاغصان من كثر الحسد
نحنازرعناالزرع وإجاالغير حصد يا حسرتي عبّوا القمح بعدالنـــا

أسمعت الشعر الباكي المؤلم ؟ هذا الشاعر يبكي ويبكينا معه لانه صادق ، فاين « تالله ما اعظمها من خيبة » التي عصر الصافي يافوخه حتى اخرجها ، من قول الزاجل : « يا حسرتي عبّوا القمح بعدالنـــا » ؟ ... أرأيت يا اخي الفصيح ، روعة الشعر العامي ؟ فهذا الهتاف يا حسرتي ، وهـــذه الصورة الباكية : عبّوا القمح بعدالنا ، اي حصدوا زرعه ونقلوا الحنطة

في عدله ، فتأمل .

وما قولك يا سيدي الشاعر الكبير ، بالصورة الاولى : « شجرة في الدار ، وناطور اسد ، واغصان تتكسر من كثرة الحسد ؟ » . لا تنس ان الحسد يشغل بال القروي جداً حتى على عنزته وبقرته و ...

ومتى عرفت ان هذا القوال لا يعني بالشجرة غير حبيبته التي انتزعت منه ، فلا شك ، انك ستشايعني وتزعم زعمي ان هذين البيتين من الشعر الحي . فكل لفظة تبوح بمعناها وتخبر عن لوعة صاحبها ، حتى تكاد تشخصها لك .

وكأني بالصافي يدرك ان الالفاظ لا تطيعه فيقول لنا :

أهوى المعاني عن ثياب اللفظ تظهر عاريه
فالشعر تحجب نوره ألفاظه والقافيه

اذن فليكتب نثراً فيريحنا من النقد ! ان الوزن والقافية للفنان كبؤرة العدسة التي يتجمع فيها النور . أما الصافي فما اكترث لألفاظه ولا بالى بقوافيه ، فجاءت نافرة شاخصة ، طالعة نازلة ، مداميك لا يردعها خيط ولا فادن ... واليك شاهداً من قصيدته « الشاعر والقط » التي بلغناها الآن :

وكنت مكابداً خجلاً لطردي قُطيطاً قط لم يذنب ويجني
حياي من القطيط حياء نبل وليس حياي منهم غير جبن
ففاق حياي منه على حياهم لذاك ضممته لي ضمّ خدن
فهل هو شاعر القطط التقى بي فألف بينه طبع و « بيني »
أيبغي ان ينافسني بشعري ونظرته عن الاشعار تغني

حقاً انها منافسة غريبة قريبة ... ارأيت مرة أخرى ماذا يفعل «التفصيل» بأخينا الصافي ؟ وهل من بأس علينا اذا تساءلنا هنا عما تراه يورث

الصافي شاعر القطط حتى يقول له :

وكنت اود لو تغدو لي ابناً ... أورّثـــه اذا صـــح التبنّي

لقد صح هذا يا اخي في اميركا واوربا فورثت القطط خيرات كثيرة ... وما يمنعك من هذا فالوصيّة معمول بها عندنا فوصِّ لقطك ما شئت ... وإن تستشرني قلت لك : ورّثه غرفة شاعر ، أليس هو شاعر القطط ايضاً ؟

اما « الليل والهم » فأعجبتني مبنى ومعنى ، ففيها أثر الخيــال الذي فتشت عنه ولم اجده في شعر الصافي ، اسمع وصفَ همّه :

والهم مجنون تراه هادئاً ... صبحاً ،وان جاء الدجى تهيّجا

وبعد ان يصف جنون « همـــه » المطبق ، وما كان بينهما من طعن وضرب ، وكرّ ونزال حتى استحال الصلح ، قال لنا الصافي :

لو كان همي عاقــلاً أقنعته ... لكنني قابلت همــاً أهوجا

ويلي عليك يا اخي ! ما اجمل بيتك ، وما اروع همك الاهوج ، وآه من « قابلت » ! ليتك تأنّيت وجئتنا بأحسن منها ، فلولاها لقلت لك : انت اشعر العرب يا ابن اخي ، وترّحمنا كلانا على النابغة .

وظل الصافي يتصارع وهمّه حتى مطلع الفجر ، واخيراً قال لنا :

فرَّ وألقـــاني صريعاً بعده ... وقال ألقاك اذا الليل سجا

قد ذكّرني صراع الصافي وهمّه بصراع يعقوب مع الرب كما خبرتنــا التوراة ، وحمدت الله على ان الصافي لم يفكّ جنبـــه كيعقوب اسرائيل الذي أورث البشرية « عرق النسا » .

وفي « غناء السواقي » ومضة صوفية ، وفي أبيات غيرها يقترح الصافي تسمية الشوارع بالأخلاق بدلاً من الرجــال . هب اننا يا استاذ سمينا شارعاً باسم العفة وكان كشارع المتنبي في بيروت فماذا تعمل ؟

واخيراً يرينا الصافي التناقض الذي يتعشقه في صفحتين متقابلتين (١٣٠

و ١٣١) فيقول :

أهوى الكلام من الشعور مجرداً إن الشعور قبوره الالفاظ

ثم يقول :

اللفـظ قشر وفيـه لبّ المعـاني يقرّ
كلامهمـا مستحق ان يعتني « فيه » فكر
فاللبّ يفنى سريعاً إن لم يحط فيه قشر

وأخيراً يصارحنا الصافي بما في نفسه فيقول لنا :

لي في الشعر عالم مستقل انا فيه فرد بدون خلاف
لم اشارك غيري لأني كربي واحد لا نظير لي في القوافي

صدق الله العظيم ، الشعراء في كل واد يهيمون . وكأني أرى بشاره الخوري يغضب غضبته المضرية حين يسمع هذين البيتين فينتصب وينشد :

ومعشرٍ حاولوا هدمي ولو ذكروا لكان اكثر ما يبنون من ادبي

أمـا نحن فنترك الصافي وبشاره يتناحران على من هو شاعر السماء والارض ، ونمضي في طريقنا عجالى لنرى ما عند الصافي بعـد . ها قد وصلنا . فهو يحدثنا عن نفسه بصورة أُخرى فيقول :

كأني من الأخطاء طيني مركب فما أصلح الأخطاء إلا بأخطاء

وقد فعل هذا حقاً في قصيدة « الطفلة السائلة » بقوله (ص ٥٨) :

هل تستطيع العيش من عمل وسنونهـا لم تبلغ العشرا

فأصلحها في « التصحيح » وسنينها ، وظلت خطأ ... ولا اعتبار لما ذكره ابن عقيل فذاك سماعي ، وكان على الصافي ايضاً أن يحذف اليـاء من « كأني » .

وفي آخر ديوان الصافي ثنائيات ورباعيات وخماسيات يجمعها عنوان « أنغام مشوشة » ، وهي كذلك . نظم فيها الصافي كل شاردة وواردة

شعراً ، وهذه مصيبة . وقد لاحظت هذه القطع فرأيت ان ابياتها الاولى تسخّر كلها للبيت الاخير فتبدو سحنتها كالحة كوجه الاجير عند الصباح .

وفي خاتمة الامواج يشعرنا الصافي في نظمه :

وجمال الاشعار في ان تبين الروح والسر في البيان الفصيحِ
وكجهم يسعى لتكسير مرآة مداوي الاشعـــار بالتصحيحِ
إنما الشعر مثل قذف البراكين ومثل الشكوى من التبريـــحِ
أتعيدون قـــذف طاغي البراكين لترتيبها بشكل مليـــحِ

إذن هو في واد ونحن في واد ، هُدينا وإياه . أما ما قرأت له أخيراً في غير الامواج فيثبت لي أن الايام وممارسة النظم ستعدّل الصافي من حيث لا يدري .

أمدّ الله بعمره وأراحه من غرفته وهمه الاهوج ، وحسبه من التجديد انه لم يمدح ولم يرثِ .

وليثق الصافي وغير الصافي ، ممن انتقدت وأنتقد ، باخلاصي لهم ، وانني أتمنى أن يكون العام الجديد أغزر وأجود محصولاً ، فيفيض التقريظ ويقل الانتقاد .

الصافي
في دواوينه الثلاثة

يقول العرب : كل يغنّي على ليلاه ، أمـــا صديقنا الصافي النجفي فيغنّي على ألف ليلى . فإذا رأيته على الرصيف إما متأملاً وإما شائح النظر فلا يتبادر إلى ذهنك انه من السحرة أو العرّافين الذين يرجمون بالغيب ، بل ثق وتأكد انه شاعر هائم ، شاعر بوهيمي حقاً ، يعمل بقول المثل القائل : من اهتم من غداه لعشاه كان من القوم الكفّار ...

الصافي شاعر ، ولكنه شاعر على طريقته هو . لست أشكّ في انه لا يستطيع اخراج شعره بغير مظهره هذا ، وان رأيناه في « أشعته » و « أغواره » و « تياره » أصح وأبهى ديباجة منـــه في « أمواجه » ، فللأمواج زبدها وعفشها ونفشها . أما الأشعة ففيها ضياء ولمعان بمقدار . ان حظ الشاعر من الألوان قليل لأنه غير بعيد مرامي الخيال .

الصافي شاعر واقع ، وواقع كالماء الزلال ، وان اسمى ديوانه الصغير « أشعة ملوّنة » انه نظم عفواً ، وهو شعر قاله صاحبه في مواضيع شتى ، حتى كاد ان يكون مجموعة خواطر التقطتها مخيـــلة الشاعر حين سنحت . يختلف الصافي ويتفق فيها مع زميـله الزهاوي في رباعياته ،

وهما عندي طائران تفقصت عنهما بيضة واحدة . يتفقان شكلاً وان اختلفا في بعض الموضوعات . كلاهما شاعر غير محكك . وكأني بالصافي قد أدرك هذا فقال :

قالوا قريضك لفظه صدف حيناً ، وحيناً لفظـه در
فأجبتهم اصدافــه درر لو كان يدرك كنهها الفكر

ألا يذكـّرك هذا قول ابن الرومي :

شعري شعــر إذا تأمــله الانسان ذو العقل والحجى عبده
لكنه ليس منطقــاً بعث الله بــه آيــة لمن جحــده
ولا انا المفهم البهـائم والطـير سليمان قــاهر المــرده
ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنــه الكلاب والقرده

فإذا صنـّفنا الشعراء ، وهذا ممكن ، لأن الشعراء كالطيور اشكال ، على بعد الشقة والاجيال ، رأينا الصافي في ديباجته كابن الرومي ، وان كان دونه خلقاً وخيالاً . وفي صاحبنا النجفي شيء آخر من ابن الرومي هو قلة ثقته بفهمنا نحن البشر ، فيقول :

حين أنحط بالقريض الى الأرض تزيــد الرفـاق من جانبيــا
واذا ما ارتفعت بالشعر أبقى مفرداً يضحك الانام عليــا

وهو أيضاً كابن الرومي في شنـّه الاغارة على الذين يطعنون في شعره فيقول فيهم :

قال خلي وقد تعالى ضجيج حول شعري الراقي ونظمي الرقيق
فيم هذا الضجيج حولك أضحى يتعــالى من حاسد وعقوق
قلت هــذا الانين من حشرات عارضات سحقتها في طريقي

أما النقـّاد ، ويا ويلي عليهم ، فهذا حظهم في كل زمان ، ولكن صاحبنا حمّلهم ما لا يطيقون . التقى بهم في غور من « أغواره » — دونه

غور بيسان ، فهو أحط من البحر كيلومتراً – فقال كلاماً معقولاً . أما في التيار فقد تجاوز الحدود والتخوم ، وهذا ما يفعله التيار الجارف ... فاسمع الآن ما قاله شاعرنا في « الاغوار » :

بنقـّـاد القريض برمت لما رأيتهم وقـوفاً في طريقي
فتعثر فكرتي بهم اذا ما اردت السير في نظم دقيق
وكل قـد دعـاني نحو نهج فحرت كأنما انا في مضيق
فلم أرَ حيلة لي غـير اني اسير ولا أبـالي بالنقيق

اني أقرّه على هذا الرأي فليسر . ان الناقد لا يستطيع ان يصيّر الذهب عيـار ٢٤ ، ولكن هذا عمـل الصائغ . فليصوب الصافي انبوبه على شعره ليولد اللهب الآكلة ، فهو مستطيع – إلى حد ما – اذا أراد . هذا ما أصابنا من اهوال « الاغوار » ، اما ما لقيناه من التيار فهو الداهية العمياء والمصيبة الهوجاء ، مصيبة في العنوان ومصيبة في ما تحت العنوان ووراءه ، وخلفه ، وقدامه ، ولولا يهجونا الصافي هجواً غير لئيم لهان علينا الأمر فاسمع سبابه .

سأشكر نقـادي اللئـام لأنني ركبت عليهم في طريقي الى المجد
فان قصروا في السير يوماً وخزتهم فساروا وساروا مسرعين من الحقد
يضجون من حقد واضحك هازئـاً بهم وهم يجرون بي دون ما قصد
ولو عقلوا يوماً رموني الى الثرى ومن اين تأتي للسوائم بالرشد
وهيهات يسطيعون رمي الذي علا عليهم ويعلو الحر دوماً على العبد
ومن يعل شخصاً قـاده كمطية وخير المطايا مازج اللوم بالحقد

ولا يهمل النجفي الفخر بشعره ، وهذا الفخر الطائش داء الشعر العربي الخبيث ، داء باض وفرّخ في صدور كل من قـالوا منا شعراً . والغريب العجيب ان كل واحد منا يظن انه الشاعر المفرد ، وليس من ينتقد شعره

الا حاسد لئيم ... اما صاحبنا هذا ، وليس قولي هذا بضائره ، فقد فاق كل فوق في هذا المعرض حين قال :

سموت بشعري فوق جيلي ولم يزل يشك بشعري معشر البلهاء
فان لم اكن في امة الشعر واحداً اكن امة أعلى من الشعراء

اقول آمنا وصدقنا بهذا العلو ، ولكن ايمان البلهاء لا يدخلهم ملكوت رضا صديقنا النجفي . فالملكوت مختص بذوي العقول ... ان اللاهوتيين لم يحددوا بعد الزاوية المعدة للمجاذيب والبهاليل في دنيانا الثانية ...

اما سخط النجفي فكسخط ابن الرومي ، كلاهما متبرم ضيق الصدر بالناس غاضب عليهم ، والفرق بين الشاعرين ان ابن الرومي يرمي عن قوس سخطه شخصاً بعينه ، اما النجفي فضرّاب قنابل رشاشة لا رامي سهام مراشة ، فالناس كلهم عنده انجاس . ان هذه فكرة شعرية طاغية على الشعر العربي ، ومولدها الثأر للشعر من الناقدين ، وهي التي طغت على شعر المتنبي . شك المتنبي بصديقه لعلمه انه بعض الأنام ، وقال الصافي يذم المخلوقين على صورة الله ومثاله ، بصورة لم اوفق الى نعت صارم الصقه بها ، فيقول في كلب حكم عليه صاحبه بالاقامة الاجبارية في الشارع مؤبداً ، فانتصر الصافي لذاك الكلب حين رآه حزيناً مكسور الخاطر :

يشحذ الخبز حول بائع خبز من يد المشترين دون طلاب
يسأل المشترين في نظرات قد حوت للطوى معاني كتاب

رق قلب الصافي لهذا الكلب المسكين فقصد بيت صاحبه ، واذا به يرى عنده جرو كلب جميل ، فوبخه « على تركه قديم الصحاب » اي الكلب العتيق المظلوم فكان من الرجل ان :

قال هذا جرو جميل وذاك الكلب شيخ فاعجب لهذا الجواب

وبعد ان عاد الصافي يتعثر بذيل عباءته ، قعد يقرّع البشر ويلوم حتى

ختم قصيدته بهذا البيت الطريف :

صرت آبى من نسبتي لأناس فضحونا حتى امام الكلاب

هذا نموذج – ذو قيمة – نقدمه للقراء من سخر صديقنا النجفي . ان سخره يبكي ولا يضحك ، فلا هو سخر بشاري ولا سخر نواسي ولا رومي .

اما موضوعات الصافي فلا تحلل ، لانها كنعم الله التي لا تحصى ولا تعدّ ، الا اذا خصصنا شاعرنا بكتاب اضخم من دواوينه جملة ، وهذا مستحيل ، ولذلك لم نتركه بالمرة ، ولم نقف عند كل قصيدة وقوف قدماء شعرائنا على الأطلال . إن للصافي فلسفة ولكنها كلاهوتية الشاعر سعيد عقل ، لا تفهم انها فلسفة ما لم تنبَّه . فسعيد يحسب « المحبة » علم لاهوت ، والصافي يرى البغض فلسفة ... ومن يرَ الدنيا وناسها بعيني بؤسه وشقائه فلا يمكن ان تكون موضوعاته غير ما كانت . وها هو إذ يقول قصيدته الرائعة ، في ذكرى المتنبي الالفيــة ، لا يحرم الناس من الطعن والضرب ، فيقول في نقــاد المتنبي بيتاً جميلاً . وللصافي مثله كثير في دواوينه :

قد أقاموا ملوحة البحر عيباً حين خافوا من ان يخوضوا خضمه

ثم يرى ما قيل في ذكراه شعراً نازلاً عن الشعر فيقول :

وأتى الشعر مهرجانك يشكو بعد الف إلى قوافيك يتمه

قلت : فما عساه يقول لنا الصــافي في ما قيل اخيراً في مهرجان شاعرنا مطران ؟ ان شعر ذاك المهرجان المطراني لا يليق بشماس شيخ في خدمة مذبح الرب ، فكيف يليق بمطران يؤهله شعر شبابه وكهولته ان يكون بطركاً لولا المحاباة ... كأني بهم قد راعوا النظير فقالوا في ابن الثمانين شعراً كأنــه ابن تسعين ... ويختم الصافي رائعته في المتنبي بقوله .

مدح هـــذا النبي يبغي وصياً   آخـــذ من ابائه الجم شمه
انا اولى بمدحــه وعــلاه   ان يفقني شعراً فلي منه همه

وبعـد ، فان اسلوب الصافي هو هو ، وتفكيره في « الاغوار » و « اشعة ملونة » و « التيار » لا يختلف عن تفكيره في الامواج . اما تعبيره فهو في هذه الدواوين الثلاثة خير منه في الامواج . وان كان ما رأيته بعد قراءة هذه الدواوين يحملني على القول مع شوقي :

وترٌ في اللهاة مـا للمغني   من يـد في صفائه أو ليانه

اما في الابتكار والخلق والابداع فالصافي شاعر يخوض وسط المعمعة ليس اكثر . قد يبخت بصورة او حـكاية ، ولكنه لا يوفق كل التوفيق إلى « الزخم » الذي يترك دوياً في اودية الآذان . ينسيك ختامه غالباً ، روعة تلك الفكرة التي حبل بها دماغه ، ثم تمخض ولم يلد الا جنيناً لا يوعوع حين يبصر النور .

فالى الصافي ثنائي الخالص ، وحسبه انه يقول لنا شعراً ، ان يكن غير برّاق ، فهو فيه غير متعمل ولا سرّاق . وأحسن مـــا في الاحسن من هذا الرجل هو انه يعرف نفسه كما عرفه النقاد ، وان ركب علينا جميعاً في طريقه إلى المجد ، كما قال . يعترف الصافي بذلك ، ولكنه كما يتضح مما ستسمع ، يدرك من امره ما ندرك ، ولهذا ختم « التيار » ، وهو آخر ما صدر من دواوينه ، بقوله :

نظر الناس لي فحاروا بأمري   وانا مثلهم بأمري حـــائر
انا اما ان لا اكون كغيري   شاعراً او اكون وحدي شاعر

وآخر مؤاخذة لصديقي النجفي هي تضرعي اليه ان لا يرفع الكلفة بينه وبين اللغة — وان كان قد قلل ذلك — فقوله : « نظر الناس لي » لا يليق بشاعر كبير كأحمد الصافي ، وخصوصاً لانه نجفي ، والنجف الاشرف

كيف اللغة ومعقلها المنيع .

فالى الامام يا صديقي ، انك ستجد مرعاك ، كل ساعة ، ما دمت تعبّ من ينبوع الحياة والواقع . اصفع الناس جميعاً ، وخصوصاً النقاد المناحيس ، انهم يستحقون ... اما ركوبك عليهم في طريقك إلى المجد ، كما تقول ، فأرى ان تستغني عنه بحمارة ... ان هموم مجدك المتواضع لا تقتضيك اكثر من جحشة ، فـلا تطلب غيرها مركوباً ... ثم من يدرينا انها لا تنطق كحمارة بلعام ... وتخلق لنا موضوعاً جديداً تضمه إلى روائعك ؟..

ان بشاره الخوري كان أرحب منك صدراً ، وأنعم هجاء للطاعنين في شعره . وعلى كل فموعدنا واياكم الأبد .

الصَّافي
في ألحان اللهيب

وهـذا ديوان جديد عنوانه « الحان اللهيب » للشاعر أحمـد الصافي النجفي . ان شاعرنا النجفي الذي نحتملنا ويحتمله ينتقل في عناوينه بين الماء والنار . من « الامواج » الى « التيار » ومن « الأشعة » إلى « الحان اللهيب » . أما ان الصافي ملتهب فما في ذلك شك ، فهو ملتهب الجيب مشتعل القلب . درويش اذا جاءته النعمة رفسها ، ولعلها جاءته بشخص تلك العجوز التي أتته مستميحة فقال لها :

تصافين غيري بعهـد الصبا ... وتـأبين عني ولا ترحمين
قصدت سواي أوان الشباب ... ومذ شخت أقبلت لي تسرعين
وكنت اذا ما شرحت الهوى ... أمامك من منظري تهربين
أكنت دمياً فلم تستطيعي ... لذلك رؤيـة وجهي اللعين
وأني أنا اليوم أبشع وجهاً ... فهل ان قلبي لوجهي يزين ؟

أعرف الصافي متفرداً في مواضيع دواوينه السابقة ، وكذلك وجدته في الحان لهيبه . يفتتح هذه الالحان المارجة باعلان إيمانه بالله فيقول :

كهولتي بالله قد آمنت ... ضل شبـابي ودعـاواه

فان تجد ذا شيبة جاحداً فقل الى النـار أحلناه

فقلت : حنانيك يا سيدي . امهلهم رويداً . لعلهم يتوبون ... وفي القصيدة الثانية ، وعنوانها « العدم المحيي » يغرب في آرائه حتى يقول :

وحواس الفتى حدود فان زالت قطعت المدى وجزت الحدودا

أظن ان هذه الفكرة ليست من محصول الصافي ، ما أظنها إلا من مصنوعات بسكنتنا والشخروب ... ثم يقول :

وثناء الانام ينقص من نفسي فأغـدو لذمهم مستزيـدا

وأني لأحمد الله ألف مرّة على وقوفي منه بين بين ...

والصافي نسيج وحده في مواضيعه ، فكره مهيأ لاقتبال جميع الصور بشكلها الواقعي ، يصف ما تقع عليه عينه وتسمعه اذنه ويشعر به قلبه . فاسمعه يصف سكران رآه في إحدى روحاته أو جيئاته :

نام حتى ليس منتبهـاً لآذان أو لنـاقوس
لو تراه في الفراش ترى ميتاً في جوف ناووس
وترى في وجهه بشراً ساكناً في جلد جاموس

والشاعر يرسل الكلام عفو الطبع ، فلا ينمّق ولا يوشّي ، وفي ذلك يقول :

قيل لي فيم لست تعنى بوشيٍ أو بتنسيق فائض الاشعار
قلت شأني ارسال شعري سيلاً مـا علي التنسيق للانهار

كان النقـاد في كل ديوان من دواوين الصافي السابقة حصة الأسد ، أما في الحان اللهيب فهو ارأف بنا منه في التيار ، فكأنه يوطّىء للمهادنـة والمفاوضات ولكن بقول آيسنا من كل خير رجوناه عنده ، قال :

شيطان شعري دأبـه العناد يتعب في تقويمـه النقاد
يقودهم طرّاً ولا يقـاد وكلما زاد لـه الارشاد

وناقـــدوه في أذاه زادوا ورمت نظماً حسبما أرادوا
فرّ وضاع من يدي القياد وخـــاب من نقادي المراد

تذكر قولي لك ان الصافي نسيج وحده في مواضيعه ، وهاك الآن وصف هذه المعركة بين أوراق شعر الصافي وأوراق المال ، قال :

وضعت في الكيس أوراق النقود اذا بهـــا مضايقـــة أوراق أشعاري
واذ بنار الوغى في الكيس مسعرة تؤجُ ما بين أشعار ودينـــار
سمعت شعري يدعو وهو ذو غضب يا أجنبي ابتعـــد عن ساحة الدار

ثم انجلت المعركة بعد كر وفر ، واقبال وإدبار ، عن فوز أوراق شعر الصافي ، وهذا ما كنت انتظره . فصاحبنا الصافي في مقاتلة الدينار دون كيشوت ثانٍ ... قال :

لكنما فـــاز شعري بعـــد ملحمة كبرى ، وأخرجه ، فالحمد للباري

ان هذا الشاعر الهائم يدوس كبرياء ارسطو بكبرياء أعظم منها ... وليس عدو المال ، في هذا الزمان الكلب ، بالخصم القليل . أطال الله بقاء الشاعر العزيز ليخرج من ذخائره الادبية جدداً وقدماء . وإذا شاء السامع المتعـة كامـــلة غير منقوصة فليقتنِ ديوان « الحان اللهيب » النفيس ، ليقرأ فيه قصيدة « إهداء الكتاب » ، وقصيدة « البليد الثقيل » .

عمر أبو ريشة
ديوانه «شعر»

كان ذلك في حلب ، ومنذ بضعة عشر عاماً ، يوم سمعت بشاعر اسمه عمر ابو ريشة . دلني عليه تلميذي ، يومئذ ، وصديقي فيما بعد ، الاستاذ اورخان ميسر ، اثنى على صاحبه وسماه في ذلك الوقت شاعر الشباب ، وقدّم لي تمثيلية نظمها الشاعر الشاب عنوانها « وقعة ذي قار » ، فاستبشرت بما فيها من وثبات تدل على الشاعرية المتبدة ، وصرت كلما وقعت على قصيدة له اقرأها وارجو . فماشيت الشاعر في تطوره الى ان ظهر منذ اعوام ديوان له عنوانه « شعر » فما مددت اليه يدي لانه لم يقدم الى المشرحة طبقاً للمراسيم ، اما ديوانه الجديد ، الناسخ ما قبله ، وهو يحمل شيئاً من هذاك ... فها هو الآن بين يدي .

عنوان هذا الديوان « من عمر أبو ريشة شعر » وقد سميته الناسخ لأن جريدة « كل شيء » أذاعت ان الاستاذ أبو ريشة « لا يعترف بالكتب أو الدواوين التي ظهرت قبل الآن ، والتي تحمل اسمه ... وانه يتبرأ منها » .

لا يا أخي عمر ، انها محسوبة عليك ، فما يدخل المطبعة من عبيدنا

ينعتق ويخرج منها مولى لنا . لماذا تتبرأ من بنيك ، فما هم بالسفهاء اخوان الشياطين . مـا رأيتك استعجلت الأمر قبل أوانه لتعاقب بحرمانه ... والبرهان هذا الديوان البديع الذي أخرجته للناس ، جامعاً فيه خير زاد للبلاد مذكراً الأحفاد بأمجاد الأجداد .

جلت « دار الأديب » عرائس ابو ريشة على عشاق الأدب الرفيع ، محلّاة مزينة برسوم رائعة تستميل العين والقلب ... فبينا يكون الفكر سارحاً مارحاً على موسيقى بحترية حقاً ، اذا برائدته العـــين تطل على واحات تلك الرسوم الرمزية فتصيح بالفكر المجدّ : وقـّف ... خفـّف السير واتئد يا حادي .

الحق اقول ان في ديوان ابو ريشة شعراً طالما تمنينا ان نقرأه ونسمعه ، فشاعرنا يحـــدو الكلام ويزجيه على هواه . قلت موسيقى بحترية وهاك التفصيل : في شعر عمر ما في شعر الوليد من سياق مطرد ، ورنة ايقاع وتقسيم عبـــارات ، فتمشي القصيدة متزنة الخطى كأنها قطعة من عسكر . ألفاظ مختارة منتقاة لا تنافر بينها وبين جاراتها ، ولعلّ هذا من عمل الاقليم اذا صدقنا زعم تين وبرينتير ...

والشاعر على طوله المفرط ، وامتـــداد نفسه ، يؤثر الاوزان القصيرة المرقصة حتى لكأن أبا نواس شاعره المختار ، فقلما تمخر في ديوانه بحور الشعر العابّة الصاخبة كبحر الاطلنتيك ، بل تجدها كلها على طراز بحرنا المتوسط ، ضاحكة ، مطمئنة ، صاخبة ، بمقدار ما في هذا البحر من عتوّ وصخب .

يخرج عمر من حصن القصيدة القديم ، ليبني « دارة » ذات « خرجات » وشرفات ، فتخترقها الأشعة والنسيم المطهّر ولكن هذه الاشعة لا تؤذي ألوانها ، ولا تذهب بروعة ظلالها . لا تشم رائحة العفونة ، ولا ترى وجوه

صور تعودت ان تراها كلما قرأت وسمعت شعراً . ان الفرار من قافية الى أخرى في القصيدة الواحدة يطرد الملل . وقديمـــاً قالوا : العز في النقل . فإذا رأيت اسفاف شاعرنا نادراً جداً فاعلم ، حفظك الله ، ان هذا الانطلاق قد نجى الشاعر فظـــلّ محلّقاً في جوّه الفني تشدّ قوائمـــه خوافيه ، فلا تصدق انه ابو ريشة ... واحدة فقط .

في ديوان عمر أنين حب جريح ، وفيه أهازيج حب مظفر ربح معارك شتى ، وخرج من غبارها غير معوّه ولا مهشم ، يجيش كجنح ليل بشار . ان صاحبنا محظوظ غير منكود ، يتأمر كثيراً ويدلّ ، ولكن ليس بمخلب وبحد ناب كأسد ابن عوانة ... بل بشباب له القدح المعـلى والاسهم المرتفعة في بورصة الحب ... ولعل له في اسم عمر بعض العون ورأس المال في البندر ، وان كان لم يقتصر في شعره على الحب كسميه ابن ابي ربيعة . فهذا « العمر » الجديد يقسم ذاته المتمردة بين قلبه ووطنه . يضحي بقلبه اذا كان الحب يستأهل هذا الكبش ، ويصيح بالشباب صيحة القائد المغوار في المعركة الفائرة التنور :

أشباب يا زهو الحياة ويا نشيد العنفوان
لا كنت ان ارخيت معطفك النضير على جبان

أجل يا اخي عمر ، الشجاعة أس الفضائل . هكذا علمنا السلف وهي لا تنقص شبابنا العربي ان شاء الله .

في ديوان عمر قصائد قيلت في مناسبات . ولكن عمر يلج موضوعه من غير ابواب شعراء الفرح والترح . فيدلنا هذا على ان هناك ارادة عاملة لا عادة تسوق الشاعر بعصاها . فهو لا يكسف الشمس ولا يشق القمر ، ولا يطفيء النجوم ولا يدك الجبال ، ولا يسألها ان تتماسك لئلا يزعزعها الدهر ... ان قلب الفن ليطمئن حين يسمع مثل هذه الاناشيد . فالفن

يصيح برجاله دائماً وابداً : هاتوا الجديد ، الجديد ، الجديد .

وفي ديوان عمر نخوة ولكنها غير مبتذلة ، نخوة على آثارها بيض حسان ، فهي مضمخة بطيوب عذارى الفن ، وفيه ثورة جياشة ولكنها تلبس مآزر البيان الوضاءة وغلالات فنية فتانة يختفي تحتها صدأ الدروع ، وزنجار السنان ، وأشر السيوف . الشاعر ثائر ولكنه غير هوّاش وغير سباب ، مخلص لأمته يريدها بريئة من كل عيب ، وان رأى قعوداً عن الجلّى استفزه ريعان الشباب وأرن كما يأرن المهر ... يشن الغارة الكلامية ، واول الحرب الكلام . اسمع ما يعاهد عليه خالد ابن الوليد في قصيدة تكاد تكون ملحمة :

يا مسجى في قبة الخلد يا خالد هل من تلفت لبياني
لا رعاني الصبا اذا عصف البغي وألفى فمي ضريح لساني

ان عمر يعلم ان للسّان معارك ليست اقل خطراً عن معارك السيوف ، وان قال ابو تمام : « السيف اصدق انباء من الكتب » . فمن يوقظ السيف النائم في قرابه نوم الهناء ؟ القلم كما قلت يا عمر ، يا حسان المقام ، فليهنأ لسوريا شاعرها الفخم ، فهي مستعيدة به اليوم مجداً أولانا اياه صاحب يتيمة الدهر . اما استعارة الضريح للفم فما اعجبتني .

في عمر ابو ريشة شاعران : شاعر غنائي يمرح برصانة ، ويتألم بجد ووقار ، يتجمل في حديث حبه ما قدر خوف الشماتة ... وشاعر قصصي ظهرت لي ملامح عبقريته الشعرية في وثبات وطواعية قصّ رأيتها في مسرحيته « وقعة ذي قار » كما قلت سابقاً . وهب اننا وجدنا لعمر نداً في الغناء فاننا لا نجد له ضريباً في القص على حقه . « وفي عذاب » ، وهي مسرحية منشورة في آخر الديوان ، ما يؤيد زعمي ، فاقرأها يا قارئي العزيز ، واكشف لي عن رأيك فيها ، ولعلي اعود اليها

والى عمر القصصي ، اما الآن فعليّ ان انصرف إلى غيرها من الديوان .

لقد عثر عمر في فنه على الحل الوسط لمشكلة التجديد العويصة . فهو لا يسير وراء القدماء كما تسير جياد العربات على الطريق المعبّدة : الدرب الدرب . ولا يكثر من الصور المائعة المبنية على المجاز العقلي ، وهي التي تعرف اليوم بالطريقة الرمزية . لقد أمست هذه العبارات عند بعض أصحابنا كل الشعر ، حتى أشبه بعضهم بعضاً في فترة قصيرة جداً . ان عمر يأخذ من هذه البضاعة ، ولكن بقصد وحذر . يقول مثل أصحابنا : لحن شقي ، رماد المنى ، غفوة خرساء ، تلفت عريان ، بجروح التمني ، وأطياف يتامى ، وصيحات حمر ، وخطاي الحمر . وكلها جميلة في مواضعها ما عدا « الصيحات الحمر » حين يخاطب عمر ابا العلاء (ص ٨١) :

فتعالت صيحاته الحمر تهدي لو أصابت أصداؤها آذانا

إن هذه الصيحات الحمر لا تلائم شاعر الفلاسفة ، من كان أكله العدس ، وحلاوته التين ... فما الذي ذكرك هذا النعت يا اخي ، اتراها الحافظة قد عادت بك الى قول ابي العلاء : ما عرفت من الالوان الا الاحمر ... اما في قولك انت :

حثثت خطاي الحمر عن هيكل القدس وفي حمأة الارجاس كفرت عن رجسي

فهذا النعت يليق بخطاك ، ولكل مقام مقال .

وعمر ينادي كأصحابنا الرمزيين وزن افتعال فيقول :

يا اعتداد الايام باليتم كفكف بعـده كل دمعة خرساء

ولكنه لا يغرب مثل أولئك فيزعج ... تأمل كيف يعبّر بلغة الذي أراد أن يشعر فغنّى ، فيقول في قصيدة عنوانها « حنين » :

عرفت شذاك فالتفتت تسائـل عنـك أشواقي
فلحت على خطى مني فغابت فيك احداقي

تشخيص بديع ، ولعمر في هذا جولات موفقة ، فإذا شئت ان تتفكّه بها فعليك بديوانه .

ولكن شاعرنا المبدع ، على كبر حظه من الحب والفن ، يفتتح ديوانه باليأس ، باليأس منا نحن البشر العاديين ، فيسائل نفسه في فاتحة ديوانه لمن ينظم هذا الشعر :

لمن تعصر الروح يا شاعر   امـــا لضلال المنى آخر ؟

ثم يعدّد : أللحب ؟ أللهو ؟ أللمجد ؟ أللخلد ؟ إلى ان يهيب بنفسه :

رويدك لا تسفحن الخيال   ببيداء ليس بهـــا سامر

هذا كثير يا صاحبي ، واني لاخشى ان تصاب بداء الشعراء . قـــد رأيت هذا الميكروب عالقاً بأذيال قصيدتك « عرس المجد » . اما اليأس ، وستشفى منه في الغد القريب ، فهو يقتل الشباب ، وان حلا التغنّي به في الشعر . ألا تـــذكر قول عبد الشعر : ولا ترى طارداً للحر كاليأس ؟ انشد ، انشد ، فكلّنا آذان . اننا نسمع ونطرب ونهـــتز ، فما نحن بالحجارة ولا الحديـــد . اننا نمجّد من يستحق التمجيد ، ولا اجرؤ على القول : ونخلد من يستحق التخليد . ته دلالاً فانت اهل لذاكا ، ولكن لا تتمدح فسوف تسمع مني ومن غيري مدحاً يكفيك ويغنيك .

واذا اثنينا عليك بما انت اهل له ، فلا يعني هذا اننا كممنا افواهنا أو سددنا طاقات النقد عنك مخافة ان تطير مع النسيم ... لا يا عزيزي عمر ، فأعظم أثر ادبي ليس في حرز حريز ، فارجو ان توسع صدرك . ان في ديوانك الرائع هنات هينات كان في الاستطاعة تهذيبها او ابدالهـــا لو لم تتعجل . وهب انك كببت كنانتك ولم تجد عوداً اصلب ، فالاستغناء عنها كان اولى . فهذا « المسهار والتسمير » الذي يرافقني في ديوانك قـــد يستحلى في النثر ، اما في شعر كشعرك فهو بشع ، ألم تحس مثلي بسماجـــة

هذا المسمار في قولك :

ولكل كف غضة سكينـة ولكل عرق نابض مسمار

لقد طعنت هذا البيت بسكينة واجهز عليـه مسمارك ، فلا حول ولا ... ان « منجوراً » يصنع من الخشب الثمين كطرف ديوانـك لا تدقّ فيه المسامير ...

والسناد ، وهو من عيوب القافية كما تعلم ، أراك لم تكلف نفسك الابتعاد عنه . فعلت ذلك اكثر من مرة ومرتين « راجع صفحة ٢٣ ، ٥٠ ، ٥٢، ١٠٥».

ثم ماذا نعمل لنصلح ما بينك وبين « ان » ، فهـذه العداوة بينكما ارجو ان تعفـّي عليها معاهدة صلح – ولا تكتمنّ الفن ما في صدوركم – لقد قال القدماء كما قلت انت اليوم ، ولكن شعراً كشعرك مارحاً سارحاً يجب ان ينزه عن مثل قولك : اخشى تموت رؤاي (ص ١٩) وقولك : فما اسطيع اجـلو سراً (ص ٥٠) وقولك : هيهات تروى (ص ٩٩) ، واخيراً قولـك مرتين في (ص ٢٨٣) : « وأخشى أنوء بعبء الألم » و « اريد اقبل » .

وفي « مصرع الفنان » لم يعجبني قولـك : تشرب الدمع من مقرِ انفجاره .

وقولك في الصفحة عينها « بعيد العهود عن قيثاره » . ان هذه « العهود » تدلّ على قلة صبر ، ومثلها قولك : « تمتميه إليّ » .

وكذلك قولك : « النسيم الرخو » . ومن ينعت النسيم بالرخو ؟ أندعْ القدماء أدق منا بانتقاء النعوت .

واكثارك من استعمال ما الزائدة لا يعجبني . نحن في زمن يقصون الزائدة فيه فور شعورهم بها ، فكيف نضعهـا في الهيكل الفني لتعوّهه

وتشوّهه ؟ أفلا تراها شنيعة كما رأيتها أنا ؟

مضت الليالي ... مثلما الاحلام في اجفان نائم
كالنحلة الغضبى لدى وخز خصمها تموت ولكن وهي مرتاحة النفس

إن « كالنحلة » هذه ذكرتني ما حفظته ، منذ نصف قرن ، من شواهد ابن عقيل :

وان الحمر من شرّ المطايا كما الحبطـات شرّ بني تميم

والذي ساءني ان تقع عليه عيني في شعر أبو ريشه هو مثل هـذا العبث الذي نراه عند البحتري :

أمن المـودّة ان تعيث بأضلعـي أمن المـودّه
جـاوزت حد الشوق يا واهي القوى جاوزت حده

أما الذي حرت فيه فهو هذا البيت من قصيدة في رثاء الملك غازي :

أتمدون في بلادكم لأبي الكاس وترووت بالنجيع بـلادي

فالزيادة فيه فاضلة عن المعتاد في تخطي موازين الشعر .

ولي ملاحظة ، وهي الاخيرة ، على قولك :

ان من سامك المنون لقوم لم يحيّوا على الحجى والفلاح

فاذا وسعنا لك لتشق فعلاً مضارعاً من « حي » وهي اسم فعل ، فلا نسكت عن خروجك عن سياق الكلام فلا يصحّ القول : إن من سامك المنون لقوم ، وانما الوجه ساموك ، ناهيك انه لا يقال سامه الموت ، فليس موت الشهيد خسفاً يسامه . وفي الصفحة المقابلة عديت صمّ فقلت :

خفروا ذمـة العهـود وصموا الأذن عن صرخة الهضيم اللاحي

وهي فعل لازم . فأين انت من سدوا ؟ وكيف لم تخطر على بالك ؟..
هذه هي الهنات . أما الجمال فملء هذا الديوان الضخم . وفيه فوق الجمال

الفنّي تحليلٌ نفسانيّ رائع في قصائد عديدة ، وأخص منهـا تلك التي يسوقها عمر مساق القصص ، وهذه خاصة يحالفه التوفيق فيها . خذ مثلاً قصيدة « جان دارك » فالشعر جرى فيها على خطط علماء النفس . حلل عمر نفسية هذه البطلة كما شاء فقال شعراً يبقى . وإذا رجعت القهقرى الى حكاية ديك الجن الحمصي ، وعنوانها « كأس » ، رأيت ان شاعرنا خلاق لا يعدم أسباباً يرتقي بها الى الذرى ، اسمع بعض ما قوّله ديك الجن وقد « شخّص » في هذا أروع التشخيص :

نادى هواها ، فالتفت وما رددت له جوابا
وشبابها الظمآن بين يـديّ يستجدي السرابا
فوجمت مجروح الرجولة اخفض الطرف اكتئابا

وشاعرنا الملهم يتلاقى وشوقي حول المسيح وصليبه ، وكلاهما يلوم الدول التي خرجت بتعاليم السيد عن التخوم التي رسمتها . وقد رأيته يقول مثل شوقي في وحدة الاقطار العربية :

قال شوقي :

كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه

وقال عمر :

أيّ جرح ضجّ العراق عليه ما تلقى الاساة من لبنانه

لقد نفر شوقي إلى عمان ومعان لان لبنان لم يكن في الحساب في زمن شوقي ... وربما قصر ابو ريشه اذا عارض شوقي ، اما حين ينفلت من قيود المعارضة ، فيخوض مع شوقي وسط المعمعة . إقرأ قصيدته في رثاء سعيد العاص ، ذلك البطل الذي عرفناه بائساً طريداً ، وترحمنا عليه شهيداً مات قبل ساعته :

نام في غيهب الزمان الماحي جبل المجد والندى والسماح

اما نفسية شاعرنا وديباجته معاً فتدلك عليها قصيدته « نسر » :

أصبح السفح ملعباً للنسور ... فاغضبي يا ذرى الجبال وثوري
ان للجرح صيحة فابعثيها ... في سماع الدنى فحيح سعير
واطرحي الكبرياء شلواً مدمى ... تحت اقدام دهرك السكير
لملمي يا ذرى الجبال بقايا ... النسر وارمي بها صدور العصور
انه لم يعد يكحل جفن النجم ... تيهاً بريشه المنثور
هجر الوكر ذاهلاً وعلى عينيه ... شيء من الوداع الاخير
هبط السفح.. طاوياً من جناحيه ... على كل مطمح مقبور
فتبارت عصائب الطير ما بين ... شرود من الاذى ونفور
لا تطيري جوّابة السفح ... فالنسر اذا ما خبرته لم تطيري
نسل الوهن مخلبيه وأدمت ... منكبيه عواصف المقدور
والوقار الذي يشيع عليه ... فضلة الارث من سحيق الدهور

ثم يصف الشاعر جوعة النسر ووقوعه على شلو دفعته عنه عجاف البغاث فاهتز ، وارتعش وطار ، حتى اذا اجتاز مدى الظن :

جلجلت منه زعقة نشت الآفاق ... حرى من وهجها المستطير
وهوى جثة على الذروة الشماء ... في جفن وكره المهجور
ايها النسر هل اعود كما عدت ... ام السفح قد أمات شعوري

لا تيأس يا عمر ، فأنت من الفن في ذراه ، اما « السفح » الذي تعنيه فهو لا يميت الشعور ولكنه يوقظ العواطف فيحمي الوطيس ... ارجو ان تظل في « سفحك » هذا لتغني النسور والنمور ، وتدفع الجيل بالمناكب والصدور ... فحيهلا ... عشت يا ابا الريش ... فأنت يا ابن اخي ، اشعر جيلك في هذا الديوان الذي جمعت فيه بين طريف الادب وتليده .

نازك الملائكة
عاشقة الليل

هذه خنساء جديدة – ولكنّها مثقفة – تطلع علينا في القرن العشرين بديوان شعر يدور حول موضوع واحد ، كديوان خنساء الزمن الغابر . تلك ذوبت شعرها دموعاً على اخويهـا ، وهذه استحالت عواطفها شعراً حزيناً كئيباً يصحّ فيه ما قاله ألفرد دي موسه – اذا لم تخني الذاكرة – : اضرب القلب فهناك الشعر الذي لا يموت .

ولو يصحّ لي أن اتمثّل بالنابغة لقلت لنازك الملائكة : اذهبي فأنت أشعر من كل ذات ثديين ، ولولا ذاك البصير عمر أبو ريشة – لفضلتك على شعراء الموسم ، وليغضب عليَّ الف حسان ، فلا يخلق النقد غير الاعداء ...

نازك الملائكة من بيت يذكرنا بقول الأخطل : أشعر الناس بيتاً بيت زهير ، فأم نازك – أم نزار الملائكة – شاعرة ، وقد قرأت لها قصيدة في مجلة المعهد حققت لي الكلمة المأثورة : البنت لأمها . وأبوها شاعر أيضاً ، ولعلّ أخاها نزاراً ، واختها احسان التي قدمت لديوانها شاعران .

لقد ضربت نازك الرقم القياسي في الشعر الباكي فبزّت ببكائها وآلامها جميع شعرائنا الباكين حتى شيخهم الاكبر ... وما أشبّهها الا بمدام دي نواي

الشاعرة الفرنسية الشهيرة ، فكلتا الشاعرتين العربية والفرنسية تخافان الموت وضغطة القبر ، وان تمنتا كلتاهما التفلت من قيود المادة . قالت نازك :

نعم مات قلبي ، اين احزان حبه وابن امـــانيه ؟ وابن أغانيه ؟

أرأيت كيف تفهم الحب هذه الشاعرة ؟ الحب عندها أحزان وآلام ، وتذكر الموت في ريعان الصبا فتقول ، والضمير عائد الى عنوان القصيدة ، « قلب ميت » :

ويرعبـه ذكر المات وليـــله فيدفن نيران الاسى في قوافيـه

فكيفما اتجهنا في ديوان عاشقة الليل فلا نقع الا على مأتم ، ولا نسمع الا أنيناً وبكاء ، واحياناً تفجعاً وعويلاً .

تبكي نازك الملائكة جزءاً ضاع منهـــا ، ولكننا عوّضناه شعراً لا يمل على وفرته وتشابهه .

ان نقد النساء صعب كرثائهن ، وخصوصاً اذا كن مسلمات ، وقد كبر في عيني المتنبي حين جربت فأدركت ما قاساه من عنـاء حين كان يرثيهنّ ، ولكن ابا الطيب ، اجزل الله ثوابه ، كان يفرّ الى الحكمة ، اما انا فإلى ابن أفرّ ؟

ان في ديوان « عاشقة الليل » ما يحيّرني ، فعند « شجرة الذكرى » أقف وقفة متأمل مستلهم لعلّ الله يفتح عليّ ، فأقول ما أرضى عنه فأتذكر قصيدة « الاناء المشعوث » لسيلي بريدوم . فهذه شاعرتنا تقول :

مررت بها في المساء الدجيّ فألقيت رحلي في ظلهـــا

وان كان هذا التعبير « القيت رحلي » لا يليق بعاشقة الليل ، خنسائنا المثقفة ... وهناك في ظل « شجرة الذكرى » تشرئب ذكريات الشاعرة وتطوف شجونها من حولها فتقول :

اقص على ظلّهـــا قصتي وقصة شاعري ... الغـــادر

وكان في يد الشاعرة شوكة قاطعة تمرّ بها على ساق سدرتها فجرحته بلا شعور . ثم عادت اليها بعد حين فقصّت علينا ما يلي :

فقلت لقلبي هيـــا نطف بهـــا وليثر حزنك الهامد
سنسألها اليوم عن جرحها ألم يشفه الزمن الآبـــد ؟

* * *

ودرت أسائل عن جرحها امـا دملته أكف القدر
فلم ارَ الا اخضرار الحياة فليس عليهـــا لجرح اثر
واما جراح فؤادي الحزين فما زلن يشكون طول الصدر
فيا عجبا للزمان المسيء متى عن اساءته يعتـــذر ؟

الله اعلم يا آنسة ، الزمان عنيد رأسه كبير يصعب عليه الاعتذار ، ثم من يدري ؟ فلعله يعتذر إلى النساء . وكما حيرتني « شجرة الذكرى » احترت ايضاً في رموز أُخرى كثيرة اهمّها « التمثال » الذي لم تتكشف لي حقيقته بجلاء ، فهي تقول في « قلب ميت » :

وها انا ذي عمري احتقار وادمع وفي نفسي الوهى لظى وتمرد
أحن الى حبي الجميل وان يكن أشاح عن التمثال جفني المسهد
وماذا تبقى الآن ؟ شلو حجارة تضيق بها نفسي وصخر ممدد
تعلق قلبي بالنجوم وقلبـــه تمرغ في الاوحال .. والطين يشهد

* * *

هنالك في الامس البعيـد وليله سأدفن تمثالي وحبي وادمعي
اشيّد قـــبراً من تمرّد خافقي واسقيه من بغضي له وترفعي
اغنيه الحان احتقاري وثورتي وتهزأ اضواء النجوم به معي
وازرع فيه الشوك والسم واللظى واتركــه شلواً كقلبي المروع

لقد قسوت جداً ، ولكنه يستحق ...

وفي قصيدة « بعد عام » تصور لنا حالة نفسانية لم يتوفق شاعر ذَكَرَ الى قول احسن منها تحليلاً عاطفياً عميقاً فتقول :

مرّ عام ... ياشاعري ... منذ ابصر تك في ذلك الصباح الكئيب ...
الليـــالي تمر ... تتبعها الايام في بطنهـا الممـــلّ الرتيب
وانا لهفـــة ... وشوقي يزداد وروحي في عاصف من لهيب
ظمأ للحياة يمـــلأ احساسي ... ونار في دمعي المسكوب
وشظايا كآبة رسمت فـــوق جبيني غـــلالة من شحوب

ثم تتعجب الشاعرة كيف نهضت باعباء همومها وكيف لم تمت حتى تقول لشاعرها :

الشهيق الحزين في هدأة الليل ألم يلـقه اليـك النسيم ؟
والشرود الذي امات احاسيسي أما حدثتك عنه النجوم ؟

ثم تصف ببراعة فائقة كيف واين التقت بشاعرها :

منذ عام ... في الشارع الصاخب الممتد ... والشمس في صفاء الاثير
جمعتنا هنالك الصدفة الحلوة ... في غفـــلة من المقـدور ...
والتقينا ... لم نبتسم ... لم احدثك بمـــا في فـؤادي المعصور ،
لحظـــة ثم اجهز الزمن القاسي على قلب حـــلمي المسحور
سرت يمنى ... وسرت يسرى ... ولم يبق سوى ثورتي ونار شعوري .

***

كل يوم اقول يا قلبي الظمآن للصحو ... لا تضق بالغـــمام
لن يضر الاقدار في ليلها ان تتلقـــاك ... مرة ... بابتسام

***

مرّ عام ... لم يبق منه سوى لحن حزين ... مغرورق الالحان

ليس الا ابتسامتي المرة الظمأى ودقـــات قلبي الحيران
ليس الا ظل من الصمت واللهفة يبـــدو في جفني الظمآن

وهذه القصيدة ، في نظري ، هي خير قصائد الديوان بل هي من الشعر الغنائي الرفيع . كانت العبارة والصور فيها طيعة سهلة الانقياد للشاعرة لأنها صادرة من الاعماق ... ولعلّ الزمان أخذ بثـــأر قيس من نازك الملائكة ...

وفي القصيدة التي تليها تدعو قلبها الى اليأس المريح وهي تخاطبه بهذه الوداعة الهادئة :

ثم ماذا أي حلم ترتجي يـــا ابن السماء
انت في الارض فـــلا تحـــلم بلقيا الاوفياء

رحم الله المتنبي القائل : لعلمي انـه بعض الانام . ان كلمة الآنسة الشاعرة لا تقلّ روعة عن كلمة شاعر العرب . وقبل هذه القصائد التي مرّ ذكرها تصف لنا الشاعرة موقفـــاً لا يحتمله الجنس الخشن فكيف بالجنس اللطيف ؟ عنوان القصيدة « نغمات مرتعشة » وأولها : عد ... لم يزل قلبي نشيداً حالماً . وقد ختمتها بهذه الصورة الرائعة :

ما زلت .. منذ ذهبت .. حيرى في الدجى ..
شـــهد الأسى اني لزمت مـــكانيا ،
وهمي يصوّر لي خطاك ... ووقعهـــا ...
فـــاذا اصخت . . . صحوت من اوهاميـــا
لا شيء ... غير الريح ... تعصف في الدجى
لا شيء . . . غير تنهدي . . . وبـــكائيا ...

فالذي عنـــدي ان ديوان عاشقة الليل حديث قلب منكوب أثارت نكباته سخط الشاعرة على الناس اجمعين ، وما شكر السوق إلا من ربح .

انها تقول كالمتنبي وبصوزة بسيطة جميلة :

لم يعـــد في جسمي الذاوي وروحي   موضع ... يحتمل الجرح الجديدا ...

***

لم يعد في نفسي الولهى ... مـكان   لأسى ... او فرحة او ذكريات

أشهد وضميري مرتاح ، أنني لم أرَ الفرح عندها إلا في ختام قصيدتها « جزيرة الوحي » حين تختمها بقولها :

وانقلب اليأس بشريات   وأمنيات فأي عيـــد

ولكنها لم تعيّد . بل عادت الى غيبوبات يأسها ، وقالت في « الخطوة الاخيرة » وهي خاتمة ديوانها :

آه يا اشجار ... ... لا تذكريني   فـــانا تمثـــال يأس بشري
ليس عندي غير ... آثار حنيني ...   وبقايا من شقائي الابدي ...

قد قلنا انها غاضبة على بني آدم ، واليك ما تقول لنا :

لا أريد العيش في وادي العبيد   بين أموات ... وان لم يُدفنوا
آدميون ولكـــن كالقرود   وضباع ... شرسة ... لا تؤمن

فهي في هذا جبرانية نعيمية تذكرنا « حفار القبور » لجـــبران التي استمد منها مخائيل نعيمه الشاعر « اخي ان ضج » . وتذكرنا ايضاً ذاك الذي ارسله « أبسن » في روايته وجعل في زنده سلة يجمع فيها النـــاس ليعاد خلقهم من جديد ... ومشكلة السخط على البشرية تحلهـــا نازك الشاعرة الجبرانية بقولها :

نحن الخياليين في أرواحنا   سر الالوهة والخلود الضائع

صدق الفن العظيم .

أظننا أشبعنا افكار الشاعرة اليائسة تحليلاً . عفواً ، ما هذا يأساً ،

إنْ هذه إلا ثورة جامحة ، ومن حق نابغة كنازك الملائكة ان تثور ، واذا لم تثر هي فمن يثور ؟ الملائكة علموا الناس الثورات ...

ولقد قلقت واضطربت وشكت ككل مفكر وحيد فسألت الامطار كما سأل نعيمه نفسه وحلها حلاً يرضي خياله ورجـــاءه . اما الآنسة نازك فجاء حلها منبثقاً من شعورها ، فقالت تخاطب الامطار :

ما أنا ؟ ما أنت ؟ يا أمطار مـــا ذاك الخضم ؟

واخيراً اجابت :

— لست إلا ذرّة في لجـــة الدهر المغير
وغداً يجرفني التيار والصمت مصيري
— مـــا أنا إلا بقـــايا مطر مـــلّ السماء
ترجع الريح الى الارض به ذات مساء

وهي في هذا الحل القاتم جبرانية ايضاً ، ولكنها من نوع آخر .

وتنتهي إلى دفن شكاياتها ، ولكن بتفجع يفتت القلب ، في ختام قصيدة « على الجسر » فتقول :

يا نهر فلتدفن شـكاياتي ومرّ شجونها
الآدميـة ان بكت فلضعفها وجنونها

فآه والف آه ، كم تحت كلمة « الآدمية » من لوعة وشرف واباء .

ولا استغرب ايتها الشاعرة المحترمة حبك الليل ووقفك شعرك عليه ففي كل الامم شعراء مختصون . قالوا في اوروبا : فلان شاعر القمر ، وفلان شاعر البحر ، كما نقول نحن مثلاً الاستاذ المقدسي شاعر النهر ، وشاعر البحر ، وان كان ميتاً ... لقد قلت لـــك شيئاً ايتها الشاعرة المحترمة ، وما زال عنـدي اشياء . اما الآن فلنعد الى فنك لنرى عناصره الاولية .

ان هذه النقط الكثيرة في ديوانـك المطبوع قد لا تدلّ غيري على شيء ، أما انا فقد رأيت فيها تفسيراً لقول الضفدع : في فمي ماء ... ولكني أشهد انك ما قصرت . كنت جريئة فقلت ما يقال اما ما لا يقال فنفهمه نحن ، ولأجله نقدّر عبقريتك .

في ديوان عاشقة الليل شعر وحكي ، وهذا ناشىء عن شدة حساسيتها فهي تريد ان تقول كل شيء ، تريد ان لا تخبىء شيئاً ، ولهذا تجد العبارة الرفيعة الى جانب اخت لها غير نجيبة . ربما قلت لي : وكذلك تكون المواليد وهذه سنّة الطبيعة ، وقد نبّه إلى هذا ابو تمام ، وكذلك زعم ابن الرومي . اما انا فأخالفها وأرى ان شرائع الفن تسوّغ وأد البنات ، بل خنق كل مولود غير نبيه ... واليك نموذجاً واحداً من نوع الحكي :

لم استطع يا نهر كتما	ن العواطـــف والشعور
من يمنـع السيل القوي	من التـــوقف والمسير

اما حين يثور بركانها وتنظر في قرارة نفسها وتقع عينها على الجرح ، فينهض الشعر من مجثمه فتقول :

في عمق اعماقي اعـــا	صير يجن جنونهـــا
وعلى جفوني رسم احلا	م يضج حنينهـــا

فلو انها وضعت « يضج » موضع « يجن » و « يجن » موضع « يضج » لتغيّرت الصورة . ولكن شاعرة الليل قلما تحمّل عباراتها اكثر مما تطيق ، ككل من يستمـــد الشعر من نفسه لا من مظاهر الوجود . ان اكثر الشعراء يستمدون غذاءهم مما حولهم ، ثم تتمثله ذواتهم فيستحيل دماً نراه في البشرة ، بينما نرى الآنسة نازك تستمد غذاءها الشعري كله من قلبها وروحها ، حتى حين تصف لنا مشهد الحصان الساقط « على ارض الشارع المبللة والسياط ترتفع ، ثم تهوي فلا تسقط الا على جرح » . فهي لم تصور

من هذا المشهد الا ناحية تلامس عاطفتها وتتصل بها هي . مـا رأت في هذا المشهد غير الصورة المنعكسة عن ذاتهـــا . كان في امكانها ان تخلق رائعة بل لوحة فنية ، ثم لا تنسى نفسها ، ولكنها نسيت كل شيء من الصورة الا نفسها وآلامها هي .

أما في « العروض » فقد أحسنت الشاعرة في التفلت من قيود القافية ، فكانت قصائدها ثنائيات ورباعيات الخ . حتى لا تجد في ديوانها كله غير قصيدتين على قافية واحدة . وكذلك فعلت في الاوزان ، فكان اكثرها من العيار الخفيف الملائم للتفجّع ، إلا انك لا تحس ذلك التشابه حين تقرأ ، لأن الشاعرة المرهفة الاحساس تشغلك بمـــا تصوّره لك من محن تقاسي برحاءها ، فتتألم لألمها .

الصور قليلة في شعرها ، ولكنها عوّضت عنها بما سلحت به من شعور أضرم نار ثورتها العاطفية التي لا نظير لها عند الشاعرات العربيات . وهذه الثورة الفكرية القلبية شغلتها عن العالم الخارجي ، فهي من ذاتها كشخص ماثل في قاعة كسيت جدرانها مرايا ، فعينه تقع على ذاته كيفما التفت . وعندي ان كرهها الحياة ناشىء عن حبها لها . وإذا قرأت ديوانها من أوله إلى آخره ، حتى المترجم منه . رأيته يدور حول عاطفة واحدة بل تخال انك أمام « فكرة ثابتة » مكنت صاحبتها من اشباع موضوعها .

لا تبالي الشاعرة باللون المحلي لأنها تدبج ألواناً عاطفية كما قلنا ، فلا النهر ولا النخيل ، ولا الزورق تسترعي انتباهها ، فهي لا تذكر النخيل الا لتكون في ظلها كما تقرأ :

ما الذي ساقك طيفاً حالمـاً تحت النخيل
مسند الرأس الى الكفين في الظل الظليل
مغرقاً في الفكر والاحزان والصمت الطويل

ذاهلاً عن فتنة الظلمة في الحقـــل الجميل

إن الرسام الماهر يستطيع ان يخرج لوحة رائعة من هذه الابيات ، وهي أصدق صورة لشاعرتنا ، صورة فتاة ذاهلة مطرقة في ظل النخيل ، مشغولة بذاتها عن روعة ما حولها . لقد تخيّلت هذه الصورة الرائعة وان لم ترسمها لي الشاعرة كما كنت أتمنى .

والآن قد حان ان نرى ما في هذا الوجه الفني الطريف من غش . تهمل نازك عبارتها احياناً ، لانهاكها بشعورها الجامح . ولكن هناك وثبات رائعة أكاد أراها في كل قصيدة فتدلـّني على موهبة الشاعرة وفنـّها .

أما صحة التركيب فجيّدة ، وإن كان لي في ذلك ما يقال فهو ان نازك قد اكثرت من استخدام « السنين » قافية . واتبعت فيها أضعف الاقوال — اي اعرابها اعراب « حين » — وهذا ، وان ورد ، فهو مقصور على السماع ، كما علـّمنا ابن عقيل . فهذه اللفظة تجري مجرى جمع المذكر السالم ، وعلى هذا جرى القلم في العصور الأدبية .

لقد شغلتني « سنين » نازك حتى حرت أخيراً في تعليلها وهي قافيــة هذا البيت :

علـّه سائل غداً ، عن اغانيك وما قد جرت عليك السنينا

فاذا شاءت أن تجريها مجرى « حين » كان الاقواء . وإلا فهي مضطرة ان تقول السنون ، فما هذه العداوة بينها وبين الواو والنون حتى تؤثر اللحن على استعمالها ؟ ثم تجيز لنفسها ما لا يجوز في هذا البيت :

أترى تذكرين مثلي ايام صبانا ، وحلمنا المفقود

فالعطف على صبانا هنـا لا يجوز ، واذا افترضنا « تكرار العامل » ثار العقل وأبى علينا ذلك .

ثم هذا الاستعمال الضعيف في قولها :

طالما من امواجك الباردات اترعت في الامـــاسي كاسي

فالكلمات المكفوفة — مثل طالما — لا يفصل بينها وبين اللفظـة التي كانت معمولاً لها لو لم تكفها ما عن العمل . وكذلك تظل الحال معهـــا لو جعلنا ما مصدرية كما أرى ، وان خالفت آراء شيوخنا النحاة .

وفي هذا البيت لم ادرِ لأي حكمة قالت :

تتشكى الذين مروا بدنيـــا ها فلم تدر ما عسى سيكون

كان يسهل القول : ما عساه يكون . فاستعمال حرف التنفيس — السين — مع عسى مثل استعمال الهمزة مع هل حين يقول بعضهم أهل ؟ وقـــد استعملت كثيراً كلمة « لوحده » و « لوحدي » و « حد » هذه لا تدخلهـا اللام . وقالت : حـدقت في . وحدق تعدى بإلى وليس بفي . اما قولها في هذا البيت :

وليسدل الستر المقدس حسبنا غمـــاً ويأساً

فالرفع على الابتداء واجب هنا . ثم قولها :

وامـــا جراح فؤادي الحزين فما زلن « يشكون » طول الصدر

اما هذا البيت فقد رأيته غير مستقيم الوزن :

آه وليمح لفظ الامس مـــن سفر الوجود

اظنها : وليمسح ، وقد قستها على اخت لها وردت في ديوان الشاعرة .

اما في هذا البيت :

هـا انا بين فكي الموت قلباً لم يزل راعشاً بحب الحياة

فأشهد انني اتعبت فكيّ حتى استقام الوزن ... فليتها تداركته ، ولم تتعب قارئها بمداورته ، فالقراء اليوم مستعجلون .

ثم لا ادري ماذا ينقص هذا البيت :

في دمي لحن من الشوق جديد والمجـــالي حوالي نشيد

فهو في حاجة إلى « شدة » على ياء « المجالي » او إلى « من » ... والله اعلم . وبعد ، فأنا ممن يعجبهم هذا اللحن الجديد من الشوق ، ولست اكلف الشعراء المنطق الذي أعدّه حجر عثرة في درب الفن .

ثم هذا بيت آخر ينقصه شيء :

وغداً تنضب الدموع وتفنى ضجة الموت في عمق السكون

اظنها : عميق ، وقد رجعت إلى تصحيح الخطإ فوجدت لفظة مصححة في هذه الصفحة في حين انه لم يشر إلى هذه الكلمة ...

اما لون الشاعرة الادبي فجبراني قلّ فيه التلوين الذي تتعمده السلالة الجبرانية في مدرستنا الرمزية .

اما خلاصة الفقرة الحكميـة فهي ان الشاعرة نازك الملائكة ، عاشقة الليل ، في طليعة بنات جنسها الشاعرات — ذوات الدواوين — في هذا الوقت ، ان لم تكن أولاهن .

ديوان شاعر الفيحاء
لسابا زريق

ما سمعت بمناسبة كبرى ، سواء أفي الشمال كانت ام في الجنوب ، وفي العاصمة ام في العواصم ، إلا وكان سابا زريق من فرسان ميدانها . فهـذا الشاعر المطبوع اشتهر بمحبته ووفائه ، وكاد ان يكون محباً لجميع البشر ، ويعبّر لهم في كل مقام عن تلك المحبة الصادقة بأجـود الشعر . بيان مشرق ، وقريحة موّارة فوّارة كأنها نهر ابي علي ، ونفس سمحة لا تعرف ان تقول لا . ومع كثرة هذه المناسبات ترى شاعرنا المجيد لا يراجـع شيئاً مما قال ، ويحاول دائمـاً ان يخرج من المناسبات وقد أتى بشيء طريف .

ليس لسابا زريق الخيال الذي يستولي على المدى الأبعد ، وهو لا يتعمّل لذلك ، ففي عبارته التي لا غبار عليها ، وفي صوره المقبولة المعقولة ، منجاة له وسلامة من لاذع النقد . وهو اذا لم يحلـّق دائمـاً في الأوج الشعري ، فلا يكون ابداً مسفّاً . ديباجة انيقة ، وشعر لا يعرف مـا التقديم والتأخير ، ولا الألفاظ الخشنة . ان محبته الواسعة جعلت منـه شاعراً لا يجارى في هذا المضمار ، وكل ما يصدر عفواً عن محبة واخلاص

يشق طريقه إلى القلب .

عبارته كلاسيكية ، فهو في شعره كأبي فراس والبحتري ، تعنيه ان تكون كلماته راقصة مرقّصة ، يجيء تركيبها على الهينة فيخلق جـــواً موسيقياً لا تعمّل فيه ولا عناء . لم يحد عن خطـة القدماء لا في تكوين القصيدة ولا في اسلوب بنيانها وزواياها ، فهذا شاعر ألمعيّ قضى مـــا قضى من عمره المديد لا يعمل غير الشعر ، فصفت ديباجته وقلّ النثر في منظومه . ان الخطر ، كل الخطر ، على الشاعر متى كتب نثراً وقال شعراً .

ان الاستاذ سابا زريق شاعر مناسبات ، ولكنه يخرج دائماً موضوعه اخراجاً شعرياً ، فتستحيل المناسبة تحت قلمه موضوعاً طريفاً مثل قصيدة يوسف الفاخوري . تخيّل شاعر الفيحاء صديقه ونجيّه الملازم له الاستاذ الفاخوري ، فاخرج له صورة من لا صورة ، قلت تخيل ، وصوّره من لا صورة لأن صديقنا العلامة الفاخوري كان قد استحال مومياء — تقريباً — حين نشط اصدقاؤه وطلّابه الكثر للاحتفال بتكريمه . وهـــذا ما قال فيه شاعرنا زريق تحت عنوان : « طيف على قدمين » :

جسم يكاد يغـور في جلبابه	وقوى البيان تغور في اعصابه
يمبيه حمـــل بنانه متثاقــلا	ويكرّ وثـّاباً على آرابـــه
طيف على قدمين يمشي طاوياً	سرّاً يضلّ نهى النبيه النابـه
متلفـّف بالمسك من اخلاصه	ومن الوداعـة والتقى بملابـه

أرأيت هذا التلفف بالمسك؟لقد جاء به الشاعر ليعبّر عن اسوداد جلدالاستاذ بعد حياة طويلة قضاها ،منذ فجر شبابه،لا يذوق من الطعام غير كاس من الحليب وبيضتين وبضع بسكوتات . اما المدح ، وهو قوام شعر المناسبات ، فما قال فيه الشاعر إلا ما يصح قوله في استاذ كيوسف الفاخوري الذي افنى العمر بـــين المحابر والمنابر .

ليس في ديوان شاعر الفيحاء ملحمة ، وان كان في مجموعه تاريخ حقبة ،وهل

التاريخ غير تاريخ حياة المفارد ؟ فلو لاءم الشاعر ووفـّق بين بعض قصائد ديوانه لجاء من هذا البعض ما يشبه الملحمة ، فقصيدة « هي الحرب » فرخ ملحمـة . وقصيدة يوسف بك كرم ، وقصيدة عيد الجلاء ، وقصيدة الشيخ محمد الجسر ، وهي من طراز رثاء شوقي للملك حسين بن علي ، ومن وزنها عروضاً وقيمة . انها تتناول بالوصف حياة محمد الجسر في كل مواقفها الجهادية والسياسية .

. فديوان الشاعر سابا الضخم الذي يقع في حوالي ٨٠٠ صفحة من القطع الكبير حافل بقصائد شتى من هذا الطراز الموشـّى . من عادتي ان اقرأ الكتب المهيـأة للنقد وانا مستلق في فراشي ، ولكن ديوان الاستاذ زريق قد اعياني حمـــله لضخامته ، وهو لو شاء تقسيمه لكان له منه عدة دواوين وكلها ممتع لذيذ لأنه حافل بالذكريات . والذكريات ، كما قال شوقي : صدى السنين الحاكي .

. خذ مثلاً قصائد البعث التي يتخيل فيه شاعر الفيحاء : العامل ، والتاجر ، وصاحب المال ، والمحامي ، والطبيب ، والقاضي ،والمقاتل ، والكاهن ،والعاهرة ، والشاعر ، وقد وقفوا جميعاً بحضرة الله القيوم وتقدموا ، كل واحـد بدوره ، يبرئون ساحتهم ويطلبون المغفرة يوم الدينونة ، فهذه القصائد العشر التي يربطها خيط واحد ، لو اخرجها الشاعر اخراج دواوين اليوم ، لكان لنا منها ديوان شعر قائم برأسه . ولكن الاستاذ سابا زريق زجـّها في هذا الديوان ، مع انها مستقلة عن المواضيع الاخرى قبلها وبعدها . ان سابا زريق غير خبير بتوضيب البضاعة ولا بطرق الأمبالاج ، فهو على طريقة « من زمان » يصدر الليمون بالكيس لا بالصندوق . وإلّا لكان رش على بضاعته البهارات والفلافل ، وزيـّنها بالرسوم المزلية التي تلذ القارىء ، فالموضوع قابل لكل هذا . وهو لو قسـّمه ، كما قلنا ، لكان له منه لا اقل من نصف دزينة دواوين .

وبعد كل هذا ، فلا يتوهمنّ قارىء مقدمة ديوان شاعر الفيحاء ان الشاعر لم يقل شعره الا في المناسبات . كلا . فهناك مواضيع مستقلة قال فيهـا سابا شعراً وأجاد ، وما أحلى قوله في وصف دينار المغتصب الشحيح .

الغنيّ القـــذر البخـــل اذا ما مضى ولّى كإحدى الحشرات
يخرج الناس به يقتـــادهم بارع الهزء ومـــأثور النكات
كلهم من نفسه حـــين مشى خجل ، يخشى سهام النظرات
الأسى المر عليه ، نقـــده ، وانطلاق القهقهات ، العـــبرات
مأتم ، لكنـــه عرس الألى طالمـــا في ظله ودّوا الممات
كم تمنت زوجـــه الموت له وتمنـــاه بنوه والبنـــات
عاش والذلـّة تحدوه ، ومـذ ألحـدوه شيّعته اللعنـــات

ولأجل هذا أقول اننا اذا قلنا انه شاعر مناسبات ليس غير ، كنا له من الظالمين. ففي هذا الديوان قصائد مختلفة المواضيع حتى ان التي قيلت في مناسبة ما تكاد تكون موضوعاً حافلاً بالعاطفة الانسانية والفكر الاجتماعية ، فالاستاذ مخلص دائماً لموضوعه ، نزّاع إلى الاصلاح العام ، ولا ينسى المطالبة بحقوق منطقتـه ، وقديماً كان الشاعر هو المدره المدافع عن حقوق القبيلة . والمنطقة والقرية اليوم حلتا محل القبيلة .

حياة سابا كلها شعر ، وقد يقوله في الطير الطائر اذا لم يوفـّق إلى موضوع يرضيه ... وديوانه قطعة من زمان ، وثمنه الغالي تكريم لصاحبه .

عفواً نسينا المرأة . فللشاعر قصيدة عنوانها حواء ، يطري فيها المرأة نعتاً حتى يقول في ختامها :

مهما عصي الأمر جلتـّه على يدها من الدهـاء وحسن الصبر آراءُ
والمعضلات التي ناء الرجال بهـا يكفي لها خاطر منها وايحاءُ
هم يشهدون وايام لهم معـــها ان الحيـــاة وما تحويه حواءُ

وكأنّ الشاعر اراد ان يحاسب ذمته فقال في الحاشية ، ان ما قاله لا يتـّفق وعقيدته في حقوق المرأة ، ولكن قاله محاباة نجل ّ الاستاذ عنها ، ولذلك نظم قصيدة فيما بعد تحمل عقيدته الصريحة في المرأة ومطالبها .

إنه يريد المرأة في هذه القصيدة الناسخة ما قبلها قعيدةَ دارها وسيّدة مملكتها البيتية ، وفي ذلك يقول لها :

عرشك من حسنك شيّدتِهِ ومن جلال الخفر المسبلِ
لا تهدميه ضلّة في الوغى تحت عجاج العنف والقسطل
مزالق عوفيتِ منها فما اغناك عن أحدورها الموحل
واضيعتا ان انت لم تنكري طموحك الأعمى وتسترسلي
قدرك لا حدّ له فاحذري تحديده طامحةً تفشلي

نسيت ان الفت النظر الى خاصة من خواص هذا الديوان وهي ان قصائده الطويلة لا يضيق نفس قائلها عندما تشرف على النهاية ، وهذه الخاصة قلما تجدها عند الشعراء المكثرين الطويلي النفس . وقد قرأت هذه الالوف المؤلفة من ديوان شاعر الفيحاء ولم يُعيني الا هذا البيت :

وطوت تلك الليالي في غـلا ئل الاستقـلال اعقاب السنين !

وليس من الحق ، ولا بد من العدل ، ان نطلب من الشاعر غير ما تعوّد ولا ضد طباعه ، فهو من الرعيل الاول ، متأثر كل التأثر بشعراء العصور العباسية ، وحسبه انه جرى شوطاً بعيداً في ميدانهم .ومع ذلك نقرأ له صرخات اصلاحية اوحى بها اليه حبه لبلاده فما اروع قوله مبكّتاً لوطنه :

« الثورة البيضاء » منّتهُ فنام على المنى في غمرة الافراح
واذا بـه يدعو المنى متوسلاً فتصد طائرة بغير جنـاح
من منبىء بعد النوى بإيابها والليل جان ، والصباح اباحي

ان اعجابنا بالقديم واحاطتنا اياه بهالة نورانية من المجد الادبي يجعلنا لا نجد في المحدثين والمعاصرين من يملأ العين ولعل الجاحظ كان اول من تنبه لهذا وأشار اليه حين آثر ابا نواس وابن برد على المتقدمين . وقبل وبعد فليس في الشعر والنثر مواضيع بل هناك اجادة ، فاكتب في أي غرض شئت وليس لاحد ان يسألك الا عن الاجادة .

واخيراً اقول : هنيئاً لشاعر الفيحاء هذا الحصاد المكتنز ، وهـذا البيدر الضخم ، وليس لنا ان نسأله غير ما اعطى ، فهـذا ميدانه . ومن لا يصدق فليجرّب ، فهو لا محالة مقصر عنه .

مَا وَرَاءَ البحار

مدرسة رومنطيقية

إن للهجرة يداً بيضاء على لسان العرب دينياً وأدبياً، ولا يعنينا الآن إلّا الهجرة الأدبية. كانت الهجرة الأندلسية الاولى فأبدعت الموشّحات، فمرّت في جوّ الشعر العربي مجاري هواء جديدة أنعشت من كانوا قد ملّوا الشعر المقال على نمط واحد، فأقبلوا على ذلك الشعر الطريف يروونه وينشدونه، ويخرجونه انغاماً والحاناً، ثم انطوى بساط الحياة الاندلسية فسكتت قيثارة الشعر السارح، وقبعت القرائح في كسر بيتها المربع الزوايا بعد تلك الدارات ذات الخرجات والشرفات، المتنوعة الهندسة، المختلفة التصاميم.

أما أدب المهجر الحديث فليس ابن الهجرة الحاضرة وحدها، فقد كان قبل هذه الهجرة هجرات. هاجر الكثيرون قبل هؤلاء وعملوا المستطاع. وان ننسَ الذين هاجروا في القرون الوسطى وما بعدها فلا ننسَ مهاجري القرن التاسع عشر، الذين انشأوا المطابع العربية في العواصم العالمية، ونشروا الكثير من آثارنا القديمة التي كنا نسمع بها ولا نراها، ثم احدثوا الصحف والمجلات العربية في تلك الغربة فكانت مدارس متنقلة في جميع الاقطار. ليس هنا مجال التدليل على جذور تلك المدارس الاولى المتأصلة في أدب المهجر، ولكن كلمة جاءت في دستور «الرابطة القلمية» وهي

ان غاية هذه الرابطة : « بث روح جديدة نشيطة في جسم الأدب وانتشاله من وهدة الخمول والتقليد » .

اننا نقف عند هذه الكلمة لنعطي الحق صاحبه ، فاذا قال ذلك مؤسسو الرابطة – جبران ونعيمه وغيرهما – فلا يعني هذا ان « رابطتهم » هي خمرة ابن الفارض التي سكر بها من قبل ان يخلق الكرم : فلا قبلها قبـــل ولا بعد بعدها ... فمنذ مئة سنة تقريباً سمعنا احمـــد فارس يقول في فارياقه : « السجع للمؤلف كالرجل من خشب للماشي ، فينبغي لي ان لا أتوكأ عليه في جميع طرق التعبير لئلا تضيق بي مذاهبه » .

ومن احب ان يسمع الكـــلام موشّحاً بالاستعارات ، محسّناً بالكنايات فعليه بمقامات الحريري او بالنوابــغ للزمخشري . ثم شق طريق الجديد ومشى خلفه الناس . ومن قرأ نقده في « الفارياق » ، و « كشف المخبأ » أدرك شأن هذا المفكر العظيم ، فهو ابو « المقالة » وعلى آثاره مشى اديب اسحق ونجيب الحداد إلى آخر السلسلة .

وقد سمعنا الامام محمد عبده ، في فجر القرن العشرين ، يردّ على بديع الزمان الهمذاني في شرحه مقامته الجاحظية . قال الهمذاني : وهل للجاحظ غير عريان الكلام ؟ فصاح به الامام محمد عبده : حنانيك يا ابا الفضل ، إننا نؤثر هذا الكلام ونفضله .

ويجيء بعد هؤلاء كتّاب وشعراء ، أخص منهم بالذكر فرح انطون وخليل مطران فكتبوا بأسلوب حيّ ، وتعبير لا خمول فيه ولا تقليد .
لم يكن الشدياق واسحق والحداد وانطون والمطران والريحاني جماعة منظمة ، ولكنهم كانوا افراداً عملوا ما استطاعوا لإنعاش ادبنا العربي . وفي عهد الشدياق انفتحت جبهتان أدبيتان يأتيك خبرهما المفصل في كتابي « صقر لبنان » . ولم نتطرق إلى هذا الآن إلا لننصف من سبقونا إلى ما

نسعى اليه ، فبدون الاشارة إلى هذه الحلقة المحترمة من العاملين لا تستقيم سلسلتنا الادبية ، ولذلك نوّهنا بهم اعترافاً بفضلهم وتنشيطاً للقافلة السائرة في الطريق بعدهم .

اما ان « الرابطة القلمية » هي أول مدرسة ادبيـــة منظمة تنزع إلى تكوين جماعة ذات طابع خاص في التفكير والتعبير ، فهذا حق لا جدال فيه . كان قطب هذه الدائرة جبران ، وهو الطائر المحكي فيها . وقـــد مثّل فيها ميخائيل نعيمه دور الناقد ، أولاً ، فكان لها كما كان سنت بيف Sainte - Beuve من المدرسة الرومنطيقية . الا ان بين الاثنين فرقاً كبيراً فسنت بيف ، على تعصبه للرومنطيقيين ، أراد الحاق نسبهم بقدماء شعراء وكتّاب الفرنسيين . اما الاستاذ نعيمه فحاول قطع الصرّة ...

وكان في المدرسة الرومنطيقية الفرنسية عدة مصورين ، امـــا الرابطة القلمية فلم يكن فيها غير مصوّر واحد هو جبران ، زعيم تلك المدرسة . وأذا عدنا إلى التاريخ رأينا ان الاسباب التي خلقت الرومنطيقية الفرنسية هي التي خلقت الرابطة القلمية . فهناك الثورة الفرنسية ، وهنا الحرب العظمى الأولى ، أما قبل هذا فمـــا كنا نسمع غير صوت رومنطيقيَّين اثنين : الريحاني وجبران .

واتجه الأدب الأوروبي ، بعد الحرب الكبرى الاولى ، اتجاهاً جديداً . أما أدب المهجر الممثّل في الرابطة فظل ينحو نحو ذلك الادب الاوروبي الذي هجره أصحابه .

وكما ظهر جفاف الكلاسيكيين تجاه الرومنطيقيين كذلك حصل عندنا ، فصادفت طريقة الريحاني وجبران مريدين ومشايعين ، ولا يزال لهما في كل قطر عربي من يقلّدهما وينحو نحوهما ...

وكما فرّقت الثورة الفرنسية وحروب نابليون الشعب الفرنسي في اقطار

الدنيا فتأثر بآدابها ، كذلك عملت الهجرة عندنا فاختلط ابناء الضاد بجميع شعوب الأرض ، وتأثر ادبنا بآداب الامم كلها . وقد ترجمنا واخذنا من هنا وهناك كما ترجم الفرنسيون واخذوا من آداب الأمم الاخرى .

وكان التطور عندنا في المعاني أكثر منه في التعبير والطريقة لأن شعراء الاندلس سبقوا الجيل الحاضر إلى فك قيود الشعر ، وعلموا اوربا ذلك منذ نيف وألف سنة ، ولهذا كان أثر الرابطة القلمية بيّناً في الاغراض والمعاني ، أكثر منه في الخطة والأسلوب اذا استثنينا الريحاني وجبران .

أما الذين حاولوا نظم الشعر كل بيت على قافيــة ، فأخفقوا كما اخفق أحمد فارس من قبلهم ، ولم ينظم الا أربعة ابيــات على ذاك الطراز — اقرأ الفارياق — بيد انهم أفلحوا فلاحاً كبيراً في الشعر المنثور الذي بدأ به الريحاني ، ثم بلغ به جبران أعلى ذراه .

يعدّ الفرنسيون بيرون الشاعر الإنـكليزي مؤثراً في شعرهم الرومنطيقي بحياته وآثاره ، اما العربية ففيها كثيرون من هذا الطراز . وان وجـــد الغربيون في روسو مبغضاً للهيئة الاجتماعية فعندنا المعري الحاقد عليها ...

لقد أنسى بيرون أدباء الفرنسيين كل شيء ، حتى قال ميشليه Michelet لقد التهمت بيرون فكنت كمن شرب شراباً قوياً . وقال لامرتين : انه سكر بهذا الشعر . وقال ألفرد دي موسه : كأنه بعد مطالعة « Manfred » قد انكر كل شيء في السماء والارض . اما شاعرنا العربي الجديد فيرى هذه البضاعة مكدّسة في مستودعات القدماء ، وان لم تكن كبضاعة بيرون تماماً فهي تشبهها . ويعد الرومنطيقيون الغربيون شاعر الطليان دانتي مؤثراً بمدرستهم ، أما نحن فنعد دانتي متأثراً بالمعري .

والفرنسيون يعدون الاسبان مؤثرين بأدبهم بينما نرى المحققين الغربيين يعدون أدبنا مؤثراً بالادب الاسباني . والفرنسيون انفسهم يقرون بأن

ادبنا الشرقي أثّر في أدبهم الرومنطيقي ، ليس من حيث بنيانه فقط ، بل انه قدّم له أزهى صور الوصف . وضربوا مثلاً على هذا كاتبهم الاشهر شاتوبريان في رحلتـه من باريس الى القدس ، وشاعرهم العظيم هيغو في مشرقياته ، وكاتبهم وشاعرهم لامرتين برحلته الى الشرق .

وكما كان هدف الرومنطيقيين في الغرب ان يعارضوا الكلاسيكيين خصوصاً فولتير ، كذلك كانت الثورة عندنا على اغراض الجاهليين وغيرهم من القدماء ، وعلى تعابيرهم واساليبهم البيانيّة وصورهم . وكما جعـل الرومنطيقيون الخيال والشعور دعامة نثرهم وشعرهم ، كذلك عمل ادباء المهجر فأحبّوا الطبيعة كما أحبّها اولئك ، وحنوا مثلهم الى الاوطان ذاك الحنين الذي سمّاه الناقد « تـين » مرض العصر ، الا ان اصحابنا — ادباء المهجر — مالوا ككل شرقي إلى الاستنتاج او استخراج الحكمة — كالاستاذ نعيمه في قصيدة « النهر المتجمد » وابو ماضي في « طلاسمه » وكثير من قصائده ، والريحاني في وصفه وادي الفريكة ، وشعره المنثور ، وجبران في معظم مقالاته .

ان طلائع نهضتنا وخصوصاً جبران والريحاني ميّالون الى التصوّف والتأله . وقد سار خلفهم نعيمه وأبو ماضي ونسيب عريضة . فبدلاً من ان يحببوا الناس بالحياة فإنهم يزدرونها ، يصفونها بتعابير تختفي تحت حلاوتها وطلاوتها مرارة وخيبة .

وكما أحب لامرتـين وشاتوبريان الانشاء الزاهي الانيق كذلك فعلت مدرسة المهجر ، واكثرهم يعتمد على قول موسه : اضرب القلب فهنا النبوغ ، واشدّ الاغاني يأساً هي الاجمـل . وكان اول من أسمعنا هذه الاناشيد الصوفية شعراً منثوراً ، الريحاني فجبران .

أما الاغراض الرئيسية عند مدرسة المهجر فاكثرها يتصل بالمشاكل

الدينية ، ويجنح الى إحياء مذاهب هرمة شائخة ، قوامها وحدة الوجود ، فقعدوا يجترّون ما عند القائلين بها من آراء ، وينظفون الاكفان الصوفية ويكوونها . فالدودة أخت لنا ، والغراب ابن عمنا ، والطيور والحيوانات شريكة لنا في الرزق . أما عملياً فنصلي الوروار ناراً حامية اذا حام على خليّة نحلنا ... ونقتل البقرة والعنزة والحمارة اذا اغتالت ورقة من اغصان جنينتنا ! ان الفلسفة التي لا يعمل بها صاحبها ، قبل غيره ، لا تعيش . وهكذا شدّوا اواصر القربى بينهم وبين مخلوقات كثيرة .

وقد كان للحياة والموت ، وما وراء القبر والزواج الحظ الوافر من اقلامهم . أما الحصة الكبرى فكانت لرجال الدين . كانت الثورة عليهم في كل مكان ، وعلى اسلوب واحد ، يكيلون لهم القدح بالمدّ حتى جعلوهم مصدر شقاء البشر . ثم ثاروا على كل سلطة تقريباً ، كما فعل قبلهم الرومنطيقيون الفرنسيون . وتكونت عندهم كأولئك آراء غريبة في الكاتب والشاعر فعدّوا الكتابة وحياً يوحى ، وخال بعضهم انه لا يفنى .

ثم قامت في مخيّلاتهم اوهام الصوفية العتيقة حتى سمعنا احدهم — نسيب عريضه — يقول : قد بدأنا نشاهد ... ماذا بدأ يشاهد ؟ لست أدري !. إذا قال أبو ماضي : « لست أدري » فهذا كلام مقبول . أما ان نسيب عريضه قد بدأ يشاهد ، فهذا لا يخرط عقلي ... كان أمر الشؤون الدينية مفروغاً منه في اوروبا فتحوّل الاصلاح الذي ينشده كتّابهم إلى بعض الأنظمة المدنية التي لم تكن مستقرة ، أما عندنا فكان الشأن غير ذلك ، ولهذا اتجه كتّابنا إلى الاصلاح الديني ومحاربة التقاليد الشائخة ، كما ترى عند فرح انطون والريحاني وجبران ونعيمه وابو ماضي ومطران في قصيدة الزواج .

وقد شارك في هذا الكتّاب المسلمون بعض المشاركة لان الحال عندهم

غيرها في المسيحية ، فكل ما ناهضه هؤلاء كان لا شأن له كطلب المنفلوطي ان يتأنى الناس في الطلاق . أما ولي الدين فثار ثورة الكتّاب المسيحيين الشاملة حتى على الصلاة والصوم .

إن في اقاصيص وقصص جبران ثورة على كل شيء حتى على الحياة نفسها ، ولولا القليل بنى العالم من جديد ... واعتقد جبران كما أعتقد هيغو شاعر الرومنطيقية الفرنسية : ان الكتّاب قادة الانسانية ، فالكاتب اكبر من المرزبان ، وعليه ان يحمل مشعله في يده حتى الموت ؛ واخيراً تضخّمت هذه الفكرة في رأس جبران ، فخال انه فرخ نبي ... اما اقاصيص نعيمه – في المهجر – وخيرها « العاقر » فليس فيها ما في قصص جبران من ثورة اجتماعية جامحة .

وكانت نهضة الرواية والقصة مسرح نهضة الثورة الاجتماعية الاوروبية ، أما عندنا فظللنا نعتمد على المقالة والقصيدة حتى كتب فرح انطون وجبران القصة ، وتطاول نعيمه على المسرح فاقتبس رواية « الآباء والبنون » عن احد كتّاب الروسية . وفي هذه الاقاصيص الجبرانية ، وما نسج فيما بعد على منوالها لا تمثل اللفظة القصد كله ، فادباؤنا اليوم فريقان : فريق قليل الحظ من الآداب الاجنبية ، متمكن من الآداب العربيـة ولغة الضاد ، والعكس بالعكس .

وكما انفرط عقد الرومنطيقيين في فرنسا ، فراحوا في سبل مختلفة ، كذلك أصاب مدرسة جبران – الرابطة القلمية – فانها أعطت فرصة ...

فنعيمه اشتغل للمومسات – اي الدولارات – كما سمّاها هو .

والريحاني ، وهو لم ينخرط في سلك الرهبانية ، تحوّل إلى كاتب نضال ، يدعو العرب إلى الاتحاد ، ويحثّ الشرق على النهوض والإقبال على الوسائل الحديثة في ميدان الفلاح والكفاح .

كما انصرف جبران إلى اللسان الانكليزي يكتب به دون غيره .
ولم يعد يتصاعد في ذلك الافق الجميل غير بعض أغانٍ لأفراد تلك المدرسة .
أما الرفّ الذي كان يغنّي مجتمعاً فتبعثر . ولكن سرباً آخر تجمّع في
اميركا الأخرى ...

جبران

جبران خليل جبران زعيم أدب المهجر بلا منازع ، وقد نحـــا نحوه مخائيل نعيمه ، ولكنه لم يبلغ الامد الذي استولى عليه جبران . تخيّل نعيمه ولكنه لم يشتطّ ولم يغرب وظل قريباً من الواقع .

مرّ جبران في أطوار ثلاثة . كان في طوره الأول ، في « دمعـــة وابتسامة » ، أديب مقالات ، ومن يمعن النظر يرَ في اسلوبها عناصر خفية مكتسبة من الشدياق واسحق وحداد ، ولكنها انيقة ناعمة غير مشددة كأساليب أولئك . فيها نسمة بليلة ، وروح شرقية صوفية كأنها من شعراء التوراة ، بيد انها تختلف عن أولئك جميعاً بخيال صاحبهـــا العجيب . فجبران مصوّر في تعبيره أكثر منه كاتباً : فكأنما يكتب بريشة المصور لا بقلم الـكاتب .

زركشة ، وتدبيج وتنسيق تذكرك قوس قزح . يبدع تعبيره صورة لا ينقصها الا الالوان ، وصوره كلها مستمدة من الفجر والظـلام والنور . فيها الاشعة والظلال كمحيط شمالي لبنان الذي ربي جبران بين اوديته وجباله وتلاله . اما التعبير الجبراني ففيه شيء كثير من ثرثرة ينابيع تلك المنطقة الممتلئة جمالاً ورهبة . فلا ترتاح إلى صورة من صوره الانشائية وتـكاد تهيم بها ، حتى تقشعرّ اذ تتمثل لك صورة تليها .

تلك هي طبيعة المكان التي عملت عملها في جبران صبياً وفتى ، انه عمل المحيط والمربى . اقرأ جبران في كل مـــا كتب ، من دمعة وابتسامة إلى الاجنحة المتكسرة ، الى النبي فيسوع ابن الانسان ، وآلهة الارض ترَ ان الشاعر او الـكاتب جبران — سمّه مـــا شئت — لا يستعير صورة ولا موضوعاً من مهجره ، فكأنه يكتب في محيط شرقي ، وكأن أذنيه مسدودتان لا تسمعان ضجيج الدواليب وزئير صواريخ المعامل والبواخر .

وهو في أروع ما كتب باللغة الانـكليزية لا يتعدى هذه الحدود ، فالليل والناي ، والوادي والنهر ، والبحر والثلج والضباب مواد منتوجاته الأولى . يذكر البيدر والكروم ونواح المعصرة ، فكأن جرن المعصرة كان سريره ، والضباب اقمطته والبيدر ملعب صبوّته . وهنا يعمل فيـه شيئان : لبنان والتوراة .

إنشاء لدن مرن ناعم ، تعابير مملوءة الواناً وموسيقى ، تنعشها نفس صوفية كانت المثال الاعلى لإخوان الرابطة القلمية . فعوّلوا جميعاً على هذا الأسلوب الناعم الطري الممزوج بالروح الصوفيـــة وتفلسفوا كلهم في شعرهم ونثرهم .

ان جبران كاتب مقـلّ مجوّد متعمّل ، ولكن صقله الدائم لعبارته أخفى تعمّله ، فكاد ان يكون انشاؤه طبيعياً لا تحس أثر الصنعة فيه .

اما الطور الجبراني الثاني ، وهو طور الاقصوصة والقصة ، فلا ينحرف فيه جبران عن أسلوب « دمعة وابتسامة » الا قليلاً . يتجه اتجاهاً ملموساً صوب الواقع لان القص والحوار يحولان دون التحليق الكـــلي في سماء الخيال . وقصص جبران جميعها بل أدب جبران كله قوامه الحب . فحب اللحم والعظم هو القطب الجبراني وعليه تدور رحاه الطاحنة ... ومـا اغراقه في الصوفية الا رجاء الخلود في حضن المادة ، والتنقل من حال

إلى حال ليظل يتمتع بمباهج الحياة وملذاتها . الحب الانساني المـادي هو أنشودة جبران وهو غرضه في جميع اقاصيصه . ففي قصته الاجنحـة المتكسرة غنّى الحب المقهور أعذب الحان سمعها الادب العربي .

كان حب جبران حباً خاصاً ضيقاً في « سلمى كرامه » ، و « وردة الهاني » ، و « مرتا البانية » ، و « صراخ القبور » ، ثم صار حباً عاماً مطلقاً في « النبي » و « يسوع ابن الانسان » ، ولكنه ظلّ حباً لجيـــاً عظيماً ، فالشوق عند جـبران غذاء روحي تحيا به الحياة نفسها ، ولولاه لم يكن شيء مما كان . فكأنه قد استمدّ هذا الشوق من اساطير الفينيقيين الاولين . فهو يتصوّر الضباب كما تصوّروه ، ويعتقـــد بتكتله العتيد وصيرورته في الغد القريب كياناً سوياً ... كما يعتقد الفلكيون بتطوّر النجوم السديمية .

وهذا المعتقد الفينيقي الاصل جرّ جبران إلى الاعتقاد بالتقمّص ، فبدأه في فجر حياته الادبية حين ظهرت اولى مجموعات اقاصيصه «عرائس المروج» . ففي إحدى قصص هذه المجموعة وعنوانها — رماد الاجيال — يختار لها بعلبك محيطاً يظهر بطلها « علي » قرب القلعة المشهورة ويلتقي بحبيبته التي عرفها وعشقها منذ آلاف السنين . ان هذه الفكرة التي هام بها جبران طول حياته لم تفارقه قط ، وبها ختم كتابه « النبي » إذ قال : « وقريباً ترونني لأن امرأة أخرى ستلدني » .

أمـــا الطور الجبراني الثالث فهو طور الفلسفة ، عبّر فيه عن افكاره باللسان الانكليزي ، واراد ان ينقل إلى اميركا العملية صوفية الشرق ، فكتب لهم بلسانهم « المجنون » و « السابق » و « النـــبي » و « يسوع ابن الانسان » ، و « آلهة الارض » ، وفي هذا الكتاب الاخير غرق جبران في الرمزية إلى ما فوق اذنيه .

وكأني به ، إذ عنون كتابه « السابق » ، ذو غرض بعيد ، اظنه يعني

به أحد الانبياء وهو الذي يسمونه في النصرانية يوحنا السابق ، لانه سبق السيد المسيح مبشّراً به ، وهكذا يجعل جبران كتابه هـــذا « سابقاً » لكتابه « النبي » .

أمــا كتابه « النبي » الذي زعموا انه يشبه كتاب نيتشه فهو بخلاف ذاك . ففيلسوف المانيا أنشأ النازية ، أما جبران فلم ينشىء شيئاً ، بنى كتابه على المحبة ، والمحبة أساس اديانناا . ان لولب كتاب فيلسوف الالمان يدور حول البغض فكان من نتائجه ما كان ...

أما نزعة جبران إلى « التأميم » فغلبت عليه في طوره الاخير ، فهو مثل نيتشه يريد أن يتّشح في برد النبي مهما كلفه الامر . ولكن فكرته هذه لم تؤدِ به الى مستشفى المجاذيب كما أدت بنيتشه . كان جبران يتحدّث عن الروح وتعاليمها وهو غارق في جسده ، يتحدّث عن الحب الاسمى ، ولا يعني إلا الحب الانساني ، وهذا ما يحملني على التأكيد ان الرجل وثني المعتقد ، وان كتب عن يسوع ما كتب ؛ فينيقي عتيق يرى في مسيحه شخصية ادونيس ، بعد اجيال ، كما نقرأ في « يسوع ابن الانسان » . ومع هذا اخالني متأكـداً ان « الحب » لم يسمع صوتاً ألذّ واعمق من صوت جبران ، ليس في الادب العربي فقط بل في الادب العالمي ، والغريب العجيب هو ان ما يكتبه جبران في هذا الموضوع آية في النعومة على ما فيه من ثورة هدامة .

أما اثر جبران في الرابطة القلمية وما بعدها فلا يزال ملموساً ، فكل اعضائها اقتربوا من طريقته في التفكير والتعبير . فمقالة جبران «حفّار القبور» ، وقصيدة الاستاذ نعيمه « اخي إن ضج ... » كأنهما من مقلع واحد ، وان اختلفتا شكلا . أما معتقد الخلود فواحد عندهم جميعاً .

هذا ابو ماضي الذي أعدّه صلة بين القديم والجديد يفلسف كأصحابنا

جميعاً . يحدّثنا عن جهله كيف جاء إلى هـــذا الكون ، فذكرني بقول الريحاني ، حين شبه وجوده في هذه الدنيا وجهـله له بجرذ وجد في قبر عتيق ... فهو يعيش فيه ولا يعرف من بنـــاه ، ولا متى شيّد ، ولا يوم تهدّمه !!

تخيّل جبران في كتابه « النبي » مدينة أبحر اليها ، وقد جعل اسمها : « اورفليس » على وزن اورشليم ، فالتقاه ناسها واخذوا يطرحون عليـــه اسئلتهم طالبين منه حلّ مشاكلهم الاجتماعية . فحلها لهم حلاً شرقيـاً ، مفتاحه المحبة والسلام .

ومثل جبران فعل الاستاذ نعيمه ، حين عاد الينا ، فكرز هنـــا ، وعلّم هناك متصلاً بالناس مباشرة يراهم ويرونه ، ويكلمهم ويسمعونه ...

ثم جمعت تلك الخطب في كتاب « زاد المعاد » . الخبز والادام واحد في « النبي » و « زاد المعاد » . أمّا اختلافها ، في بعد مدى التأثير والسيرورة ، فذلك ناشيء عن ان الاستاذ ميخائيل يحدث اناساً غير غرباء عن اورشلـــيم فما نفقت بضاعته عندهم كما نفقت بضاعة جبران عند الاميركيين ، الذين ينفق عندهم كل شيء .

اما الاسلوب الذي اعتمدته هذه المدرسة فيلخصه جبران بقوله : « يكتب بعضنا لمن ماتوا ، ولا يدري ان قرّاءه في المقابر . ويكتب بعضنا لإرضاء معاصريه حاسباً ان في ذلك العظمة والخلود فيخطيء المرمى . ويكتب بعضنا لانه ان لم يكتب يمت وهذا من الخالدين » .

أما رأيه في شعراء المهجر فقد قال : « لو تنبأ المتنبي وافترض الفارض ، ان ما كتباه سيصبح مورداً لافـكار عقيمـــة ، ومقوداً لرؤوس مشاعير يومنا لأهرقا المحابر في محاجر النسيان وحطما الاقلام بأيدي الاهمال .

ان عصرنا هذا قد كثرت فيه قلقلة الحديد وضجيج المعامل : فجاء

شعرنا ثقيلاً ضخماً كالقطارات ، ومزعجاً كصفير البخار » .

وهنا يخطر ببالنا جبران الشاعر « نظماً » فهل وفق يا ترى إلى الشعر الذي يريد ؟

لا . ان جـبران شاعر في منثوره لا في منظومه . أراد ان يفلسف نظماً فقال أشياء هي أفـكار أكثر منها موسيقى .

كانوا في الأندلس يتخطون من الطب إلى الفلسفـــة ، وفي « اندلسنا الجديدة » كما سماه بعضهم ، يتخطون من الادب إلى الفلسفة ؟ وهذا ما وقع لجبران ونعيمه .

وبعد ، فقد يمسي أسلوب جبران كأسلوب ابن العميد ، ولكنه كيفما دارت به الحال يظل أسلوباً متّبعاً ، ويظل صاحبه زعيم مدرسة يبقى الكثير من عناصرها في الذرية ، تتمشى فيها تمشي الوراثة في الناس . وما هذه الالوان والمجازات والاسنادات والاغراق في تعبئة الجملة إلا مظهر من مظاهر الادب الجبراني تحوّل وتطـوّر كما تراه في شعر الشباب الحديث ونثرهم .

واذا ماتت « دمعة وابتسامة » واخواتها فلا تموت كلمات جبران . واني لأراها تنبعث يوماً بعد يوم من مراقدها لاننا نجد في تآليفه مـــا يعزّينا في محنتنا ، وما يدفعنا إلى العمل بنصائحه لنصيب الاهداف التي تنصبها الاحوال الراهنة أمام أعيننا .

فزعيم أدب المهجر شخصية لها مميزاتها القوية ، وعناصرها المتمردة . فهو شرقي عربي ، لم يكتب ليمغرب الشرق بل كتب ليمشرق الغرب ويكون له رسولاً ... والشخص الفذّ هو الذي يحتفظ بلونه لانــــه في غنى عن الالوان التي يكتسبها من محيط غريب .

ان النوابغ يفرضون أنفسهم على الناس . والمجنون هو من يحـــاول طمسهم ... إنه كمن يبصق في وجه الهواء القالع .

المدرسة الجنوبية

اقفلت مدرسة اميركا الشمالية ابوابها ، وتفرق السرب ، فهذا الريحاني يغني على ليلى جديدة ، ينفخ في بوق القومية العربية داعياً احفاد يعرب إلى الاتحاد ، بعد ان اضطجع على صفة ربة الوادي في الفريكة صارخاً مستطباً : داويني ربة الوادي ، داويني .

وهذا جبران قد امسى يكتب بلسان الدولار والشلين .

وهذا ميخائيل نعيمه يعود إلى لبنان ، بعد موت جبران ، ويختلي في بسكنتا والشخروب ليكتب « المراحل » ثم كتاب « جبران خليل جبران» النفيس ، كتبه ليبدد غيوماً تكاثفت حول جبران ... خاف ان يختنق صديقه الحميم وراء غيوم النبوءة الكثيفة ، فشقّ ثوبه عن صدره ليمكنه من تنشق الهواء النقي ... ثم خال ان ذلك غير واف بالمرام ، فبدأ منذ حبل به في البطن ، وأخيراً ، كشف عن عورته ... فتمّ الكتاب ... وفي كتابه هذا « جبران » يؤرخ لنا ميخائيل انشاء « الرابطة القلمية » واضعاً النقاط على الحروف .

أما ايليا أبو ماضي ، شاعر المهجر الكبير ، فاحترف الصحافة واقلّ من قول الشعر . أما الآخرون وهم « العمال » كما يسميهم قانون الرابطة فكادوا ان يصمتوا .

عاد الينا الاستاذ نعيمه خارجاً من معترك عملية نيويورك مثل الشعرة من العجين ، فاسمع كيف يخاطب ابناء بلدته :

يا ابناء بسكنتا ، يا لحمي ودمي . ما أنا بالنبي يصنع العجائب ، غير اني مذ عدت اليكم والعجائب تكتنفني ، فكأني في عالم مسحور . انظر إلى الجبال التي كنت اتسلقها ، فاذا بها تتسلقني !!. اكاد لا اسمع زقزقة عصفور إلا سمعت فيها اجواقاً من الملائكة ، ترنم بصوت واحد : قدوس ، قدوس ، قدوس .

ما أبعد السلام المخيم في جبالكم عن الجلبة المعسكرة في مدينة كمدينة نيويورك ، وتلك الجلبة هي تطاحن المطامع والاهواء البشرية في سبيل الريال . وليس أضلّ ممن يعتقد ان بامكانه التوفيق بين ريال نيويورك وسلام صنين . فريال نيويورك نقاب كثيف يحجب وجه الله ، وصنين عرش من طهارة يبدو عليه وجه الله سافراً . من اختار منكم ريال المهجر وكل ما في قلبه من جلبة لا تسكتن ، فليطلق سلام صنين !

تقولون لي : وهل نأكل سلام صنين اذا عضنا الجوع ، او نلتحف به اذا قرصنا البرد ؟

وأنا أقول لكم : بلى والف بلى . فالجمال الذي تنثره يد الله حواليكم بسخاء هو الطعام والكساء والمأوى لكل ما هو ازلي وابدي فيكم » . ولكن أأكل نعيمه من التفاح والدراقن والخوخ ، أم أكل من سلام صنين؟

ثم يعلن في مقام آخر : انه حطم جميع أبواق الناس التي تعلم النفخ ليستعيض عنها ببوق واحد ، هو البوق الذي يمجد به الحياة الكاملة ، والحياة الكاملة التي يعنيها نجد عناصرها في خطبه « زاد المعاد » ، وهي تصلح دستوراً للحياة المثلى ، ولكن هل استطاع صاحبها ان يحب ويجود ويضحي كما قال ؟ هل يعمل بما علّم ويعلّم ؟ قال فيه صاحبه امين

الريحاني ، في كتابه « قلب لبنان » :

« وفي هذه الصرود كوخ في صخر اسمه الشخروب ، بقي طوال الدهر نكرة مثل المزارعين والرعاة الذين كانوا يأوون اليه . بقي نكرة الى ان شعّ فيه نور الفكر والادب ، اتخذه ميخائيل نعيمه « مقاماً » يطبخ فيه طبخات صوفية ، ويعمل التوابل والحوامض الادبية ، ويوزعها في الكتب والمقالات على الناس لوجه الله تعالى ...

هنيئاً للنساك الاقدمين اجدادنا المتعبّدين ، المتصوّفين : هنيئاً لميخائيل ، فقد عاد اليهم في القرن العشرين عن طريق اميركا إلى صنين : واندمج في سلكهم الطاهر » .

وهكذا تقلّص ظل « الرابطة القلميّة » تلك المدرسة الادبية التي ارتقى على يدها النثر العربي إلى ذروة فنية مرموقة . كانت كما تدلنا اقوال زعمائها وعمالها ، مدرسة عامة لا نزعة خاصة لها ، تكاد تكون أممية ، بل قل شرقية شاملة . كان فيها شعراء ولكنهم ليسوا من الشعراء الكبار — اذا استثنينا أبا ماضي — كلهم قالوا شعراً منظوماً : من جبران إلى نعيمه ، إلى كل عضو من اعضاء الرابطة ولكن منثورهم فاق منظومهم .

أما المدرسة التي فتحت ابوابها في البرازيل — العصبة الاندلسية — فقد لا تكون كالرابطة القلمية تنظيماً وجهاداً ، وقد لا يكون لها دستور كتلك ، وان كان لها مجلتان راقيتان لم يكن للرابطة القلمية مثلها . وهاتان المجلتان ظلّتا تصدران حتى الأمس ، وهما « العصبة الاندلسية » و « الاندلس الجديدة » . من عنوان هاتين المجلتين تعلم ان الشعر غالب على هذه المدرسة . فالمهجر البرازيلي لم يتحفنا بغير دواوين شعر مختلفة الالوان والنزعات ، ينحو أكثر شعرائها نحو شعراء « الرابطة القلمية » في الاغراض الوجدانية وينفردون دونهم بالشعر الوطني القومي . وهذا الضرب لم يعالجه شعراء

اميركا الشمالية .

كان المهاجرون البرازيليون قليلي العناية بالادب . لا يعني صحفهم الاولى إلاّ السياسة والاخبار ، وظلوا على ذلك حتى وصلت هذه القافلة المتأدبة إلى البرازيل ، فوجدت فيها مرتعاً خصباً لعبقريتها ، وجالية متعصبة لجنسها وقوميتها ، وشعباً برازيلياً يحترم العروبة ويجلها ، ويذكر ما لها على أمته في سالف الزمن من يد . فاتقدت جذوة الادب في صدورهم ، والادب كالتجارة ينمو بالاخذ والعطاء .

ان شعراء اميركا الجنوبية او اللاتينية كثيرون ، من مشاهيرهم رشيد سليم الخوري – الشاعر القروي – والياس فرحات ، وشكرالله الجر وأخوه عقل ، ونعمه قازان ، وفوزي المعلوف ، واخوه شفيق .

قال فوزي في بساط الريح شعراً اندلسياً حقاً لولا ما فيه من غلو واغراق ، تتجاوب الاصداء النفسية في منعرجاته ومنحنياته ، ولكنها تلهث تعباً . وهذه النشيدة الانيقة – بساط الريح – أحلّت شاعرها فوزي المعلوف منزلة عالية . أما قصائده التي قالها في مواضيع متشعبة فليست من وزنها وبابتها . جرّب فوزي اولاً في قصيدة عنوانها « الفردوس المستعاد » فلم يقل غير الدون من الشعر ، واليك منه هذا النموذج الصغير :

فانحنى آدم لربّ الانـــام	ثم خرّا
ساجداً قائــلاً بكل احترام	ربّ شكرا
قال ايضـــاً لزوجه حواء	بابتســــام
كفكفي الدمع أبشري بالصفاء	والســـلام
لم يعد موجب الماضي البكاء	والمـــلام
استعدنا الفردوس بالابنـاء	بالهيـــام

أرأيت « خرّا » و « بكل احترام » و « قال ايضاً » و « لم يعد موجب »

ما ابعدها عن الشعر ؟ فهذا شعر لا شعر فيه ، ولا يحسن صاحبه غير التفعيل ، ويخفى عليك حتى تظن انه ليس لصاحب « بساط الريح » . حقاً ان الشاعرية قريحة وطبع ، اما اجادة السبك فمران .

واذا قابلنا بين فردوس فوزي المستعاد وبين « أوتار » اخيه رياض المتقطعة نكاد نجزم ان رياضاً سيكون بدراً كاملاً ، لأن الفرق بين « الفردوس المستعاد » و « الاوتار المتقطعة » بعيد جداً .

اما شفيق ، وهو من شعراء هذه العصبة ، فقد ركب متن طائرة ، مثل شقيقه فوزي فحملته إلى عبقر : فخاف وخوّف ، وعاد من ذلك الوادي المسحور لا يحمل شيئاً لان الحال في عبقر كما هي في ممالك ودول اليوم : ممنوع التصدير الا عن طريق المقايضة . وشفيق لم يكن معه شيء ليقايض ويعود غانماً ...

وهؤلاء الاخوة ثلاثتهم : فوزي وشفيق ورياض ، محشو شعرهم تشاؤماً ، ونصيحتي لرياض ان يعدّي عن تشاؤمه او فليكن صاحب الكوخ الاسود لا الاخضر ، فالاخضرار والتشاؤم كالصيف والشتاء على سطح واحد .

أما شعراء اميركا اللاتينية الباقون ففي شعرهم طلاوة الشعر الاندلسي بل يفوقه جرساً وشدة أسر . فاذا قرأت روائع شكرالله الجر وفرحات والشاعر القروي رأيت ان هؤلاء أخذوا من شعر الاندلس طلاوته دون ميوعته فقالوا شعراً طيباً .

اما نعمة قازان صاحب معلقة الارز ، فقد جمع فيها خواص الشعر الاندلسي ، بل قل اطواره كلها ، من الموشّحات الرصينة حتى القوما والدوبيت ، يبتدئها بالميجانا والعتابا ، ويختتمها بالزجل ، وهذا البدء والختام من الشعر الرائع . اما شعر المعلقة فمغامرة جريئة لا ادري ما يكون شأنها في الادب . ولست أدرسها الآن ، فموعدها مع شعراء المهجر جميعاً ،

في الكتاب الذي يلي هذا .

ان في هذه القصيدة مرامي بعيدة تستدعي التفكير ، والآن لا نقول فيها الا كلمة عارضة جرّتنا اليها موضوعنا . فالظاهرة الغريبة ، في هذه القصيدة ، منبثقة مما قلنا سابقاً ، اي ان اندلسيينا الجـدد يتخطون من الشعر الى الفلسفة : فنعمة قازان خلق لنا ثالوثاً جديداً وكاد ان يوجب علينا تقديسه ، وهذا الثالوث يتألف من ثلاثة : جبران وهو فجر ، وميخائيل نعيمه فجر في فجر ، والشعاع نعمة قازان ، رحم الله عظام مـار توما ، فـكم تعب حتى يحل عقدة المسيحية التي لم تفكّ ، وها هو الشاعر نعمة قازان يفكها على الهينة ! فجـبران الآب ، ونعيمه الابن ، ونعمة الروح القدس ، ومن لا يؤمن يُدان ، وطوبى للنقيّة قلوبهم فإنهم يعاينون الله ... اما من هم مثلنا فما ابعدهم عن مشاهدة « صندوق الفرجة » ...

ففي نظر قازان ان جبران لم يقل كلمته ، ونعيمه الذي سماه قازان « فجر في فجر » – على طراز ما جاء في « قانون الايمان » : نور من نور ، اله حق من اله حق – قد قال بعضها . عثر نعمة قازان على هذا الفجر في فجر ، او النور من نور ، في الهيكل العجيب حين دخـله هو . ويؤكد لنا انه لم يجد فيه أحداً غيره ... ولذلك يخاطب نعمة قازان الناس جميعاً في بدء كل مقطع من معلقة الارز بهذا البيت :

وقفتم ببابي ولم تدخلوا فماذا تريدون يا اخوتي

سلامتك يا اخي ... الا انه ، على نبله وكرمه ، اشاح بنظره عنـا وطار كإيليا ، وبرفـة عين بلغ السدرة ...

لم يقاس شيئاً مما قاساه شفيق معلوف في رحلته تلك ، بل قفز قفزة عريضة فاذا به حد الله جلّ جلاله :

وحلقت حتى دنوت اليه فقلت « السلام على العزّة »

وقطع الكلام خاتماً معلقته بهذا البيت ، ثم لم يقل لنا شيئاً عن الرد على هذه التحية ، أمثلها كان أم أحسن منها . وهذا الشاعر الذي بلغ ما لم يبلغه احد من بني آدم حتى الرسل والانبياء ، يتواضع ويقول :

وليس كبير سوى نعيمة   وليس صغير سوى نعمة

فيكم الخير والبركة ، كلاكما كبيران يا اخي نعمة ... نجّانا الله وإياكم من هذه الوساوس !

***

وها نحن نبحر او نطير من الاميركتين عائدين إلى لبنان ، ونستريح قليلاً للاستجمام ، مرجئين نقد المدرسة الشعرية الحديثة وتحليلها مبتدئين بزعيمها سعيد عقل والجائلين معه في المعمعة ، ولن نهمل احداً حتى المقلدين الخاسرين .

ثم نمرّ عجالى على المدرسة النثرية الجديدة لأنها مشتقة من تلك . ان هذه الطريقة في النثر قد شغلت عقول الناشئين وأذهانهم حتى كادوا ان يفسدوا صورها وتعابيرها . والأغرب من هذا ان ينزع اليها بعض المشايخ ويوغلوا في غاباتها غير خائفين على عمائمهم وأردانهم وأذيالهم .

فهرست الاعلام

فهرست

لمارون عبود ، في دنيا الأدب ، ركائز راسخة الاصول ، قائمة على مزايا تفرض نفسها فرضا حتى على المكابرين ، ومنها الصراحة ، والجرأة ، وخفة الروح التي تصقل النقد صقلا فتجعله ضربا من التندر السائغ. ومارون سيد كبير من سادة النكتة العفويّة التي تطل في حينها ، فتكسو الموضوع كأنها مفصّلة على قدّه

ولعلّ هذا الكتاب « **مجدّدون ومجترّون** » يحتوي على قسم كبير من الركائز العبّودية ، لأن المؤلف تناول فيه شعراء كباراً وناشئين ، فقال فيهم كلمته بمحبة ، تلك المحبة التي توجع احيانا كمبضع الجراح ، فلا يتنكر لها الا من يجهل مارون عبود ، او من يضيق صدره بكلمة حق تقال من فوق السطح .

Bibliotheca Alexandrina
0494507